وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي بغرداية
معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا

البرتغال – إسبانيا – فرنسا

(986هـ – 1578م / 1012هـ – 1603م)

إعداد الطالب:
جلول بن قومار

إشراف : أ د / عمار بن خروف
المشرف المساعد: د/ صالح بوسليم

لجنة المناقشة

أ/الدكتورة: عائشة غطاس.. رئيسا

أ /الدكتور: عمّار بن خروف مشرفا ومقررا

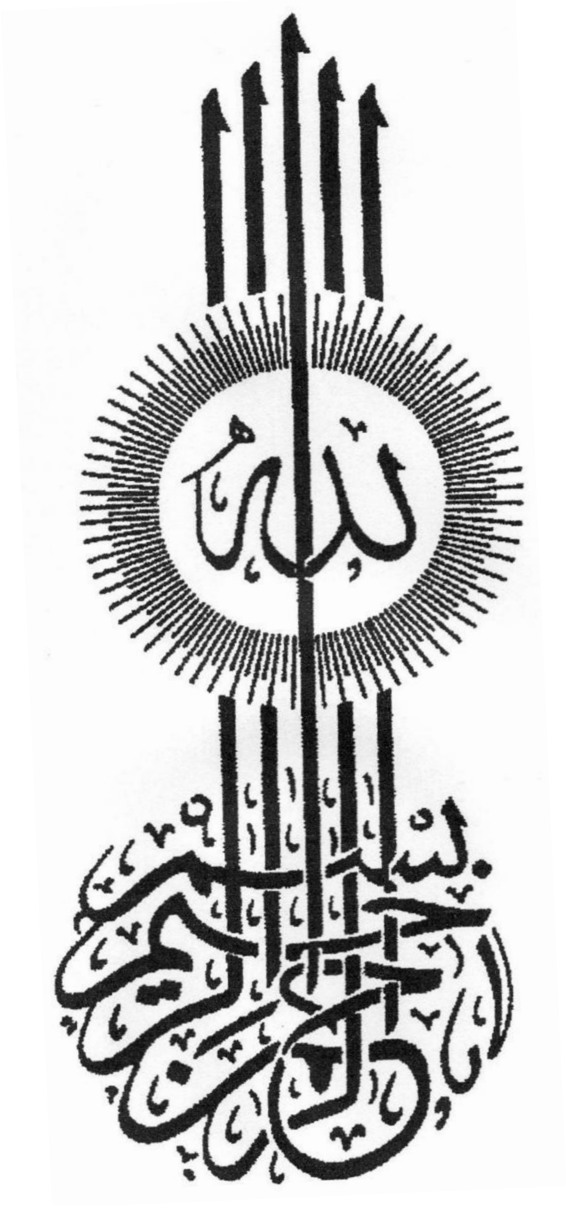
الدكتور: صالح بوسليم. عضوا مشرفا مساعدا

أ/ الدكتور: حساني مختار عضوا مناقشا

الدكتور: شكيب بن حفري عضوا مناقشا

ملاحظة: نوقشت بتاريخ 25 ربيع الأوّل 1432 هـ / 28 فيفري 2011 بتقدير 17.5

السنة الجامعية : 1431هـ – 1432هـ / 2010م – 2011م


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الوالدين الكريمين حفظهما الله

إلى زوجتي و أولادي الأعزاء

عبد المجيد – آسيا – زينب – مريم – كوثر

إلى كل من كان معي طوال إنجازي هذا العمل

أهدي هذا الجهد .

شكر وتقدير

إذا كان من كمال شكر الله شكر الناس ؛ فإنه يسرّني أن أتقدم بالشكر الجزيل والتقـــدير العظيم لأستـــاذي المشرف الأستاذ الدّكتور عمّار بن خروف الذي قبل الإشراف على دراستي ، ورعاها منذ أن كانت فكرة حتى أصبحت حقيقة ؛ فكان نعم المرشـــد لي بنصـــائحه الثمينـــة ، وملاحظاته القيّمة ، و تشجيعه المستمر لي . كما لا يفوتني أن أتقـــدم بشـــكري الخـــالص إلى المشرف المساعد الدكتور أبو سليم صالح الذي لم يبخل عليّ بتوجيهاته القيّمة ودعمه، وشملـــني بسعة صدره و صبره، وحرص بدأب على متابعة تفاصيل عملي.

كما أعرب عن عظيم شكري وامتناني لجميع أساتذتي الدكاترة المحترمين الـــذين ســـاهموا في تكويني سواء في مرحلة الليسانس أو مرحلة الماجستير عناء مناقشة مذكرتي هذه ؛ فصبروا علـــى قراءتها و تقويمها ؛ وحرصوا على إفادتي بعلمهم ، وتوجيهاتهم السديدة والتي كانت لهـــا الأثـــر الطيب في هذه المذكرة .

كما أشكر القائمين على إدارة مكتـــبة الآباء البيض بغرداية و المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة على ما قدموه لي من خدمات تتعلق بتزويدي بالمصادر والمراجع .

ويمتد شكري العميق إلى الأخوين : كروم نصر الدين، و ابن عبد الرحمـــن أحمد اللذين ساعداني على طباعة هذه الصفحات و إخراجها، و الشكر العميق موصول أيضا إلى كل من أمدني بالدعم المعنوي، و ساندني لإنجاز هذه المذكرة لتصل إلى نهايتها. فجزى الله الجميع عني و عن العلم خيرا .

الطـــالـــب : جلول بن قومار

قائمة المختصرات الواردة في الدراسة

الرمز	المعنى
م د ح م	مجلّة دعوة الحق المغربيّة
د ت	بدون تاريخ
ط	طبعة
ج	جزء
ص	صفحة
ص ص	صفحات عديدة متلاحقة
R	Revue
R.A	Revue Africaine
N^O	Numero
S.D	Sans Date
R.O.M.M.	Revue De L'occident Musulman Et De La Méditerranée
P	Page
T	Tome

مقدمة

شهد التاريخ معارك فاصلة، وأحداثا حاسمة غيّرت مجرى الحياة، وصنعت مصائر الناس، وأعادت رسم خريطة العلاقات بين الدّول، و توجيه موازين الصّراع بين الأمم.

ومعركة وادي المخازن أو الملوك الثلاثة موضوع البحث بلا ريب هو إحدى هذه المعارك ؛ فهي تمثل حدثا تاريخيا فاصلا ومهمّا، كانت له تداعيات و أبعاد إستراتيجية ؛ أثرت على منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط ، وعلى المغرب الأقصى ، وعلاقاته الدّولية في الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري / السّادس عشر الميلادي ، بل امتدت آثارها إلى العالم الإسلامي والمسيحي على حدّ سواء . فقد غيّرت هذه المعركة الحاسمة موازين القوّة في تلك الفترة ، و أرّخت لحقبة من الصّراع الإسلامي المسيحي .

وقد خاض المغاربة هذه المعركة في صيف 986هـ/ 1578م على أرضهم بمنطقة القصر الكبير تحت قيادة عبد الملك السّعدي ، وأخيه أحمد المنصور دفاعا عن كيانهم وعقيدتهم وحريتهم . أما البرتغاليون وحلفاؤهم الأوروبيون فكانوا بقيادة الملك الضون (سيبستيان) مدفوعين بقوة التعصب الديني ، والرغبة في احتلال البلاد ،وإن تظاهروا أيضا بنجدتهم للملك المخلوع المتوكل الذي استجار بهم بعد فراره من المغرب .

وقد حرص الطرف المغربي على الانتصار في هذه المعركة المصيرية، لحماية كيانه ووجوده ، وعلى رد الاعتبار لما لحق بالمسلمين من مآسي ومحن على يد الإسبان والبرتغاليين ، بينما كان هدف الطرف الثاني ضرب دولة الإسلام بالمغرب، والاحتلال من جديد لما حرره المغاربة ، والتوسع أكثر في احتلال شواطئ المغرب ،والهيمنة على دواخله .

- دوافع اختيار الموضوع :

نظرا لأهمية هذه المعركة ، وانعكاساتها على المغرب ، وعلاقاته مع كل من البرتغال وإسبانيا وفرنسا ؛ رأيت أن أتخذها موضوعا لمذكرة بعنوان : " **معركة وادي المخازن ، وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا (البرتغال و إسبانيا و فرنسا) (986هـ- 1578م/ 1012هـ- 1603 م)** " .

وفي الحقيقة هناك دوافع أخرى جعلتني أختار الموضوع منها:

1- أن معركة وادي المخازن كانت من المعارك الحاسمة في أول قرون التاريخ الحديث، والتي وضعت حدا للأطماع الأوروبية بالمغرب الأقصى،قبل أن تتجدد الأطماع في القرن 13هـ/ 19م ومن ثمة فهي جديرة بالبحث والتعهد من نتائجها وآثارها.

2- ميلي إلى هذا النوع من الدراسات التاريخية، ورغبتي الملحّة في الإطّلاع على ما كتب عن معارك المسلمين، وأيّامهم و أمجادهم وانتصاراتهم، عندما كان لنا عزّ وهيبة وسلطان.

3- الرغبة في المساهمة بالكتابة في هذا الموضوع، لأنّ الدراسات التاريخية التي تتناول المغرب الأقصى في الجزائر قليلة ، مقارنة بالدراسات التي تتخذ من تاريخ الجزائر مواضيع لها .ثم إن معركة وادي المخازن عندي سُنة من سنن التدافع، وتصفية لحساب، وتصحيحا لأوضاع، وردا لاعتبار ولذلك فإن الكتابة في هذا السّياق ترفع معنويات الدّارس لتاريخ المسلمين خصوصا ونحن نعيش عصور الضعف والتراجع الحضاري، فصرنا نتأثر بالأحداث ولا نؤثر فيها.

4- تشجيع أستاذي المشرف لي على خوض غمار البحث في تلك النتائج وآثارها على علاقات المغرب الخارجية مع أهم دول غرب أوروبا.

5- وفرة المصادر والمراجع التي تناولت المعركة مما زادني رغبة في المضي في هذا البحث .

6- عدم إنجاز مذكرة أو رسالة في الموضوع كما تبين لي بعد تفحص الكثير من الرسائل الجامعية في الجزائر على الأقل.أما الأعمال التي أنجزت هنا وهناك عن المعركة، فلا تثنيني عن الإدلاء بدلوي فيها ،لأني مقتنع بإمكان إضافة شيء ما إليها .

- الإطار الزماني والمكاني للدراسة:

أمّا الإطار الزّماني للبحث ؛ فقد حددته من986هـ/ 1578م / وهو تاريخ معركة وادي المخازن إلى1012 هـ/1603م تاريخ وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي .وإن كنت قد رجعت إلى العقود الأولى، التي سبقت معركة وادي المخازن ليتمكن الباحث من فهم الإطار الواسع للعلاقات بين المغرب، وأهم دول غرب أوروبا (البرتغال – إسبانيا –فرنسا)

- إشكالية الدراسة :

ينطلق موضوع هذه الدراسة من ثلاثة أسئلة جوهرية،تمثل الإشكالية التي يقوم عليها هذا البحث ألا وهي :

ما حيثيات معركة وادي المخازن ؟ وما انعكاساتها على علاقات المغرب مع دوّل غرب أوربا(البرتغال و إسبانيا وفرنسا) ؟ و لماذا لم يستثمر المغرب هذا النصر في تحرير كل مدنه السّاحلية ؟

- الدراسات السابقة :

إنّ حدثا مؤثرا في التّاريخ ، كمعركة وادي المخازن قد استرعى اهتمام أكثر من واحد من الباحثين والمؤرّخين، الأقدمين منهم والمحدثين ، فألّفوا فيها كتبا ومقالات ؛ أثروها بالتّحليل و الوصف والتّوثيق ؛ أذكر منهم على سبيل المثال الدّكتور شوقي أبو خليل في كتابه "معركة وادي المخازن"؛ الّذي أشار في مقدّمته أنّه اعتمد في ذكر الموقعة على كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى بالدرجة الأولى، والأستاذ إبراهيم حسن في كتابه "وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب"، و الأستاذ يوسف نكروف في كتابه " LA BATAILLE DES TROIS ROIS ".

وما تجب الإشارة إليه أنّ هذه الدّراسات رغم أهميتها قد ركّزت على وصف المعركة و مجرياتها ؛ فوفرت مادّة تاريخيّة غزيرة ، وأثرت السّاحة الثّقافيّة بمعطيات هامة ؛جعلت الباحث في تاريخ العلاقات بين دول المغرب الإسلامي ودول الغرب المسيحي خلال العصر الحديث، يجد مادة هامة في تلك المقالات، والدراسات، فضلا عن الوثائق عن العلاقات المغربية وأوروبا الغربية، ومن ثمة تمكنه من بناء رسالة جامعية جيّدة التوثيق ، توضح دقائق تلك العلاقات والتعمق في فهمها.

- المنهج المتبع في الدراسة :

اتبعت في هذه الدراسة المنهجين التّاريخي والوصفي التحليلي ؛ فاستعنت بالأول لتتبع وقائع هذا الحدث التاريخي والأوضاع التي سبقته ، ودراسة آثاره المختلفة، ولجأت إلى المنهج الثاني (الوصفيّ) لتحليل أبعاد هذه الواقعة التاريخية ، وما ارتبط بها من تداعيات لأتمكّن من الإجابة عن الإشكاليّة التي طرحتها ، والتّساؤلات التي أبديتها ، في فصول الدراسة للوصول للنّتائج الّتي أصبو إليها.

- الخطة المعتمدة في الدراسة :

اعتمدت في موضوعي على خطة اشتملت على ثلاثة فصول : حاولت في **الفصل الأول** ، وهو بمثابة فصل تمهيدي ، تقديم نظرة تاريخية عن الأوضاع في المغرب الأقصى وشبه الجزيرة الإيبيرية وفرنسا وعلاقات المغرب الأقصى مع تلك الدول قبل معركة وادي المخازن.

أما **الفصل الثاني** : فقد خصصته لمعركة وادي المخازن وجوانبها المختلفة ؛ فوضحت فيه أســـبابها القريبة والبعيدة ، ثم قدمت وصفا مستفيضا لمجريات المعركة وتفاصيلها ، لأخلص بعد ذلك إلى نتائجها المختلفة على المغاربة و البرتغاليين .

وفي **الفصل الثالث** : انتقلت إلى دراسة أثـــر معركة وادي المخازن في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا ؛ فخصصت مبحثا لعلاقات المغرب مع البرتغال وآخر لعلاقاته مع إسبانيا ، وثالثا لعلاقاته مع فرنسا .

وختمت المذكرة بخاتمة، ضمنتها أبرز النتائج التي توصلت إليها في البحث ، و أتبعت الخاتمة بملاحق خاصة ؛ تضمنت خريطة ونسخا لرسائل وصورا تخص المعركة ، ثم قائمة مفصلة ، شملت المصادر و المراجع و الفهارس المعتمدة .

- نقد المصادر و المراجع الخاصة بالدراسة :

تختلف مصادر التّاريخ المتعلقة بالعصر السّعدي من حيث المواضيع والمادة والأهمية ، ففيها ما هو تاريخ سياسيّ ، ومنها ما هو تراجم خاصة ، كما أنّ فيها مراجع باللغة الأجنبية، و وثائق متنوّعة، ومن جهة أخرى هناك حوادث عالجتها المصادر العربيّة وتكلّمت عنها، كالتّاريخ السّياسي للسّعديّين، سواء ما تعلق بحروبهم مع أعدائهم ، أو في صراعاتهم الدّاخليّة، وهناك نقاط لم تستوف حقها من التدوين والتأريخ ، كموضوع علاقات السعديين الخارجية، وقد اقتصر في ذلك على بعض الإشارات القليلة المترامية هنا وهناك في ثنايا المصادر العربية. واعتمدت في دراستي على مجموعة من المصادر سواء التي عاصرت الدولة السعدية و ذكرت محاسنها، و انجازاتها وغضّت الطرف عن مساوئها ، أو تلك التي وقفت موقف الناقد المتبصر لحوادث السعديين ، فبينت ما لهم وما عليهم،كما استفدت من بعض المراجع الأجنبيّة التي تناولت تاريخ البرتغال و الإسبان والفرنسيين ، وأرخت لمجريات معركة وادي المخازن من منظورها الخاصّ .

- المصادر والمراجع العربية والمعربة :

أ- المصادر المعربة :

- **وصف إفريقيا** :للحسن بن محمد الوزّان الزّيّاتي ، من مواليد غرناطة، في تاريخ غير معروف بدقّة ، يتراوح مابين عامي 894هـ/ 1489م و900 هـ /1495م ، يعتبر كتاب وصف إفريقيا الذي عربه عبد الرحمن حميدة من المصادر التاريخية و الجغرافية القيمة للقرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، يسلّط الضّوء على حلقات مهمة من تاريخ إفريقيا ،والمنطقة المغاربيّة الّتي كانت تعيش أيام التفكك والانهيار السياسيّ والاقتصادي ، وقد أمدني بصورة واضحة عن أوضاع المغرب الأقصى، لا سيما مع مطلع القرن العاشر الهجريّ / السادس عشر الميلادي ، فلا يمكن لدارس تاريخ منطقة المغرب الإسلامي في هذه الفترة إلا أن يعرج عليه فهو عمدة في ذلك .

- **إفريقيا:** للويس كربخال مارمول،نقله إلى العربية محمد حجي وآخرون ،كان مارمول أسيرا إسبانيا في خدمة السعديين ،أورد معلومات قيمة في الميدان السياسي ، لأنه شاهد عيان ومعاصر للأحداث التي جرت خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، اعتمد كثيرا على الحسن الوزان ولكن لا يذكره،يضيف المزيد من المعلومات الاجتماعية والاقتصادية ، استفدت منه كثيرا في علاقات المغرب بالبرتغال مع بداية القرن السادس عشر الميلادي.

- **تاريخ الشرفاء** : لدييقو دي طوريس، عربه محمد حجي ومحمد الأخضر ، وهو مؤرخ إسباني ولد حوالي 1526م، مكث دييقو دي طوريس في المغرب ما يناهز الثلاثين سنة، وصف تحركات الشّرفاء السعديين ،ونشاطهم السياسي والعسكري، وانتهى في تأريخه عند وفاة عبد الله الغالب سنة982هـ/1574م ، ولم يذكر تفاصيل عبور المتوكل إلى البرتغال، ولم يتحدث عن معركة وادي المخازن إلا بإشارة خفيفة ،وقد أخذت منه معلومات فيما يخص بدايات الاحتلال البرتغالي للمغرب .

ب- **المصادر العربية** :

- **مناهل الصّفا في مآثر موالينا الشّرفاء** :لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي ، عاصر أحمد المنصور، ووضع كتابه هذا وفقا لتعليماته، و يعتبر المؤرّخ الرّسمي للدّولة السّعديّة ، تعرّض لموقعة وادي المخازن في مؤلفه، ووصف الانتصار الكبير للمنصور، وبيّن كيف علت همّته بين الأمم؟ لكنه لم يتعرض لمواطن الضعف في سياسة أحمد المنصور لأنه محسوب على البلاط السعدي .

- **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد** : لأحمد بن القاضي بن أبي العافية المكناسي المتوفي سنة 1025هـ/1616م ، كان مقربا من أحمد المنصور،حقق الكتاب محمد حجي مع مجموعة أخرى من كتب ومصادر تاريخ المغرب في (موسوعة أعلام المغرب) في عشرة أجزاء ،ويعتبر الكتاب مصدرا هاما في تاريخ المغرب الأقصى ،ترجم صاحبه لعدة شخصيات،منها من عاصر أحمد المنصور الذهبي.

- **درّة الحجال في أسماء الرجال**:لابن القاضي(سبق التعريف به) وهو مصدر في التراجم للشخصيات الدينية والعسكرية في المغرب، سواء التي عاصرت المنصور، أو التي لم تعاصره ،وأورد معلومات هامة عن حياة أحمد المنصور السعدي، وذكر غزوه للسودان الذي سماه فتحا ، حقق الكتاب محمد الأحمدي أبو النور في جزئين وأصدرته دار التراث بالقاهرة سنة 1970.

- **تاريخ الدولة السعدية التاكمدراتية** :لمؤلف مجهول والذي قد يكون مكناسي الأصل ، أو ممّن سكنوا مكناس مدّة طويلة، ويرجّح أنّه من بقايا الوطاسيين ، نشره جورج كولان سنة 1934م كما قدمه وحققه عبد الرحيم بنحادة سنة 1994م ،وعلى هذا فالكتاب يزوّدنا بتفاصيل تاريخيّة ، كثيرا ما أهملها غيره ، ومعلومات عن مجريات المعركة ، وعن أعمال المنصور بموضوعيّة وحيّاد .

– **البحر الزخار والعلم الطيار**:لمصطفى بن حسن الهاشمي الجنابي، مؤرخ وشاعر، أصله من جنابة بفارس ،ولد وأشتهر في بلاد الروم، وولي التدريس في مدرسة بروسة السلطانية، وعين قاضيا في حلب ،توفي بآمد بعد انفصاله عن قضاء حلب سنة 993هـــ/1585م ،وهو بذلك عاصر معركة وادي المخازن، قام بترجمته إلى اللغة الفرنسية فانيان (Fagnan) وطبع في الجزائر سنة 1924م تحت عنوان Extraits inédits relatifs au Maghreb استفدت منه في الأحداث التي شهدتها الدولة السعدية، وبعض التفاصيل عن المعركة .

- **مرآة المحاسن من أخبار الشّيخ أبي المحاسن** :لأبي حامد محمّد العربي بن يوسف الفاسي، المتوفى سنة 1052هـــ/ 1642م ، وضع المؤلف هذه التّرجمة عن والده يوسف الفاسي الملقب بأبي المحاسن ،وهو من رجالات التصوف ، فذكر في كتابه دور والده في معركة وادي المخازن حيث أبلى فيها البلاء الحسن .

– **تاريخ السودان** : لعبد الرحمن عبد الله بن عمران السعدي، المتوفى عام 1066هـــ/1656م نشره المستشرق هوداس ،ومؤلف الكتاب لا ينتمي إلى الأسرة السعدية، بل هو سوداني وإن حمل لقب السعدي، ويعرض فيه تاريخ السودان الغربي. أخذت منه معلومات مفيدة عندما تطرقت لغزو المنصور للسودان .

- **تراجم الأعيان من أبناء الزمان** :للحسن بن محمد البوريني،حققه صلاح الدين المنجد ،و البوريني من مواليد سنة 963هـــ/1556م بقرية بورين بفلسطين، توفي سنة 1019هـــ/1610م ، ترجم لأعيان عصره ومنهم أحمد المنصور الذي أثنى عليه في تعامله مع العلماء.

ج- **المراجع العربية** :

– **نزهةِ الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي** :لعبد الله محمد بن أحمد الأفراني الملقب بالصغير مؤرخ مغربي، ومن مصنفي التراجم، ولد بمدينة مراكش نحو 1669م وتوفي نحو1744م، أشتهر أنه أرخ للدولة السعدية في المغرب، والكتاب من أهم المراجع وأوفاها عن تاريخ الشرفاء السعديين وأكثرها موضوعية ، و أورد معلومات جيّدة عن معركة وادي المَخازن، وقد صححه هوداس

وترجمه إلى الفرنسية ونشره سنة 1889م تحت عنوان نزهة الحادي تاريخ السعديين في المغرب من سنة 1511مإلى 1670م.

- **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني** :لأبي محمد عبد السلام بن الطيب القادري ، ولد يوم الجمعة 12رمضان عام 1058م الموافق ل29سبتمبر1648م وتوفي سنة1187هــ/1773م، ترجم له عبد السلام بن سودة في كتابه إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع ،تحقيق محمد حجي ،ج1، ص 35 .له العشرات من المؤلفات ،قام بتحقيق كتابه نشر المثاني أحمد توفيق ومحمد حجي، ونشره مع كتب أخرى في موسوعة أعلام المغرب،يسير الكتاب على نظام السنوات ابتداء من القرن 11هــ/17م، زيادة عن التراجم ،يزوّدنا ببعض المعلومات عن تاريخ المغرب.

-**الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب** : لأبي القاسم الزياني ،أمازيغي الأصل ولد بفاس سنة 1147هــ وتوفي سنة1249هــ/1734م-1833م ،كان وزيرا ومؤرخا للدولة العلوية، له العديد من المؤلفات منها:كتابه الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، ترجمه للفرنسية، mougin et Humberger ونشره Roger le Tourneau في مجلة الغرب الإسلامي والمتوسط ، آن بروفانس، عدد 23 ، 1977 .

– **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** : للناصري وهو قبل كل شيء تجميع لمختلف روايات أحداث المغرب، يحتوي على تسعة أجزاء ؛حيث اعتنى بتاريخ المغرب من أول الفتح إلى العصر العلوي المتأخر،وقد اعتمدت في هذه الدراسة على الجزئين؛ اللذين خصصهما للدولة السعدية وهما الجزء الخامس والجزء السادس .

- **التاريخ الدبلوماسي للمغرب** :لعبد الهادي التازي في عشر مجلدات ، و قد اقتصرت على المجلدين، السابع الذي خصصه للوطاسيين والمجلد الثامن المخصص لعلاقات السعديين الذي تناول فيه سياستهم الخارجية، سواء مع جيرانهم الأتراك، أو مع الدول الأوروبية و منها فرنسا والبرتغال واسبانيا ، وهو في حقيقته عمل موسوعي كبير ، أفادني كثيرا بإعطاء لمحة عن علاقات السعديين مع أوروبا مع بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي إضافة إلى قيمة الوثائق المنشورة فيه .

– **العرب والبرتغال في التاريخ** : لصاحبه فالح حنظل الذي تناول بالدراسة المستفيضة صراع العرب مع البرتغال في منطقة المغرب الإسلامي، وفي الخليج العربي ،وقد نشر وثائق جدّ قيمة عن سكان المغرب في علاقاتهم مع البرتغال المحتل لبلدهم .

– **معركة الملوك الثلاثة** :ليونس نكروف حيث تناول معركة وادي المخازن بالدراسة المستفيضة،و أعطاني صورة متكاملة عن مجريات هذه المعركة..

– **السياسة والمجتمع في العصر السعدي** : لإبراهيم حركات يقدم نموذجا عن المجتمع المغربي في القرن السادس عشر، والسابع عشر، و يتناول الحياة السّياسية و الاجتماعية ، و يعطي نبذة ، ويورد إحصائيات وتفاصيل عن هذه المعركة .

المراجع الأجنبية:

- Henry de Castries: (**sources inédites de l histoire du Maroc**)

لهنري دو كاستري و رفاقه الّذي نشر الكثير من الوثائق المحفوظة في أرشيفات الدّول الأوروبية ، كفرنسا و إسبانيا وهولندا و إنكلترا و البرتغال ، ضمن سبعة وعشرين مجلدا خاص بالدولة السّعدية،استفدت منه كثيرا في علاقات المغرب الخارجية بعد معركة وادي المخازن خاصة الجزء الثاني المخصص لفرنسا ، والجزء الثاني المخصص لإنجلترا، والجزء السادس الخاص بالبرتغال.

- Miguel dentas : **Les faux don sebastien.**

صاحب كتاب مزيفو الضون "سيبستيان "؛ ا لذي تناول فيه حياة الملك البرتغالي بالتفصيل، و قدّم دراسة وافية عن الظاهرة السيبستيانية، وتكلم عن الرجال المزيفين؛ الذين ادعوا أنهم الضون سيبستيان بعد مقتله، وتمّ نشر هذا الكتاب سنة 1866م، وقد استعملته في تأثير معركة وادي المخازن على البرتغاليين .

-Charles Louis : **les jésuites dans les Etats barbaresques Alger et Maroc.**

وهو كتاب يتناول اليسوعيين (رجال الدين المسيحي) في الدول البربرية، الجزائر والمغرب واستفدت منه عندما تطرقت إلى مدى تأثير الأساقفة على حياة الملك البرتغالي سيبستيان، كما تناول الكتاب مجريات معركة وادي المخازن ؛حيث خصص لها المؤلف فصلا كاملا، مستعملا لفظ الكارثة كثيرا.

-Ernest charrière : **Négociations de la France dans le levant.**

صاحب كتاب"مفاوضات فرنسا مع الشرق"فرنسي الجنسية،ولد سنة 1805م وتوفي سنة1865م.كاتب ومترجم ، كتابه عبارة عن أربع مجلدات ضخمة هامة في تاريخ العلاقات الدولية ، والعلاقات العثمانية الفرنسية من خلال الأرشيف القنصلي، والدبلوماسي الفرنسي، به رسائل وتقارير من القناصل الفرنسيين، وقراءات وتحليلات للكاتب ، مأخوذة لسفراء ودبلوماسيين وملوك فرنسيين ، في الفترة مابين(1515م– 1589م) وقد أفادني كثيرا في

الوثائق،خاصة عند تناول تداعيات الأزمة البرتغالية، كما استفدت من مراجع عديدة ومقالات ودراسات كثيرة سأضعها وفق ترتيبها في قائمة المصادر والمراجع في آخر هذه الدراسة .

- الصّعوبات المعترضة :

أول الصّعوبات الّتي واجهتني خلال إنجـــاز هذه الدراسة، عدم تمكني من الحصـــول على بعض المصادر الهامّة ،التي ذكرها المؤرخ المغربي "عبد السلام بن عبد القادر بن سوده المري" في مؤلفه "دليل مؤرخ المغرب الأقصى" رغم الجهد الذي بذلته ،ومن بينها كتاب "الزمردة الوردية في ملوك الدولة السعدية" لأبي عبد الله محمد بن أحمد المعسكري ، و"اللسان المعرب عن تهافت الإسبان وفرنسا عن المغرب" لعبد الله محمد ابن محمد بن الأعرج السلماني و"الممدود والمقصور في سنا السلطان أبي العباس المنصور" لعبد الله بن عيسى الصنهاجي وكتاب "تقييد في بعض حوادث الدولة السعدية " لأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن .

كما تعذرت عليّ الاستفادة من بعض المصادر لكونها مكتوبة باللّغة الإسبانيّة،أوالبرتغاليّة ، فاقتصرت على قراءة ترجمتها باللّغة الفرنسيّة .

و من الصعوبات الأخرى عامل ضيق الوقت الذي زاحمني ،مع كثرة الأعمال و الواجبات اليومية .

ولا يسعني في الأخير إلاّ أن أتقدّم بالشّكر الجزيل إلى كلّ من ساعدني، و وقف بجانبي لإنجاز هذا العمل وأخصّ منهم بالذّكر أستاذي المشرف الأستاذ **الدّكتور عمّار بن خروف**، الّذي لم يأل جهدا في إرشادي ونصحي،كما أشكر المشرف المساعد **الدكتور أبو سليم صالح** على ما أحاطني به من رعاية و اهتمام ،وما كان له من فضل على هذه الدراسة و صاحبها . فجزاهما الله عني كل خير .

و أخيرا فإن أصبت في شيء من هذه الدراسة فبتوفيق من المولى عز و جل و عونه ، و إن كان غير ذلك ، فحسبي أنني اجتهدت وحاولت ، آملا أن أستفيد من توجيهات أساتذتنا الفضلاء الذين وكل إليهم عملي للتقويم و المناقشة و التّصحيح .و الله الموفق ، و هو ولي كل خير .

غرداية في : 27 شوال 1431هـــ .

الموافق لـــ : 06 أكتوبر 2010م.

الطالـــب : جـــلول بن قومـــار .

الفصل الأول

الأوضاع في المغرب الأقصى وشبه الجزيرة الأيبيرية وفرنسا وعلاقات المغرب الأقصى مع تلك الدول قبل معركة وادي المخازن.

المبحث الأول:

– الأوضاع في المغرب وشبه الجزيرة الأيبيرية وفرنسا قبل معركة وادي المخازن.

1 -الأوضاع في المغرب الأقصى وجيرانه (الجزائر).

2 -الأوضاع في إسبانيا.

3 -الأوضاع في البرتغال.

4 -الأوضاع في فرنسا.

المبحث الثاني:

– علاقات المغرب الأقصى مع البرتغال وإسبانيا وفرنسا خلال العقود السابقة لمعركة وادي المخازن.

1 -علاقات المغرب مع البرتغال .

2 -علاقات المغرب مع إسبانيا.

3 -علاقات المغرب مع فرنسا.

4 -علاقات المغر ب مع (أتراك الجزائر ، إنجلترا).

تمتع المغرب الإسلامي في عهد الدولة الموحدية بالوحدة السياسية ، واستطاع الموحدون أن يتصدوا بحزم للغزاة ؛ فلم تجرؤ أي قوّة أروبية على النيل من ممتلكاهم ، وبحلول القرن الثالث عشر الميلادي دبّ الضعف في أوصالهم وانهارت شيئا فشيئا، وانقسمت كياناتها إلى ثلاث إمارات متطاحنة فيما بينها ، كما أن التنافس على السلطة والاقتتال بين أبناء الأسرة الواحدة أدّى إلى إنهاك تلك الإمارات اقتصاديا وعسكريا ؛ فتحوّل المغرب الإسلامي إلى فسيفساء سياسية متباينة في أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ؛ ففي الجزء الشرقي نجد طرابلس التي انفصلت عن سلطة الحفصيين ما لبثت أن وقعت تحت الاحتلال الأسباني عام916هـ/ 1510م. أما سلطنة الحفصيين بتونس فكانت تعيش تمزقا سياسيا وانهيارا اقتصاديا، حيث أن جميع المدن التي خرجت عن سيطرتهم أخذت في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي تتهاوى تحت ضربات النصارى، ثم التجزئة تحت حكم زعامات قبلية ودينية ،حتى صار السلطان الحفصي سجين قصره . وفي المغرب الأوسط لم تكن مملكة الزيانيين أحسن حالا من جارتها الحفصية؛ فقد أدّت الخلافات على العرش الزياني إلى تلاشي نفوذ ملوك بني عبد الواد ؛ حتى انحصرت سلطتهم في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي في تلمسان وغربي البلاد الجزائرية وانقسمت على نفسها إلى إمارات صغيرة متنازعة فيما بينها كإمارة "الذواودة "بالحضنة والزاب ، وإمارة "كوكو" ببلاد القبائل، وإمارة "بني جلاب "في تقرت ووادي ريغ ، وإمارة "الثعالبة" بجزائر بني مزغنة وفي العقدين الأولين من القرن 16م تمكن الإسبان من احتلال صخرة البنيون وفي عام910هـ/ 1505م احتل الأسبان المرسى الكبير، وبعدها بأربع سنوات سقطت مدينة وهران، مما يوحي أن مملكة بني عبد الواد كانت تعيش أيامها الأخيرة .

أما المغرب الأقصى فلم تكن أوضاعه تختلف عن المناطق السابقة ؛ حيث كانت سلطة بني مرين بفاس تشهد صراعات عائلية مستمرة بسبب التنافس على العرش حتى هلك السلطان المريني "أبو سعيد عثمان" بسبب تمرد في بلاطه ، فتفاقمت الحرب الأهلية بمقتله، واغتنمت القبائل الفرصة لتحسين موقعها السياسي، وانتشر النهب وضاع الأمن؛ فعمّت الفوضى المغرب الأقصى خلال القرن 9هـ/ 15م ، وإلى غاية القرن الذي يليه ، وبات عرضة للأطماع الأجنبية ،خصوصا بعدما قامت الكنيسة الكاثوليكية بتقسيم مناطق النفوذ في المغرب الإسلامي، بين إسبانيا والبرتغال وفق معاهدة توردبسلاس سنة 900هـ/1494م . فكيف كانت الأوضاع في المغرب الأقصى؟ وما هي أوضاع شبه الجزيرة الإيبيرية وفرنسا؟

المبحث الأوّل :

الأوضاع في المغرب الأقصى وشبه الجزيرة الأيبيرية وفرنسا قبل معركة وادي المخازن:

1- الأوضاع في المغرب الأقصى:

عرف المغرب الأقصى خلال القرن 9هـ/ 15م ، وإلى ما قبل معركة وادي المخازن 968هـ/1578م ، أزمة كبيرة من أبرز ملامحها :

*- التفكك والتجزئة.

*- الغزو الخارجي.

*- نشاط القوى الدينية.

*- التهديد العثماني.

*- نهاية الوطاسيين وقيام السعديين.

*- جهود السعديين في توحيد المغرب.

أولا- التفكك والتجزئة :

لما آل الحكم في المغرب للوطاسيين(1)في الربع الأخير من القرن 9هـ /15م ،كانت إمكانياتهم ضعيفة،وسلطتهم في فاس محدودة ،فعجزوا عن صيانة الأمن والدفاع عن البلاد فانتشرت الفوضى والفتن ،مما أدى إلى تجزئة المغرب إلى وحدات سياسية شبه مستقلة ،ظهر بعضها نتيجة ظروف الجهاد ومقاتلة العدو عند السواحل المحتلة،كما حصل بالنسبة لشفشاون ،والقصر الكبير، وتطوان. والبعض الآخر برز نظرا لبعدها عن مركز السلطة الحاكمة في فاس ، إضافة إلى أن معظم القبائل التي كانت بالسواحل الأطلسية، قد وجدت نفسها مضطرة إلى مهادنة المحتلين وإعلان بعضها الدخول تحت حماية البرتغاليين(2).

ومن بين هذه الكيانات السياسية ، والإمارات الشبه المستقلة نذكر :

---

(1) فرع صغير من بني مرين ينتمون إلى قبيلة زناتة الأمازيغية ، شغلوا مناصب عليا في دولة المرينيين ، واستطاع محمد الشيخ الوطاسي في سنة 1471م تأسيس الدولة الوطاسية. للمزيد من التفاصيل أنظر أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ، 9ج ، تحقيق جعفر الناصري و محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1955، ج4 ، ص96-97.

(2) عبد الكريم كريّم : **المغرب في عهد الدولة السعديّة** ،جامعة محمد الخامس ، الرباط ، المغرب1978، ص16 .

- إمارة بني راشد في شفشاون:

كانت شفشاون قاعدة قوية للجهاد ضد البرتغاليين ، فأتخذها علي بن راشد[1] الذي ثار على الوطاسيين وأنتقد مهادنتهم للبرتغال مركزا لإمارته ، ورغم إخضاع ثورته إلا أن شفشاون ظلت تحتل مكانة مرموقة في حركة الجهاد، باعتبارها من الثغور القريبة من مراكز الاحتلال ، وعندما توفي علي بن راشد تابع ابنه إبراهيم عمليات الجهاد ضد المحتل البرتغالي [2].

- عائلة العروسي في القصر الكبير:

كانت مدينة القصر الكبير سوقا تجلب إليها البضائع من مختلف الجهات،وظلت هذه المدينة خاضعة للسلطة عائلة العروسي ؛التي من أشهر أبنائها القائد أحمد المعروف بجهاده ضد الغزاة البرتغاليين [3].

- إمارة بني المنظري في تطوان:

تولى أمر هذه المدينة عائلة أندلسية هي أسرة المنظري[4]؛ التي توارث أبناؤها الحكم في تطوان وعرفوا بجهادهم ضد المحتل.

وإذا كانت ظروف الجهاد والمناداة بقتال المحتلين، قد ساعدت على ظهور هذه الوحدات السياسية في شمال المغرب ، فإن ضعف الحكم الوطاسي في فاس، قد دفع بعض الولاة في المناطق البعيدة إلى محاولة الاستقلال عن العاصمة ،مثلما حصل في مدينتي مراكش و دبدو[5].

ففي جنوب المغرب الشرقي تأسست :

-إمارة دبدو :

---

(1) من الشخصيات المغربية التي صارعت الاحتلال البرتغالي في الشمال ، وهو الذي بنى مدينة شفشاون وأتخذها قاعدة لجهاده ، وتم أسره من طرف البرتغاليين في طنجة سنة 1457، وأطلق سراحه في عملية تبادل للأسرى. أنظر عبد الكريم كريّم: ص 16 .

(2) مارمول لويس كاربخال : **إفريقيا،** 3ج، تعريب محمد حجّي و آخرون ، دار النشر للمعرفة، الرّباط 1989/1988، ج2 ، ص149.

(3) عبد الكريم كريّم : المرجع السابق ، ص 16 .

(4)أبو الحسن علي المنظري الغرناطي ، أحد قواد بني الأحمر في الأندلس ، هو الذي أشرف على بناء تطوان وأسس فيها إمارة، وبقي قائما بأعباء الجهاد حتى وفاته ، أنظر عنه محمد داود : **مختصر تاريخ تطوان** ، ط2، مطبعة المهدية ، تطوان ، المغرب 1955، ص 15.

(5) مدينة كبيرة جنوب مليلة ، كانت حصنا لبني مرين ، منحها السلطان المريني لبعض أقاربه للمزيد من الإطلاع أنظر مارمول : المصدر السابق ، ج2 ، ص 270.

فظهرت كإمارة شبه مستقلة منذ العقد الأول لقيام الوطاسيين وسقوط المرينيين، حيث لجأ أمراء بني مرين إلى هذه المدينة بعد زوال ملكهم، ومنهم الأمير "محمد بن أحمد المريني" الذي ثار بدبدو ونادى بنفسه أميرا على المدينة ،فظلت الإمارة بيدهم حتى أن أمراءها كانوا يلقبون بالملوك وعاشت جنبا إلى جنب مع الوطاسيين، إلى أن كانت نهايتهما معا على يد السّعديين[1].

- إمارة بني هنتاتة بمراكش:

تمركز بنو هنتاتة في الجنوب، حيث استولى أمراء قبيلة هنتاتة المصمودية على حكم هذه المناطق ،واتخذوا مراكش عاصمة لهم ،وقد أخذ نفوذهم يزداد منذ منتصف القرن 9هـــ /15م حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسي[2].

- وفي وسط المغرب وغربي الوسط كانت إمارات ابن حدو، وأخيه أبي فارس في الجبل الأخضر وإمارة ابن عامر في تنسيتة ،و إمارة آل فرحون في آسفي ، وجمهوريات مدن تافزة والجمعة وآزمور، ونفوذ رؤساء القبائل في سهول دكالة وتادلة[3].

وهكذا يتأكد أن الوطاسيين كانت سلطتهم ضعيفة ومشتتة ، فالمناطق الصحراوية لم تكن لهم عليها سلطة ،أما الجهات القريبة منها فنفوذهم فيها ضعيف جدا ، وتعتبر هذه المناطق من المناطق الأولى المبادرة إلى تأييد السعديين ،وكذلك فإن المناطق الجبلية قد وقفت موقف المتربص من الأحداث ،في انتظار دولة قوية ذات نظام محكم .فكان للعمل القبلي أثر كبير في هذه الظروف ، حيث لا يحظى الوطاسيون بسند ديني ولا مذهبي[4].

وعليه يمكن القول : أن المغرب خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي كان يعيش ظروف سياسية صعبة، نتج عنها أحوال اجتماعية مزرية، أدت إلى انقسامه إلى وحدات سياسية متصارعة ولا سيما المتجاورة منها ،ونذكر منها على سبيل المثال صراع أمير جبل هنتاتة مع أمير مراكش ؛حيث تبرز هذه الظروف المتردية للمغرب ، مدى الضعف والتفكك والتمزق الذي وصلت إليه الدولة الوطاسية المتهاوية .

---

(1) عبد الكريم كريّم : المرجع السابق ، ص17.

(2) الحسن بن محمد الوزان : **وصف إفريقيا** ،2ج ، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2 ، دار الغـــرب الإســـلامي، بيروت ، د ،ت ، ج1، ص154 .

(3) عمّار بن خروف : **العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي** ، ط1، دار الأمل للنشر والتوزيع ، الجزائر 1978، ج1 ، ص46 .

(4) إبراهيم حركات : **السياسة والمجتمع في العصر السعدي** ،دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء، المغرب 1985، ص 27.

ثانيا- الغزو الخارجي:

وبينما كان المغرب يتفكك ويتجزأ، كان البرتغاليون والإسبان في شبه الجزيرة الإيبيرية يستكملون وحدتهم ، وما إن حلّ القرن 9هــ/15م حتى وجد الإيبيريون أنفسهم يتطلعون إلى توسيع نفوذهم ليشمل على الأقل الأطراف الساحلية من المغرب المتوسطية منها والأطلسية، شجعهم على ذلك ضعف حكم إمارة الوطاسيين[1] ،وأغراهم موقعه الجغرافي المتاخم إلى أوروبا الناهضة، وشبه جزيرة إيبيريا[2]، ولما كان يمتلك سواحل طويلة على المحيط الأطلسي، أخذت القوة الأيبيرية تتطلع لإخضاعه، والسيطرة عليه ،خصوصا وأن أوضاعه الداخلية كانت سيئة للغاية؛ بسبب ضعف السلطة المركزية في فاس، وظهور الوحدات السياسية المتنازعة هنا وهناك،وما أعقب ذلك من انتشار للفوضى والاضطرابات[3]. وترجع أولى عمليات الاحتلال البرتغالي والإسباني للسواحل المغربية إلى مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ، عندما أقدم البرتغاليون على احتلال سبتة فدخلوها يوم الأربعاء منتصف جمادى الآخر818هـــ /02أوت 1415م إيذانا ببداية الاحتلال الأيبيري للسواحل المغربية[4]، وقبلهم دمر الإسبان مدينة تطوان في سنة 803هــ/1400م قبل الإبحار منها .

وقد حصل بين هاتين الدولتين (البرتغال- إسبانيا)نزاع حول السيطرة على جزر كناريا[5] التي اعتبرها كل من الطرفين نقطة انطلاق وتوسع غربي إفريقيا،ولأهمية هذه الجزر، وخوفا من أن يصطدم الطرفان ،كان البابا يتدخل لتحديد مجال نفوذ كل طرف وفق معاهدة "توردیسلاس" سنة 899هــ/1494م[6].

---

(1) نستعمل لفظ الإمارة لأنّ النظام الوطاسي لا يستحق أن يوضع في مرتبة الدولة، بالنظر للرقعة الجغرافية الصغيرة التي كانت تمثل إطار نفوذه.

)2(شبه جزيرة إيبيريا: نسبة إلى جدهم الإبر مجهول الأصل، تسمى الأندلس ،كانت حاضرة المسلمين ثمانية قرون ، سميت بإسبانيا للمزيد من الإطلاع أنظر: محمد بن يوسف الزياني: **دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران** ،تحقيق الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر، د ، ت، ص137 ، 138.

(3) عبد الكريم كريّم : المرجع السابق ، ص5 .

(4) محمد بن القاسم الأنصاري: **اختصار الأخبار عمّا كان بسبته من سني الأخبار**، تحقيق عبد الوهاب منصور، ط2 ، الرباط 1983 ،ص27.

(5) جزر كناريا أو الجزائر الخالدات تابعة للتاج الإسباني على المحيط الأطلسي، تطالب بها المغرب اليوم ،وهي عبارة عن أربع جزر كبرى تبلغ مساحتها 7277كلم مربع ، للإطلاع أكثر أنظر مارمول : المصدر السابق ، ص 237.

(6) عبد الكريم كريّم : المرجع السابق، ص 10.

ولما كانت السفن البرتغالية والإسبانية أثناء سيرها محاذية للسواحل المغربية في اتجاه جزر كناريا وغربي إفريقيا ،تضطر للتوقف ببعض المراكز المغربية للتزود منها، أو التجارة معها ، سمح للبرتغاليين بالإطلاع على الأوضاع الداخلية المزرية للمغرب، فوجدوا الفرصة سانحة لاحتلال مركز هام في شمال المغرب وهو مدينة سبته.

ومن تلك الفترة ظلّ المغرب يكابد الشّدائد من جرّاء هذه السّياسة، فاستولى البرتغاليون على القصر الصّغير سنة 862هـ/ 1458م ، وعلى أصيلة و طنجة سنة 876هـ/1471م ، وأقدم الإسبان على احتلال مليلة في سبتمبر سنة 1497م بعدما فرّ أهلها منها خوفا من الإسبان. وواصل البرتغاليون زحفهم على السواحل المغربية ،فاحتلوا ساحل ماسة سنة 1497م [1] ليضعوا منافسيهم أمام الأمر الواقع ، غير أن الإسبان أجابوا على ذلك بالسيطرة على مواقع ساحلية قريبة من سانتاكروز مثل طاكوست، وتامانار،وأفران وأفني وذلك سنة 1499م ، وليعزز الإسبان نقاط احتلالهم هذه، قاموا ببناء عدة حصون خلال السنوات الأولى من مطلع القرن السادس عشر[2].

كما أحتل البرتغاليون أكادير سنة 911هـ/ 1505م، وأقاموا فيها حصنا منيعا سمي بحصن سانتا كروز، وبعد سنة من ذلك دخل البرتغاليون مدينة الصويرة سنة 912هـ / 1506م ، ثم مدينة آسفي سنة 914هـ/ 1508م، و آزمور سنة 919هـ / 1513م، والجديدة 920هـ/ سنة 1514م [3]. و لم تقتصر المنافسة الإسبانية البرتغالية على سواحل بلاد المغرب الجنوبية ، وإنما شملت بقية سواحل المحيط الأطلسي وسواحل البحر الأبيض المتوسط أيضا ، إذ احتل الإسبان مدينة غصاصة[4] وحجر بادس في سنة 1506م ، وفي سنة 1509 م توصل الطرفان المتنافسان من أجل التوسع في المدن الساحلية المغربية على توقيع معاهدة سنترا (Sintra)[5] .

---

(1) عبد الكريم كريّم : المرجع السابق، ص 11.

(2) نفسه ، ص11.

(3) محمد الفاسي : **احتلال البرتغاليين للثغور المغربية الذي أدّى إلى موقعة وادي المخازن** ، في مجلة دعوة الحق ، وزارة عموم الأوقاف ، الرباط ، المغرب1978 ، عدد 8 ، ص21- 22.

(4) غساسة مدينة مغربية ، احتلها الأسبان عام 911هـ / 1506م ، تقع إلى الجنوب ، و تبعد عن مدينة مليلة حوالي 25 كلم أنظر: Renan Ernest : **Document inédites sur L' histoire de L Occupation Espagnole en Afrique** , publier par le Marchal de macmahon ,Alger 1875 , p 10.

(5) مدينة برتغالية جبلية تقع في الشمال ، بها قصور ملوك البرتغال ، عقدت فيها معاهدة سنترا(Sintra) بين البرتغال وإسبانيا في سنة 1509م ،و التي حددت مجال عمل كل طرف ، فكان مجال الإسبان يبتدئ من حجر بادس ويمتد شرقا ، أما مجال عمل البرتغال فيمتد غرب بادس للمزيد من الإطلاع أنظر عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 47.

- أسباب الغزو الإيبيري للمغرب:

كان لعوامل النهضة الأوروبية أثر كبير في التطورات التي عرفتها بلدان غربي أوروبا وخاصة شبه الجزيرة الإيبيرية ، فقد أخذت تظهر لدى إسبانيا والبرتغال رغبة في التوسع والسيطرة على البلدان الأخرى ، ويمكن أن نرجع أسباب هذا التوسع للعوامل التالية:

أ- العامل الديني :

لعب العامل الديني في الغزو الأيبيري للمغرب دورا حاسما، استغلته الكنيسة الكاثوليكية لتذكي حماسة الدين في النفوس، مذكرة الشعوب الأوروبية بماضي الحروب الصليبية.فقد أرسل "يوحنا الأول" خطابا إلى البابا (نيقولا الخامس) (1447/ 1455م) جاء فيه[1] :

« ...إن سروري عظيم أن نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال قد سار على خطى أبيه الملك جون، بوصفه جنديا قادرا من جنود المسيح، ليقضي على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة » وشهادة المؤرخ البرتغالي جواد دوباروس من القرن الثامن عشر بقوله: « لقد خص الله البرتغال بنعمة أن كتب لهم غزو الكفار، و خاصة العرب منهم الذين غادروا بلادهم في الشرق ، ووفدوا إلى بلادنا في الغرب... » [2] .

ب- العامل الاقتصادي:

سعت البرتغال مع البدايات الأولى للقرن السادس عشر - وبقوة - للحصول على العبيد، وبذلك اعتبرت رائدة في هذا النوع من التجارة في العصر الحديث[3] ، فكانت الشعوب المغربية والإفريقية هدفا لصيادي البشر، الذين أطلق عليهم لفظ "الجلابة"، فكانوا يشحنون بضاعتهم إلى أمريكا وكوبا. ففي عام926هـ/1520م بلغ عدد الذين بيعوا عشرة آلاف عبد ؛ منهم عدد كبير من المغاربة، وخلال مجاعة 927هـ/ 1520م ، أرغم الكثير من المغاربة على بيع أبنائهم، قبل بيع أنفسهم، وأصبح العبد المغربي- في نظرهم- لا يساوي شيئا، نظرا للتهمة الموجهة إليه، أنه يعود إلى الإسلام بعد تعميده، وبذلك زهد فيهم النخاسون .

---

(1) عبد العزيز نوار و محمد جمال الدين : **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى** ، دار الفكر، دمشق 1999، ج1 ، ص59.

(2) علي بن إبراهيم الدورة : **تاريخ احتلال البرتغال للقطيف**، المجمع الثقافي ،أبوظبي 2001 ، ص 122.

(3) شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرزاق : **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر** ، ط2 ، دار الزهراء ، الرياض 2002، ص51.

أمام هذه الوضعية المزرية، استنكر الشيخ "ابن بجبش التازي"[1] هذا الفعل من النصارى ، وصاح في الناس بالجهاد لتخليص المسلمين من العبودية[2] قائلا :«...قد أوثقوا بالسلاسل والحديد وهم في كل يوم عذاب شديد ، وصاروا من جملة المماليك والعبيد... » ودفع اليأس بآخرين إلى قتل أبنائهم ، مفضلين ذلك على فقدانهم كعبيد «...فقد أقدمت مغربيَة على ضرب ابنتها بحجر على بطنها، لكي تميتها لأنها كانت تنوي الفرار و لم تكن تودّ أن تبقي ابنتها أسيرة ...»[3] .

كانت العبارات التي تكتب على زجاجات الأدوية في الممالك الأوربية خلال البواكير الأولى لعصر النهضة مثل" وارد من بلاد الهند ، أو وارد من بلاد العرب "تلهب حماس الكثيرين، خصوصا من المغامرين والباحثين عن الثراء ، وتدفعهم للتساؤل والبحث واستكشَاف مواطن تلك الثروة من المواد الطبيعية كالتوابل ، والعطور القادمة من الشرق والمارة عبر المغرب، ونقلا عن كتاب "آسيا والغرب" لصاحبه (panikar) ، ذكر محمد حميد السلمان عن الأهمية الاقتصادية لأهم عنصر من التوابل وهو " الفلفل " ما نصه :«... لعله ليس للفلفل الآن أهمية كبيرة في التجارة بيد أنّه كان في ذلك العصر يقف على قدم المساواة معَ الأحجار الكريمة ، فإنّ الناس يجابهون مخاطر البحار يقاتلون ويموتون في سبيل الحصول عليه ...»[4] .

ج- العامل الإستراتيجي:

أدت جهود إسبانيا والبرتغال البحرية إلى اكتشاف أمريكا،وطرق جديدة إلى الهند، والطواف حول إفريقيا. وفي سعي الدولتين لإقامة إمبراطوريات استعمارية في أمريكا والشرق الأقصى، لم يكن هناك بد من الاهتمام بالمغرب الأقصى، ولاسيما أن السفن المتوجهة نحو غينيا والهند ،كانت تمر بالسواحل المغربية[5].ومما تقدم يمكن القول: أن المغرب تعرض للغزو الإيبيري مع بدايات القرن9هـ/15م فاحتلت مدنه الساحلية ،لأسباب تتعلق بالظروف السائدة في عموم أوروبا .

---

(1) هو الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن بجبش التازي ، المتوفى سنة 820هـ/1417 م، من العلماء العاملين المجاهدين ، كان يدعو الناس لمجاهة العدو الإيبيري؛ الذي أخذ يكتسح البلاد. أنظر ترجمته عند أحمد بابا التنبكتي: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** ،2ج، تقديم وإشراف عبد الحميد الهرامة، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس1989،ج2، ص 583.

(2) محمد رزوق : **دراسات في تاريخ المغرب** ، ط 1 ، دار إفريقيا الشرق ، المغرب 1991 ، ص 13.

(3) نفسه ، ص14 .

(4) محمد حميد السلمان : **الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ،1535/1507م** ، مركز زايد للتراث والتاريخ ،2000 ، ص05.

(5) محمود علي عامر ومحمد خير فارس : **تاريخ المغرب العربي الحديث** ، منشورات جامعة دمشق 2000/1999 ، ص21.

ثالثا – نشاط القوى الدينية:

عرف المغرب ظهور حركات صوفية كثيرة كان لها بالغ الأثر على أوضاع المغرب منذ بداية القرن التاسع الهجري ،حيث بدأت هذه الطرق مع أبي الحسن الشّاذلي (ت 656هـ/1258م) ، وانتشرت مع الشّيخ الجزولي (ت 869هـ/1464م) [1] ،وتعددت الأربطة والزّوايا وانتشر تعظيم الصلحاء وأزداد عددهم في المدن والبوادي، وقوي نفوذهم في نفوس العامّة وخشيت من سطوتهم السّلطة الحاكمة، فراحت تكسب ودّهم وتتقرب منهم، وتأخذ منهم الشّرعية والبركة، وتدخّلوا في القضايا السّياسية عن طريق مراقبة السّلطة، وتوجيهها أو تعويضها أحيانا في حالة عجزها، وحلّ بعض المشاكل الاجتماعية،بتسوية الخلافات بين الأشخاص أو بينهم وبين المخزن ، أو طلب التوسّل لهم في استنـــزال المطر[2].وقد ذكر الوزان أنّ في منطقة جبل "بني مسكنّة" ما نصّه :
«... أنّه يوجد من بينهم عدد من علماء الشّريعة الإسلامية، لهم طلاّب كثيرون يلحقون أكبر الضّرر بهذه الجبال لا سيما في الأماكن التي يستقبلون فيها بالتّرحاب، ولا تفرض عليهم ضرائب ثقيلة، لأنهم ينفقون على الفقهاء والطّلبة... »[3] .

ولئن وجد في زمن المؤلف هذه الانحرافات عند بعض المتصوفة، وأتباعهم، أو بعضِ المحسوبين عن الدين الإسلامي، ممن يدّعون الصّلاح ويتسترون وراءه لقضاء مصالح دنيويّة، فلا يمكن أن نعتبر ذلك قاعدة مطلقة، تجرنا إلى التّعميم وإصدار الأحكام على كلّ القوى الدينية في بداية القرن العاشر الهجري . ولما رأت هذه القوى الدينية أن الخطر المسيحي يهدد البلاد أمام انعدام سلطة حكومية ذات كفاءة ،بدؤوا في تنظيم الجهاد وحث الأتباع على انقاد البلاد وأقدموا على:

- تكوين خلايا جهادية كحركة بني راشد وزوايا سوس.
- الإعداد لإقامة دولة قوية، وقد تولت هذا الأمر الطريقة الجزولية .
- الميدان الحربي (الجهاد ضد الإسبان والبرتغال)[4].

---

(1) طريقة صوفية متفرعة عن الطريقة الشاذلية أسسها محمد بن سليمان الجزولي ،الذي توفي مسموما عام 870هـ/1466م للمزيد من التفصيل أنظر إسماعيل العربي : **معجم الفرق والمذاهب الإسلامية** ،ط1 ، دار الأفاق ، المغرب 1993، ص 111.

(2) أبو عبد الله محمد بن عيشون الشراط : **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس** ، تحقيق زهراء النظام، ط1 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب 1997 ،ص ص 26 -27 .

(3) الحسن بن محمد الوزان : المصدر السابق، ج1، ص339 .

(4) إبراهيم حركات : المرجع السابق ، ص 37 .

رابعا – نهاية الوطاسيين وقيام السعديين :

بعد الصدام الذي حصل بين "محمد الشيخ السعدي" و"أحمد الوطاسي" في معركة درنة في رجب 952هـ/1545م ،تمكن محمد الشيخ من أن يلحق هزيمة كبيرة بالجيش الوطاسي، وتم أسر السلطان الوطاسي وابنه، وأخذ مقاطعة تادلا، وبات الطريق إلى فاس مفتوحا، إلا أن أهلها بقيادة "أبي حسون الوطاسي" أبدوا مقاومة شديدة ،مما أجبر محمد الشيخ أن يكتب للفاسيين، يطلب منهم تسليم مدينة مكناسة، مقابل إطلاق سراح السلطان الوطاسي(1) لكن محاولته باءت بالفشل، وبدأت بوادر التدخل العثماني في المغرب تلوح في الأفق، بعدما وجهت الأسرة الوطاسية استغاثة للسلطان العثماني سليمان القانوني للتدخل لإطلاق سراح السلطان الأسير. وأمام هذه الأوضاع الحرجة التي يمر بها السلطان السعدي،سارع إلى تجهيز حملة عسكرية قوامها ثلاثون ألفا بين فرسان ومشاة في رمضان 955هـ/أكتوبر 1548م، فحاصر فاس بضعة أشهر ليتسنى له دخولها في شهر جانفي 1549م /محرم 956هـ، وهذا قبل أن يستجيب السلطان العثماني لنجدة الوطاسيين(2).

– القضاء الأول على الحكم الوطاسي في فاس956هـ/1549م:

تمّ القضاء الأول على الحكم الوطاسي في معركة درنة في رجب 952هـ/1545م، حيث ألحق محمد الشيخ السعدي هزيمة كبيرة بالجيش الوطاسي، وقد تمّ أسر السلطان وابنه ، والسيطرة على مقاطعة تادلا ، وبذلك أصبح الطريق مهيئا نحو فاس ، إلا أن أهلها أبدو مقاومة للسعديين ، في وقت توجه أبو حسون الوطاسي للجزائريين يطلب عونهم .

– القضاء النهائي على إمارة الوطاسيين 961هـ/1554م :

وجه "محمد الشيخ" السعدي حملة على تلمسان(3) ،مما أغضب حكام الجزائر وعملوا على دعم "أبي حسون" عسكريا ، الذي استطاع أن يسترجع فاس، في مطلع صفر 961هـ/ جانفي 1554م وبذلك انتعشت الإمارة الوطاسية المتهاوية من جديد، وبجلاء القوات التركية ورجوعها إلى الجزائر أصبح "أبوحسون" يواجه خصمه المولى "محمد الشيخ" منفردا، فالتقى الجمعان في معركة في مكان يسمى رأس الماء(4)، وقد نصب "محمد الشيخ" كمينا "لأبي حسون" فقتله.

---

(1) دييقو دي طوريس : **تاريخ الشرفاء** ، تعريب محمد حجّي و محمد الأخضر ، شركة النشر و التوزيع ، الدار البيضاء ، د، ت ، ص103.

(2) عمّار بن خروف : المرجع السابق،ج1، ص 56.

(3) الحديث عن هذه الحملة سيأتي في المبحث الثاني من الفصل الأول.

(4) عبد الكريم كريّم : المرجع السابق ، ص 82.

- قيام السعديين :

أحدث الاحتلال المسيحي للسواحل المغربية ردة فعل قوية في الداخل، إذ ظهرت حركة تدعو إلى حمل السلاح، والتقدم لتحرير الأراضي المغتصبة، وقد أصبح أمر السلطة القائمة (بنو وطاس) مرهون على مدى استجابتها لهذا النداء، لكن الوطاسيين كانوا من الضعف ما لم يسمح لهم من نشر الأمن في الداخل، وصد العدوان الخارجي[1].

ولذا بدأ أهل المغرب ينتظرون قيام قيادة جديدة ؛ من شأنها ضبط الأحوال المضطربة، وتدافع عن الثغور أمام التهديد الإيبيري ،فقامت الدعوة السعدية[2] في الجنوب، حاملة شعار توحيد البلاد، وتحرير المناطق المحتلة، والجهاد ضد النصارى، فوجدت بذلك قبولا واستحسانا ،وتجاوبت معها فئات كبيرة من الشعب المغربي[3].

باشر السّعديون دعوتهم الجهادية في المغرب الأقصى ناحية درعة، فبايع الناس الشريف "محمد بن عبد الرحمن السعدي"[4] ؛الذي تمّ تنصيبه سنة 916هـ/1510م وتسم بلقب "القائم بأمر الله" متخذا من قرية "تيدسي" قرب "تارودانت" أول عاصمة للدولة السعدية [5] .

– مواجهة السعديين للغزو:

كان أول ما قام به "محمد القائم بأمر الله" ،هو مهاجمته للبرتغاليين عند أغادير، وتحققت له انتصارات أولية كبيرة ،مما دفع بسكان "حاحة" و "الشياظمة" من استقدامه ليقود جيش الجهاد ضد النصارى ،وذلك بعد أن عقد البيعة لابنه "أبي العباس الأعرج"، كولي للعهد سنة 918هـ وقد قدمت له كل قبيلة بايعته عشرة من رجالاتها المقاتلين فبلغ المجموع خمسمائة رجل، مما يدل أن

---

(1) نفسه ، ص 33.

(2) أن أصل الأشراف السعديين من الحجاز، وهم ينتسبون إلى ولد محمد النفس الزّكيّة، وسبب قدومهم إلى المغرب أن أهل "درعه" كانت ثمارهم لا تصلح، فقيل لهم : لو أتيتم بشريف إلى بلادكم -كما أتى أهل سجلماسة - لصلحت ثمـاركم . للمزيد من الإطلاع أنظر أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : المرجع السابق ، ج5 ، ص3 .

(3) عبد الكريم كريّم : المرجع السابق ، ص 34 .

(4) هو السلطان السعدي "محمد بن عبد الرحمن" الملقب بالقائم بأمر الله، مؤسس الدولة السعدية ، بويع أميرا سنة 915هـ/ 1510م ، توفي بأفوغال قرب شيشاوة سنة 923هـ و دفن بمراكش أنظر إبراهيم حركات : **المغرب عبر التاريخ** ، 3ج ، ط1، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء 1978، ج 2 ، ص275.

(5) إبراهيم حركات : **السياسة والمجتمع في العصر السعدي** ،دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء، المغرب 1985، ص 46.

القبائل التي بايعته كانت خمسين قبيلة، وكانت هذه القوة، هي نواة الجيش السعدي النظامي الذي أسند قيادته لابنه الأكبر أحمد الأعرج[1].

- الحرب ضد البرتغال وفتح آسفي:

وجه السعديون جهودهم لقتال البرتغاليين، وعلى التخلص من العملاء ؛الذين كانوا يقدمون خدمات كبيرة للعدو، الذي توغل إلى المناطق الداخلية، وألحق أضرارا فادحة بالأهالي، وبمقتل "يحي بن تعفوفت"[2] في سنة 924هـ/ 1518م ،تخلص السعديون من عميل خطير قام بدور بارز في التمكين للبرتغاليين، الذين فقدوا حليفا مخلصا لم يجدوا من يعوضه، وبذلك بدأ نفوذهم يتقهقر عن المناطق الداخلية، وقد ذكر (طوريس):

أن المسيحيين حزنوا كثيرا لموت هذا البطل المغربي- كما وصفه - لأنه كان دائما يخدم الملك بوفاء، ومنذ ذلك العهد أيقنوا أنّ الأشياء تطورت، وأن للسعديين ضلع في قتله[3].

ظل اهتمام السعديين في عهد "أحمد الأعرج" وخلفائه، منصبا بدرجة كبيرة على مواصلة النضال ضد الوجود الأجنبي في السواحل، واستطاع أن يزحف بقواته ويحاصر آسفي لمدة طويلة استغرقت عشر سنين ، ليتم فتحها بصفة نهائية في سنة 937هـ/1530م.

- الإستلاء على مراكش 934هـ/1527م:

بينما كان "أبو العباس أحمد الأعرج" مشغولا بحصار آسفي ،استقبل وفدا عن قبيلة هنتاتة[4]. التي تحكم مراكش ونواحيها والتي أعلنت بيعتها لأحمد الأعرج ، دون علم أميرها "الناصر بوشنتوف"، حيث قام الوفد المذكور بمهمة المبايعة نيابة عن القبيلة، فتقدم الملك السعدي نحو مراكش مدعيا أنه جاء بقصد الاستنجاد بأميرها ضد البرتغال، وتم لقاء ودي بين الشخصيتين على أبواب مراكش حيث تخلص أحمد الأعرج من الأمير الهنتاتي بتسميمه في طعام قدمه إليه ، وبذلك سهل عليه دخول مراكش وبويع أميرا عليها[5].

---

(1) عمّار بن خروف : المرجع السابق، ج1 ، ص46 .

(2) عميل للبرتغاليين ناحية آسفي، بلغ أتباعه خمسة آلاف رجل من العرب والأفارقة ،قتله رجلان من قبيلة أولاد عمران أنظرعنه مارمول لويس كاربخال : المصدر السابق ، ج2 ، ص11.

(3) ديقو دي طوريس : المصدر السابق، ص51.

(4) قبيلة بربرية من قبائل مصمودة ،موطنها جبال درن القريبة من مراكش،قدموا للمغرب مع جيش الموحدين ،للمزيد من الإطلاع أنظر: الموسوعة الحرة.

(5) إبراهيم حركات : **السياسة والمجتمع في العصر السعدي** ،ص 49 .

خامسا- جهود السعديين في المغرب قبل معركة وادي المخازن:

عرفت الحركة السعدية تطورات هامة ، ومرت بمراحل مختلفة ،كان الصراع هو الطابع المميز لها سواء في الداخل ضد الوطاسيين ؛الذين شعروا بخطر الحركة عليهم فناصبوها العداء، أو ضد مراكز الاحتلال الأجنبي، ومن يتعاون معها من الأهالي .

فعمل الحكام السعديون على استغلال كل الفرص السانحة؛ التي تمكنهم من القضاء على خصومهم وتقوية نفوذهم وتوطيد دعائم دولتهم الناشئة، والاستمرار في توحيد البلاد وتحرير سواحلها المحتلة ، حيث استغل أحمد الأعرج فرصة الهدنة؛ التي وقعها مع البرتغال لبسط نفوذه على معظم البلاد الجنوبية ،وظهر السعديون في المغرب كقادة محررين للسواحل المغربية من الاحتلال الأجنبي، ونظر إليهم كأبطال، سيتم على أيديهم تحرير البلاد والعباد ، فازدادت شعبيتهم وتمدد نفوذهم[1].

- الإنعاش الاقتصادي :

بذل السعديون الأوائل جهودا كبيرة في سبيل النهوض بالاقتصاد المغربي، وتوفير الشروط الضرورية للارتقاء به وفي مقدمتها :[2].

- توفير الأمن والاستقرار الضروريين لأي تحسن في الأوضاع الاقتصادية، ونجحوا في تحقيق هذا الشرط خلال القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي عن طريق العمل على وقف حملات النهب، والسلب، والقتل البرتغالية.

- فك الحصار الاقتصادي ،الذي فرضه البرتغاليون والأسبان على المغرب، حينما تمكنوا من السيطرة على جميع شواطئه الساحلية تقريبا ،الأطلسية والمتوسطية[3].

إن أهم عنصر يميز الحياة الاقتصادية خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، هو رواج التجارة مع الخارج، بشكل لم يعرف المغرب له نظير؛ حيث يعدّ هذا القرن أحسن فترات الازدهار الاقتصادي بالمغرب، على الرغم من الأزمات والكوارث؛ التي تخللته كمجاعة 1521م، فقد لاحظ الأجانب من سواح وتجار وغيرهم، رخاء المعيشة بالمغرب[4]. وذكر "مارمول" أثمان

(1) عبد الكريم كريم: المرجع السابق ، ص ص 51، 52، 53.

(2) عمّار بن خروف : المرجع السابق ، ج2، ص ص38 - 39 .

(3) عمار بن خروف : **ملامح من الحياة الاقتصادية في عهد السعديين** ،في مجلة الدراسات التاريخية ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر 1978، عدد 3 ، ص ص 69- 70.

(4) إبراهيم حركات : **المغرب عبر التاريخ** ، ج 2، ص 427.

رؤوس الماشية والدواجن، فالثور مثلا كان يساوي حوالي ستة مثاقيل، والبقرة أربعة مثاقيل ، والخروف ستة ريالات والدجاجة نصف ريال، ولاحظ "مارمول" كذلك كثرة الفواكه الجافة، والطرية وغزارة السمك وزيت الزيتون(1).كما اهتم السعديون بالزراعة، وخاصة زراعة قصب السكر؛ التي أولاه السعديون الأوائل اهتماما كبيرا، فاستكثروا من زراعته، وكثر إنتاجه ،حتى لم تعد له قيمة في المغرب، بينما ازداد الإقبال عليه من طرف التجار الأوروبيين لجودته ورخصه، حتى أصبحت عائدات السكر من الموارد الهامة لخزينة الدولة (2). أما الصناعة الحربية، فقد استطاع السعديون الأوائل صناعة بعض أسلحتهم ،كالمدافع لأول مرة في ترسانة مراكش ؛التي كانت توجد بالقصبة ويرجع إنشاؤها إلى أيام الموحدين، حيث كان يعمل بها في ظل الحكم السعدي، عدد كبير من الأسرى المسيحيين،تحت إمرة أعلاج وأتراك. وفيها كان يذوّب النحاس لصنع المدافع ، وقد تمّ اكتشاف معدن النحاس المخصص لهذا الغرض بجبل تتزار سنة 946هـ/ 1539م، حيث استطاع لأول مرة أن يصنع علج من أعلاج مدريد ،دخل الإسلام هذا السلاح الفعّال في معارك القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وفي ذات الوقت اكتشف أحد السوسيين من جزولة سر صناعة القنابل(3).

لعب التجار اليهود في الحياة الاقتصادية دورا فعّالا، إلى جانب دورهم التجسسي على مقدرات السعديين الاقتصادية، والعسكرية(4)إذ سيطروا واحتكروا التجارة المغربية وخاصة موارد الجمرك ،وتجارة السكر، والحشيش ،وملح البارود، والتبغ، وكانوا موضع حقد التجار الأوروبيين فضلا عن المسلمين المغاربة، ولم يكن ينافسهم في هذا المجال إلا الإنجليز. و تحدث الوزان عن دور اليهود في المجال الاقتصادي كما ذكر أنهم ألحقوا أضرارا صحية كبيرة بالأهالي، لنشرهم داء الزهري حيث قال:

«... وداء الإفرنج الزهري الفظيع بأوجاعه وبثوره وقروحه منتشر كثيرا في بلاد البربر، لا يكاد يسلم منه أحد،فظهر فيهم هذا الداء الذي حمله كثير من يهود إسبانيا... ».(5)

---

(1) نفسه ، ص 427.

(2) عمّار بن خروف : المرجع السابق ، ص39.

(3) إبراهيم حركات : المرجع السابق ، ص 430.

(4) عطا علي محمد شحاتة ريّه : **اليهود في المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطّاسيين** ، ط2 ، دار الكلمة للطباعة ، دمشق 1999 ، ص58 .

(5) الحسن بن محمد الوزان : المصدر السابق ، ص84.

سادسا– التهديد العثماني :

كان لظهور العثمانيين في الحوض الغربي للمتوسط مع مطلع القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي وإلحاقهم للجزائر سنة925هـ / 1519م ، و تحقيقهم لانتصارات عظيمة على إسبانيا في طرابلس، وتونس فيما بعد ، أثر بالغ في علاقاتهم مع المغرب الأقصى، الذي بقي خارج دائرة نفوذهم وهيمنتهم ؛ فتطلعوا إلى السيطرة عليه محاولين إلحاقه بالإيالات الثلاث؛ لكن الرفض المستميت، والتعامل الحذر، لحكام المغرب الأقصى السعديين مع الأتراك، حال دون تحقيق ذلك لهم، بعد أن مال الوطاسيون إلى التقرب منهم ،وقبلوا ترديد اسم الخليفة العثماني ، والدعاء له على المنابر ، وتوجيه الهدايا التقليدية لشخصه[1].وبهذا الانقياد ضمن الوطاسيون عدم تدخل الأتراك العسكري في التراب المغربي. وبالرغم هذا كله ،كان الأتراك حريصين على الإطاحة بأبي حسون الوطاسي وهم بفاس، بعدما دعموه بالرجال والسلاح،فلم يخفوا مطامعهم بعدما رأوا خيرات المغرب، ورغبوا في ضم المغرب ،و إعلان البيعة للسلطان العثماني[2].

ولكن رغم سعي العثمانيين للهيمنة على المغرب وتهديدهم لحكم السعديين ، إلا أنهم أدركوا أنه من الحكمة أن لا يضغطوا على السعديين؛وإلاّ ارتموا في أحضان الإسبان، والبرتغاليين الحريصين على عدم امتداد النفوذ العثماني إلى المغرب، بتأجيج الصراع بينهما وسعوا إلى:

– تغذية الشكوك والمخاوف لدى الحكام المغاربة من نوايا الأتراك في ضم المغرب تحت لوائهم ، وقد إزدادت المخاوف والهواجس لدى "محمد الشيخ السعدي"، بالرغم من عدم تنفيذ السلطان العثماني لتهديده.

– دعم القوة الإيبيرية المتواجدة على المدن الساحلية في المغرب لمشاريع التقارب بين الوطاسيين و السعديين ،وتوقيع هدنات معهم، حتى يبعدوا العثمانيين من المغرب ، ولا يتيحوا لهم فرص التدخل فيه[3].

– عدم استغلال الإيبيريين إلى فرص انهزام الوطاسيين مرارا للتدخل أكثر في المغرب، وتحقيق أطماعهم فيه ،حتى لا يدفعوا هؤلاء إلى طلب العون العثماني[4].

---

(1) إبراهيم حركات : **السياسة والمجتمع في العصر السعدي** ، ص ص 29 – 30.

(2) المجهول: **تأريخ الدولة السعدية التكمدارتية** ، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، ط1 ، دار تينمل للطباعة والنشر ، مراكش 1994، ص 24 .

(3) عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 92 .

(4) عبد الكريم كريم: المرجع السابق ، ص 59 .

2- الأوضاع في شبه الجزيرة الأيبيرية وفرنسا قبل معركة وادي المخازن :

1- الأوضاع في إسبانيا قبل معركة وادي المخازن:

اتصفت الأوضاع في المملكة الإسبانية قبل معركة وادي المخازن، بجملة من الأحداث والملامح جعلت منها قوّة عسكرية مناهضة للمسلمين، في عموم العالم الإسلامي، يمكن حصرها إجمالا في النقاط التالية :

*- إتحاد مملكتي قشتالة وأرغونة.

*- سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية.

*- بداية الغزو الإسباني لسواحل إفريقيا.

*- شار لكان والصراع مع الفرنسيين.

*- فيليب الثاني وقمع ثورة جبل البشارات 1568م.

لقد شهد القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي تحولات كبيرة ،حيث أخذت الدول الأوروبية تتخلص من مظاهر العصور الوسطى منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وبدأت تتشكل الدول الحديثة القومية، وتزعمت دولتا شبه الجزية الأيبيرية الكشوف الجغرافية، وما ترتب عنها من توجهات استعمارية.

فكيف كانت الأوضاع في مملكة إسبانيا قبل معركة وادي المخازن ؟

عندما اندثرت الخلافة الأموية في الأندلس، وتحولت إلى دول الطوائف المتناحرة فيما بينها ، اتجهت الممالك النصرانية إلى توحيد نفسها منذ أوائل القرن الحادي عشر بزعامة ملك نافار "سانشو الثالث"(1)، لكن سرعان ما انقسمت عن نفسها بعد وفاته سنة 1035م ، وتعتبر مملكتا قشتالة و أراغونة أقوى الممالك النصرانية وأكبرها مساحة،سعت كل منهما إلى التوسع وضم الممالك الأخرى، تحت سلطتها فقد اختفت مملكة نافار حينما استولت المملكتان الكبيرتان قشتالة وأرغون على ولاياتها، كما ضم جزؤها الشمالي إلى حكام فرنسا الجنوبيين عن طريق المصاهرة والوراثة(2).

---

(1)ملك إسباني ولد حوالي 1133م ،ابن الملك ألفونسو ، حكم قشتالة من 1157م إلى 1158م ، توفي سنة 1158م ، لعب دورا متميزا في توحيد الممالك النصرانية أنظرعنه : محمد محمود النشار: **تأسيس مملكة البرتغال**،ط1،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، طنطا 1992، ص 99.

(2) عبد القادر فكاير : **الصراع الجزائري الإسباني في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر**، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر 2001/2000 ، ص 3.

أ– إتحاد مملكتي قشتالة وأرغونة:

ارتبط إتحاد مملكتي قشتالة وأرغون بزواج "إيزابيلا" مع "فيردناند"في 19أكتوبرمن سنة 1469م،و تمّ عقد القران في بلدة الوليد (valladolid)، حيث كانت تقيم إيزابيلا، في حفل خاص لم يحضره إلا عدد قليل من الأصدقاء[1] ،وكان عمرها أنداك أربعة عشر سنة، أما "فرديناند" فكان يصغرها بسنة واحدة ،فأدّى هذا الزواج إلى إتحاد مملكة أرغونة البحرية التي كانت تتبعها صقلية ،ونابولي ،وجزر الباليار مع مملكة قشتالة ذات العمق البري في شبه جزيرة إيبيريا، وبذلك أصبحت دولة إسبانيا الجديدة قوية في البر وفي البحر[2] .

ومع مطلع القرن السادس عشر، توزعت مشاغل إسبانيا الخارجية بين أكثر من ميدان، وصارت قوة عسكرية عظيمة في البحر الأبيض المتوسط ،خاصة بعد تسلم ملك إسبانيا "شارل" حفيد "فرديناند" و"إيزابيلا" تاج الإمبراطورية الجرمانية المقدسة باسم "شارلكان"، فأتخذ ملوك إسبانيا وصية الملكة "إليزابيث" منهجا في السياسة الإسبانية تجاه أقطار شمال إفريقيا، بعدما فشلت حملتها على تلمسان بوفاتها سنة 1504م والتي كانت حلم حياتها[3].

وقد تركت الملكة "إيزابيلا" في وصيتها مايلي: « ... إني أرجو الأميرة ابنتي (جين) والأمير زوجها (فيليب) وآمرهما بطاعة وصايا أمنا المقدسة الكنيسة، طاعة تامة، وأن يكونا حماتها والمدافعين عنها حسبما يقتضي واجبها، وألا يكفا عن متابعة فتح إفريقية، ومحاربة الكفار في سبيل الإيمان ... »[4].

فهذه الوحدة بين المملكتين ،قوّى لدى الإسبان البدء بإتمام حركة الاسترداد؛ التي شرع فيها أسلافهم في القضاء على الوجود الإسلامي في الجزيرة،ثم الشروع في غزو سواحل المغرب الإسلامي، ولتوطيد إسبانيا مكانتها في الساحة الأوروبية اتخذ "فرديناند" وزوجته "إيزابيلا" سياسة يطلق عليها زواج المصلحة ،وهذا بتزويج بناتهم مع أمراء البرتغال، وإنجلترا وفرنسا وقد أعطت هذه السياسة ثمارها في سنة 1520م عندما تولى شارل الخامس عرش الإمبراطورية المقدسة[5].

)1(شكيب أرسلان : **خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة** ، مطبعة المنار، مصر 1925، ص 215.

)2(هربرت فيشر : **أصول التاريخ الأوروبي الحديث** ، تعريب زينب عصمت راشد وآخرون، ط3، دار المعارف ، مصر1970، ص 74 .

)3(محمد خير فارس : **تاريخ الجزائر الحديث** ، ط1، مكتبة دار الشرق ، بيروت ، لبنان 1969م، ص 12.

)4(نفسه، ص 13.

(5) نوار عبد العزيز ومحمد جمال الدين : المرجع السابق، ص 48.

ب– سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس:

في ربيع سنة 895هـ/1490م خرج "فرديناند"[1] إلى غرناطة على رأس قوّة تتألف من خمسة آلاف فارس، وعشرين ألف من المشاة، فقطع الطرق وعاث في حقولها ومزارعها فسادا ، وخرج إليه المسلمون فوقع بينهما قتالا عنيفا ، استطاع المسلمون قتل العديد من جنوده ، ولما يئس "فرديناند" من احتلال غرناطة ، رجع من حيث أتى[2] .

أمام نشوة رد الهجوم ،خرج "أبو عبد الله بن أبي الحسن" لاسترجاع بعض الحصون التي سقطت، إلا أن محاولته باءت بالفشل ، وفي أفريل 1491م أعاد "فرديناند" الكاثوليكي الهجوم على رأس جيش يتألف من ثمانين ألف رجل، وانشأ في طريقه مدينة يتحصن بها أطلق عليها اسم "سانتافي" (santa-fe)[3] ، وأصبحت غرناطة تحت الحصار، الذي دام سبعة أشهر فقل الطعام واشتد الجوع، وانقطعت الإغاثة عندئذ اجتمع الفقهاء والأعيان وقادة الجند مع أبي عبد الله بن أبي الحسن لإيجاد مخرجا من هذه الضائقة، واتفق الجميع على التسليم للنصارى ،بعد مفاوضات أدت إلى معاهدة بين الطرفين في 25نوفمبر 1492م ، تضمنت سبعة وستين بندا[4] ،وسلم أبو عبد الله غرناطة قبل الموعد المحدد بشهر وذلك في 2جانفي 1492م ،وخرج باكيا وأمه عائشة تعاتبه بمقولتها المشهورة:

ابك مثل النساء على ملك   لم تحافظ عليه مثل الرجال.

ونقل الأستاذ عنان في كتابه نهاية الأندلس عن المؤرخ الإسباني "كوندي" قصة الاجتماع الذي تم في قصر الحمراء، للتوقيع على وثيقة تسليم غرناطة ،حيث لم يملك كثير من الزعماء أنفسهم من البكاء ، بما فرطوا فيه من الملك الذي حافظ عليه أجدادهم لقرون عدة [5] لكن القائد موسى الغساني قال : «... أتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب ،لم تخلق لإرسال الدمع ، وإني أرى أن روح الشعب قد خبت ... ».

(1) ابن الملك جوان الثاني من زوجته الملكة خوانا إنريكت تزوج من الملكة إيزابيلا حكم ما بين 1497-1516، في عهده سقطت غرناطة وأنشئت محاكم التفتيش. أنظرعنه شكيب أرسلان : المرجع السابق ، ص 216.

(2) أسعد حومد : **محنة العرب في الأندلس** ، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت1988، ص 134.

(3) ومعناها العناية المقدسة تقول عنها المصادر الغربية أنها المدينة الوحيدة التي لم تطأها قدم مسلم قط ، تبعد عن غرناطة بحوالي 12 كلم ، أنظر عبد القادر فكاير : المرجع السابق ، ص 15 .

(4) للإطلاع على بنود المعاهدة أنظر ، محمد عبد الله عنان : **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** ، ط4، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1997، ص245 .

(5) نفسه ، ص147.

ت– بداية الغزو الإسباني لسواحل المغرب الإسلامي:

بدأت إسبانيا تتجه نحو تكوين الدولة القومية القوية، نتيجة إتحاد مملكتي قشتالة وأرغون على أسس دينية كاثوليكية، معادية للمسلمين في الأندلس وفي المغرب الإسلامي، وبعد أن فرغت من تصفية الوجود الإسلامي فيها، توجهت نحو مناطق شمال إفريقيا لكي تنفذ وصية الملكة "إيزابيلا" المتعصبة ؛التي كانت تحلم بالسيطرة على مناطق المسلمين في جنوب البحر الأبيض المتوسط، ففي المغرب الأقصى سنة 883هـ/1478م احتل الإسبان عند وادي نون منطقة بنوا فيها حصنا أطلق عليه حصن سانتاكروز، وفي سنة 903هـ/1497م أقدم الإسبان على احتلال مليلة، وبحلول سنة 905هـ/1499م ،كان الإسبان قد استولوا على مناطق أخرى في المغرب، على مقربة من حصن سانتاكروز مثل طاكوست عاصمة وادي نون ، وتامانار، وأفران، و وأفنى[1].

وفي الجزائر فقد استولوا على المرسى الكبير في سنة 911هـ/1505م، وعلى وهران سنة915هـ/1509م، وبجاية سنة 916هـ/1510م، وفي نفس العام احتلوا عنابه وطرابلس الغرب، ثم تنازلت عنها عام 942مـ/1535م لفرسان القديس يوحنا؛ الذين اتخذوا من جزيرة مالطة مركزا لهم ، ولكنهم فشلوا في السيطرة على جزيرة جربه وقرطاج التونسية فخاف السلطان الحفصي أبوعبدالله وأعلن قبول دفع الإتاوة لهم كعنوان للخضوع[2] ،وبعد سقوط هذه المدن، شعر سكان مستغانم ،ومزغران بالناحية الغربية قرب وهران بالخطر، وقدموا عام917هـ/ 1511م فروض الطاعة والولاء لإسبانيا، وبذلك أحكم الأسبان قبضتهم على سواحل الجزائر الشرقية والغربية، كما أخضعوا إمارة بني زيان، وأخذوا يتلاعبون بأمرائها[3].وفي سنة 948هـ/1541م حشد الإمبراطور شارلكان[4]في جزيرة ميوركة أكبر أسطول عرفه البحر الأبيض المتوسط قبل معركة وادي المخازن، ليتوجه به لاحتلال الجزائر، لكن الحملة باءت بالفشل، ليعود "شارلكان "جارا أذيال الخيبة، ويتنازل على حكم إسبانيا لابنه "فيليب الثاني" ولينعزل في دير "يوست " ويموت سنة965هـ/ 1558م[5].

---

(1) عبد الكريم كريم : المرجع السابق ، ص 11.

(2) يحي بوعزيز : **الموجز في تاريخ الجزائر** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1999، ج2، ص 252.

(3) نفسه ، ص 254.

(4)للمزيد أنظر: A médée Pichot **: Charles- Quint,** furne et librairie –Editeurs ,Paris,1854 pp 25 -36.

(5) للمزيد من الإطلاع على تفاصيل هذه الحملة أنظر ، صالح حيمر : **التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541 وتأثيراته الإقليمية** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ وعلم الآثار ،جامعة باتنة 2006-2007، ص ص ، 79 - 93.

ث– شار لكان والصراع مع الفرنسيين:

بدأت المعارك بين جيوش شارل الخامس، وفرنسوا الأول في إيطاليا ، واستمرت المعارك في مرحلتها الأولى من سنة927هـ/ 1521م وحتى 931هـ/1525م ،وانتهت بانتصار الإسبان وحلفائهم في معركة "بافيا" ،وفيها أسر الملك الفرنسي، وبموجب المعاهدة التي أبرمت في مدريد خسر الفرنسيون ميلانو، وجنوة، ودوقية برغندي ،لكن "فرنسوا الأول" نقض المعاهدة فاندلعت المرحلة الثانية من الحرب بين سنتي 1526م و1529م،واستمرت بصورة متقطعة حتى سنة 951هـ/1544م(1).في هذا الصراع المحموم بين فرنسوا الأول وشار لكان على تزعم الإمبراطورية المقدسة، رأى الملك الفرنسي فرنسوا الأول أن من مصلحته الإستراتيجية ،أن يتوجه صوب الدولة العثمانية، القوة الصاعدة والمؤثرة في أوروبا والحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، فسعى لكسب ود السلطان العثماني "سليمان القانوني" ،وعقد معه تحالف عسكري قصد محاربة شارلكان و إضعاف قوته ،وذلك بأن تحاربه الدولة العثمانية من جهة المجر والنمسا ، وتشغله عن جيوش فرنسا من جهة الغرب، وبهذا يتمكن فرنسوا الأول من الانتقام من خصمه الذي أخذه أسيرا في موقعة بافيا (pavie)(2).

ج– فيليب الثاني وقمع ثورة جبل البشارات 1568م:

أدى إخفاق شارل الخامس على الساحة الأوروبية والإسلامية إلى تنازله على العرش لأبنه "فيليب الثاني" سنة 1556م ،فتاريخ إسبانيا خلال فترة حكم "شارل الخامس" كان سلسلة من الحروب لا تنتهي، أنهكت جيوشه وأفلست خزينته،ومن التحديات الكثيرة التي واجهت "فيليب الثاني" في فترة حكمه هي ثورة الموريسكيين التي اندلعت سنة 1568م في جبل البشرة بعدما وصلت نقمة الأندلسيين إلى مداها، بسبب التعسف الإسباني تجاههم ،فبدأ الأندلسيون يعدون للثورة ضد فيليب الثاني بعدما تنكر لوعوده(3).

فجاءت ثورة الأندلسيين في سنة من أسوأ سنوات حكم الإمبراطور فيليب الثاني، إذ كانت الثورة الهولندية على أشدها، وكان الأتراك يحققون الانتصار تلوى الآخر.في هذه الظروف الصعبة عين فيليب الثاني الضون "خوان النمساوي" ليتولى أمر قيادة الجيوش ويقضي على الثورة في سنة

---

(1) عادل سعيد بشتاوي: **الأندلسيون المواركة** ، دار المقطم للنشر والتوزيع ، القاهرة 1983، ص 125.

2) A médée Pichot: (Op. Ci t , p 55.

(3 عادل سعيد بشتاوي: المرجع السابق ، ص 126.

976هـ/ أكتوبر 1568م[1].بعدما ما وجد مقاومة عنيفة من الثوار ، وكان رد فعل فيليب الثاني عنيفا وانتقاميا؛ حيث أصدر في الشهر ذاته مرسوما يأمر فيه بترحيل الأندلسيين، ومصادرة جميع ممتلكاهم لتغطية تكاليف الحرب.[2]

ومما تقدم يمكن القول:

1- أن إسبانيا تمكنت من توحيد نفسها سنة 874هـ/1469م فتكونت إسبانيا القومية ، وأخذت عن عاتقها مسؤولية إخراج المسلمين من شبه جزيرة إيبيريا فأدى ذلك إلى إسقاط آخر معاقل المسلمين سنة897هـ/ 1492م .

2- تمكنت إسبانيا في فترة وجيزة من تجميع قواها ،فمدت ذراعها العسكري صوب بلدان شمال إفريقيا مع مطلع القرن الخامس عشر الميلادي والسادس عشر، ليصبح القرن الأخير قرن الإسبان سواء في الحوض الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، أو في مختلف أرجاء المعمورة بعدما نشطت إسبانيا في الكشوف الجغرافية لمختلف الطرق والشعوب، والتي كانت من أهدفها الهيمنة الاقتصادية والتبشير بالمسيحية.

3- نشطت إسبانيا في السيطرة على سواحل المغرب الإسلامي، سواء الإيالات التي كانت تابعة للدولة العثمانية أو المغرب الذي نال هو الآخر نصيبه من الغزو الإسباني.

4- تميزت فترة الملك الإسباني شارل الخامس بالصراع بين الدولة العثمانية؛ التي رفعت لواء الجهاد ضد الغزو الإسباني للمنطقة، وبين الملك الفرنسي فرنسوا الأول الذي كان ينافس شارل الخامس على زعامة الإمبراطورية المقدسة.

5- التسابق المحموم بين القوتين المتنافستين (إسبانيا والبرتغال) على التوسع في سواحل المغرب الأقصى، إذ توصلا الطرفان إلى توقيع معاهدة سنترا(santra) سنة915هـ/ 1509م؛ التي وضعت حدا للتراع بينهما ،على أساس اقتسام مناطق النفوذ[3].

---

(1) شارك سيبستيان ولي عرش البرتغال في قمع ثورة الموريسكيين مع خاله فيليب الثاني وكان عمره لا يتجاوز 14 سنة، مما يظهر حماسة الفتى لقتال المغاربة (الكفار) كما ينعتهم. أنظر : يوسف نكروف : المرجع السابق ، ص 36.

(2) عادل سعيد بشتاوي: المرجع السابق ، ص 164.

(3) إن تزايد المنافسة بين البرتغال و الإسبان ،قد دفعت ملوك لشبونة إلى السعي لدى البابا للحصول منه على ما يمكنهم اتخاذه حجة ،يجابهون به خصومهم ومنافسيهم الإسبانيين، وقد استجاب البابا "نيقولا الخامس " لذلك ،ومنحهم براءة في 8جانفي 1454م، تجعل سبتة والممتلكات الأخرى من نصيب التاج البرتغالي، أنظر عبد الكريم كريم : المرجع السابق ، ص 07.

2- الأوضاع في البرتغال قبل المعركة:

كانت البرتغال في البداية إحدى الولايات التابعة لقشتالة، وابتداء من القرن الحادي عشر، استطاعت أن تتخلص من السيطرة القشتالية في عهد ملكها "ألفونسوالأول"، ثم طرد المسلمين من لشبونة، وقد توطدت علاقة البرتغال مع الكنيسة ورجال الدين، حتى تشكلت فيما بعد إمبراطورية البرتغال البحرية . ويمكن إجمال أوضاع البرتغال في النقاط التالية:

*- البرتغال في عهد الملك يوحنا الأول(1415م/1457م):

*- غزو سواحل المغرب

*- تراجع النفوذ البرتغالي في المغرب في عهد الملك جيان الثالث(1521م-1558م)

*- البرتغال في عهد الملك سيبستيان (1568م/1578م):

أولا – البرتغال في عهد الملك يوحنا الأول(1415م/1457م):

كانت البرتغال في عهد الملك يوحنا الأول حافلة بالأحداث السياسية ،والإصلاحات الداخلية حيث أسهمت بقسط وافر في الاستكشافات الجغرافية الأولى، وفي المشاريع التجارية والاقتصادية والاستعمارية؛ التي بواسطتها أصبحت البرتغال في هذا العهد وما تلاه من عهود ، أعظم قوة بحرية أوروبية[(1)]. فبمساعدة هذا الملك ،تمكن ابنه الأمير هنري (1395م-1460م)؛ الذي لقب فيما بعد بالملاح، من أن ينظم الرحلات البحرية الاستكشافية المتعددة، وأن يفتح عهدا جديدا للاستعمار، حيث خرج من لشبونة في سنة 818هــ/1415م أسطولا بحريا غزا مدينة سبتة ؛الذي أعتبر سقوطها نصرا كبيرا للمسيحية،وقد اعتبروه ،أنه الأولى أن تؤرخ به العصور الحديثة، بدل التأريخ بسقوط القسطنطينية ،في يد العثمانيين المسلمين سنة 857هــ/1453م[(2)].

سعى"هنري الملاح" جاهدا لغزو بلاد المغاربة وتطهير شواطئ إفريقيا من القراصنة كما يعتقد، وقد حاول احتلال ميناء طنجة، لكنه فشل في ذلك، فحوّل جهوده لاحتلال الشواطئ المراكشية على المحيط الأطلسي، وإفريقيا الشمالية ابتداء من نهر السنغال، ثم الإستلاء على بلاد غانا، وتكوين إمبراطورية يشرف عليها فرسان المسيح[(3)].كان تنفيذ مشروع هنري الملاح يتطلب أموالا كثيرة، فعمد البرتغاليون في رحلاتهم لتصيّد الرقيق، والتّجارة به، لتمويل المشروع وقد ساعده ذلك على نشر المسيحية؛ التي هي نواة تكوين الإمبراطورية البرتغالية.

(1) أشرف صالح محمد السيد : **التاريخ الأوروبي الحديث** ، دار واتا للنشر الرقمي ، ط1، 2009 ، ص 71.

(2) محمد الفاسي : المقال السابق ، ص22.

(3) أشرف صالح محمد السيد : المرجع السابق ، ص71.

ثانيا – غزو سواحل المغرب:

أتيحت الفرصة للبرتغال للاتجاه بحريا وخارجيا ،في وقت مبكر عن الإسبان، وقد أعطت الحروب ضد المسلمين للبرتغال دفعة دينية قوية ،حيث صرح الملك يوحنا الأول(1415م-1457م)قائلا: «...أن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه ملوك البرتغال الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين في المغرب... » وأنه سيمنح أكبر وسام وهو وسام (السيد الأعظم) لمن يجاهد في هذا الميدان،فأعدوا حملة سقطت خلالها مدينة سبتة سنة 818هـ/1415م كما ذكر آنفا، وحاولوا غزو طنجة، لكن الحظ لم يسعفهم، وبوصول الملك البرتغالي (الفونسو الخامس) إلى عرش البرتغال في سنة 1438م،أعد العدة لمتابعة غزو الثغور المغربية ،فاستولى على ميناء القصر الكبير في 21أكتوبر1458م وأنفا سنة1469و أصيلا سنة1471م والعرايش وطنجة سنة 876هـ/1471م وما إن حلّ القرن السادس عشر ،حتى بلغ الاحتلال البرتغالي للثغور المغربية ذروته[1].

ثالثا- تراجع النفوذ البرتغالي في عهد جيان الثالث(1521م-1558م):

تعتبر فترة حكم الملك (جيان الثالث) بداية تصفية النفوذ البرتغالي في المغرب وانحصار المد الاستعماري فيه ، ويرجع ذلك لعدة عوامل منها :

- وثبة القوى الشعبية والحكام السعديين لوضع حد للأطماع البرتغالية في المغرب .
- الحروب التي استنزفت البرتغال في عهد الملك (جيان الثالث)، والحالة الاقتصادية المتردية للبلاد والمقاومة الشرسة من المغاربة ضد الوجود البرتغالي في الثغور المغربية.
- قوّة العثمانيين التي كان نفوذهم قد امتد إلى الجزائر وتلمسان والمغرب[2].

رابعا -البرتغال في عهد الملك سيبستيان (1568م/1578م):

ورث الضون سيبستيان بعد اعتلائه العرش سنة(1568م/1578م)،أوضاعا اقتصادية متدهورة، وظروف اجتماعية في لشبونة صعبة، نتيجة الإنهزامات البرتغالية المتتالية ، ولأنقاد الموقف المتهاوي،قام رجال الدين بحملة دعائية كبيرة، وجدت أذانا صاغية عند الشباب المسيحي، فألهبت حماسه ، في الوقت الذي سيطرت على الملك الشاب فكرة تنظيم حملة صليبية ضد المغاربة، تعيد للبرتغاليين أمجادهم؛ التي أخذ شعراء البرتغال وأدباؤها يتغنون بها[3].

---

(1) دييقو دي طوريس : المصدر السابق ، ص 8.

(2) شوقي عطا الله الجمل:**تاريخ المغرب العربي الكبير** ،ط1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة1977 ، ص68.

(3) محمد الفاسي : المقال السابق ،ص ص23- 24.

3- الأوضاع في فرنسا قبل معركة وادي المخازن:

كانت الأوضاع في فرنسا قبل العقود التي سبقت معركة وادي المخازن مضطربة في الداخل و على الصعيد الأوروبي ،الذي شهد تداعيات دعوة لوثر الدينية [1]إضافة إلى المنافسة الشديدة بين الملك الفرنسي"فرنسوا الأول" (1515م-1547م)والملك الإسباني "شارل الخامس"(1520م-1558م) ،على تزعم العالم المسيحي، حيث اعتبر كل واحد منهما حاميا للكنيسة، مما أدى بالأتراك إلى تقوية مركزهم وتوسيع رقعة فتوحاتهم[2].وبعدما انهزم "فرنسوا الأول" سنة 1525م في معركة بافي(pavie) [3] التي أسر فيها وتم إطلاق سراحه فيما بعد ،باشر اتصالاته مع السلطان العثماني"سليمان القانوني" لعله ينجح في استمالة هذا الأخير إلى حلف ضد إسبانيا.ويمكن أن نقول: أن أوضاع فرنسا في هذه الحقبة اتصفت بمايلي:

*- التقارب الفرنسي العثماني سنة943هـ/ 1536م.

*- الحرب الدينية ومذبحة بارثليميو في أوت 1572م.

أولا- التقارب الفرنسي العثماني:

أدّى الضغط الإسباني على الفرنسيين في الثلاث عقود الأولى من القرن السادس عشر إلى التوجه صوب عدو المسيحيين الأول وهم الأتراك المسلمين، رغم المعارضة والرفض التي أبدتها الأوساط المسيحية ؛حيث عرض على الأتراك إقامة سلم دائم مع مختلف الأمراء المسيحيين،باستثناء "شارل الخامس"، الذي يجب توحيد الجهود ضده، ومن أبرز مظاهر هذا التقارب، معاهدة الامتياز التي أبرمت بين "فرنسوا الأول" والدولة العثمانية في سنة 1536م[4]. حيث جرى بموجبها تعيين قناصل فرنسيين في موانئ الشام، وأعفي التجار الفرنسيون من الخضوع للقانون العثماني، وطبق عليهم القانون الفرنسي،كما تمتعوا بتخفيضات جمركية وحرية ممارسة التجارة ،و منحوا حق حراسة الأماكن المقدسة، بشرط أن يعامل رعايا السلطان بالمثل ، وفي سنة 1538م وقّع "فرنسوا

---

(1) مصلح ديني مسيحي ألماني ثار على الكنيسة الكاثوليكية وهو مؤسس المذهب البروتستانتي ولد بمدينة إيسليبن بمقاطعة ساكس الألمانية سنة 1483م، وفي القرن السادس عشر رفع مارتن شعلة الإصلاح الديني ساعيا إلى تطهير المسيحية من العقائد غير أصلية فيها، ومنها فكرة صكوك الغفران ، انتهت ثورته بصلح وستفاليا في عام 1648.أنظر أشرف صالح محمد سيد : **أصول التاريخ الأوروبي** ،ط1، دار واتا للنشر الرقمي ، قطر 2009، ص 96.

(2) نفسه ، ص159.

(3) العاصمة القديمة لمقاطعة للمبارديا ،وقعت بها معركة في فيفري1525م، بين فرنسا واسبانيا، أسرفيها الملك فرنسوا الأول. أنظر Brizen la maitiere **: le grand dictionnaire géographique et critique** , T6 ,P157.

(4) عائشة غطاس : **العلاقات الجزائرية الفرنسية**، رسالة ماجستير،معهد التاريخ ، جامعة الجزائر1984/1985م،ص5.

الأول" مع "شارل الخامس" هدنة أطلق عليها هدنة "نيس" توسطت فيها الكنيسة، لحشد التأييد ضذ العثمانيين ،فوضعت حدا للصراع بين العدوين إلى حين ،لكن سرعان ما تجددت العداوة بينهما بسبب منطقة الميلاني(1).

ثانيا– الحرب الدينية و مذبحة بارثليميو في أوت 1572م:

في النصف الثاني من القرن السادس عشر،شهدت فرنسا حالة من التوتر بسبب الحروب الدينية،التي اندلعت بين المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت، حيث تزايد أعداد البروتستانت في فرنسا مما أدخل البلاد في أتون حرب أهلية في الفترة ما بين 1526م وحتى ما بعد 1578م، وبحلول سنة 1572م،تعرض البروتستانت لمذبحة أمرت بها الملكة الفرنسية "كاترين دي مديتسي" (1519م-1589م) زوجة الملك "هنري الثاني"(2) ، ووالدة "فرنسوا الثاني"(3) ،عرفت هذه المذبحة لاحقا بمذبحة "القديس بارثليميو" أو "يوم سان بارثليميو"(saint bartholomèus) ،ففي الرابع والعشرين من شهر أوت سنة 1572م ،قتل الآلاف من البروتستانت قدرتها المصادر الأوروبية من 20000 إلى30000 قتيل، في حفل زفاف الأميرة "مارجريت" (Marguerite)، ابنة الملك هنري الثالث(4) على هنري ملك نافار(Navarre) البروتستانتي، وقد استمرت المجزرة ثلاثة أيام،وقد استقبل الكاثوليك أنباءها بالأفراح ،حتى أن البابوية صلت صلاة الشكر(5) .

ومما تقدم يمكن القول:

أن أوضاع فرنسا قبل معركة وادي المخازن ،كانت تعيش ظروف الحرب الدينية في أوروبا المنقسمة على نفسها ،بين معسكرين اثنين،المعسكر البروتستانتي ؛الذي كان يسعى إلى إصلاح الأحوال الدينية للمسيحيين وتقليص نفوذ الكنيسة، وبين المعسكر الكاثوليكي؛ الذي يريد أن يبقي هيمنة الكنيسة ووصايتها، إضافة إلى التنافس الشديد بين فرنسا وإسبانيا،حيث نلاحظ أن فرنسا توجهت صوب الدولة العثمانية من مبدأ "عدو عدوي صديقي".

---

(1) إسماعيل ياغي أحمد : **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث،** ط1 ، مكتبة العبيكان ،الرياض 1996،ص69.

(2) ملك فرنسا ولد في سان جرمان في 31 مارس 1519 م وتوفي في 10جويلية 1559م ، الابن الثاني للملك فرنسوا الأول ، حكم فرنسا من 1547م إلى 1559م أنظر .le petit l'a rousse Dictionnaire , 2008, p 1388

(3) ولد في يناير 1544م وتوفي في 5 ديسمبر 1560م ابن هنري الثاني وكاترين ميديسي حكم فرنسا من 1559م إلى 1560م.أنظر عبد الفتاح حسن أبوعلية وإسماعيل ياغي:**تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر**،دارالمري للنشر،الرياض1985م،ص 187.

(4) "هنري الثالث " تولى الحكم من 1574م إلى 1589م ، أظهر ميلا للبروتستنتية ، تمّ اغتياله سنة 1589 م .

(5) عبد الفتاح حسن أبو علية وإسماعيل ياغي : المرجع السابق ، ص 190.

المبحث الثاني :

علاقات المغرب الأقصى مع إسبانيا و البرتغال وفرنسا خلال العقود السابقة لمعركة وادي المخازن :

1 – علاقات المغرب الأقصى مع إسبانيا خلال العقود السابقة للمعركة :

*- العلاقات في عهد الوطاسيين.

*- العلاقات في عهد أوائل السعديين.

تعتبر إسبانيا من أكثر الدول الأوروبية التي ارتبطت بعلاقات مع المغرب الأقصى، تميزت في كثير من الأحيان بالصراع والهيمنة ،ويعود ذلك للإرث التاريخي، والقرب الجغرافي بين البلدين فما هي طبيعة العلاقات بين الوطاسيين و الإسبان في هذه الفترة ؟

أ– العلاقات في عهد الوطاسيين1471م/1554م:

كانت إسبانيا من أكثر الدول الأوروبية ، التي نسجت علاقات مختلفة مع المغرب الأقصى، نظرا للقرب الجغرافي والإرث الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، وحروب الاسترداد التي تزعمتها الكنيسة الكاثوليكية، وما نتج عنها من مآسي للأندلسيين؛ الذين هاجروا من بلدانهم إلى شمال إفريقيا ومنها إلى المغرب الأقصى.وفي خضم هذا الصراع الإسلامي المسيحي، تمت ملاحقة الفارين من الأندلس محاولين القضاء عليهم، حيث أوصت الملكة "إيزابيلا" بضرورة احتلال شواطئ إفريقيا بوضع القدم هناك لنشر المسيحية ،فاحتلت مليلة عام 902هـ/1496م[1] ،ومدينة غساسة عام 912هـ/1506م ،والمرسى الكبير عام 911هـ/ 1505م، وحجر بادس[2]في سنة 1508م ، ووهران عام915هـ/1509م[3] .

فالسلطة الوطاسية في المغرب في هذه الآونة، وقفت عاجزة أمام الهجمة الاستعمارية لإسبانيا على مدن المغرب، و لم تستطع دفع الغزو،أو تقديم يد العون للأندلسيين الفارين من إسبانيا، ويمكن أن نميز العلاقات بين الوطاسيين و الإسبان من خلال الملامح الآتية :

---

(1) Ernest Renan : Op .Cit , p10.

(2) محمد العربي الزبيري : **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث** ، مطابع المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر 1975م، ص 39.

(3) عاد الإسبان لاحتلال بادس سنة 1564م، بعدما تنازل لهم عنها عبدا الله الغالب، لما رأى تردد الأتراك علـى المينـاء. للمزيد من الإطلاع عن هذه الحادثة أنظر : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : المرجع السابق ، ج5،ص 49.

-مهادنة الإسبان:

إن تميز العلاقات بين الوطاسيين والإسبان بالمهادنة في كثير من الأحيان، فرضته ظروف انشغال الوطاسيين في شمال المغرب بمحاربة الخارجين عليهم ، والمناوئين لهم ، ومن أبرزهم السعديين. وبالرغم من أن الوطاسيين لم يتولوا الحكم في المغرب إلا تحت شعار الدفاع عن الوطن، وعلى هذا الأساس بايع أهل الحل والعقد في المغرب "أحمد الوطاسي"، وقد رفع بنو وطاس في بداية أمرهم لواء الجهاد وركزوا على ذلك في خطاباتهم، وأبرزوا أهمية جهاد النصارى المحتلين، ثم لا ننسى الأعمال الحربية ضد الأعداء التي قام بها" أبو زكرياء الوطاسي" عندما كان وزيرا للسلطان المريني "عبد الحق"، والانتصار الذي أحرزوه على الحملة البرتغالية في جزيرة مليحة بوادي اللوكس سنة895هـ/ 1489م . غير أن التقاعس للمحتل ميّز فترة حكم "أحمد الوطاسي"، فلم ينجد أهالي الأندلس بغرناطة، بالرغم من المآسي التي تعرضوا لها،ولم يركز كل جهوده على التصدي للإسبان ،والبرتغاليين ؛الذين غزوا السواحل المغربية ،مما جلب النقمة و الاستياء عليه، وبات المغاربة يتقربون إلى زعماء الزوايا لنجدتهم، وتنظيم الجهاد في غياب الحكم الوطاسي(1).

- التعاون مع الإسبان ضد السعديين :

تحتفظ الأرشيفات بالرسائل التي وجهها الأمراء الوطاسيون إلى حكام إسبانيا ،يطلبون من هذه الأخيرة العون والدعم ضد خطر السعديين ،الذي بات يهددهم من الجنوب، وقد وجد الإسبان في هذه الدعوات فرصة لإبعاد الوطاسيين من الارتماء في أحضان الأتراك- القوة التي أخذت تمد نفوذها في المغرب- لكن الإسبان لم يوفّقوا كثيرا في ذلك. ومن تلك الرسائل التي كانت توجه لإسبانيا نذكر منها:رسالة من فاس مؤرخة في 2 ديسمبر 1548م والموافق ل1 ذي القعدة 955هـ ،من الأمير مولاي أحمد بن الشيخ الوطاسي إلى "ماكسيميليان" ملك بهيميا،يذكر في رسالته إلى الإمبراطور أنّ اسبانيا ما انفكّت تمدّ يد العون لملوك بني وطاس، وأنه نتيجة لذلك لا يشك في أن "ماكسمليان" سوف لا يرفض مساعدة ملك فاس المحاصر الآن، من قبل طلائع السعديين، ويضيف أمير بني وطاس أنّ البرتغال أعرب عن استعداده لعون ملك فاس، بيد أنّ الوطاسيين يجدون في نجدة الإمبراطور جدية أكثر(2)، وفي رسالة بعث بها أبو حسون(3)ملك بادس

---

(1) عبد الكريم كريم: المرجع السابق ، ص 30.

(2) عبد الهادي التازي : **التاريخ الدبلوماسي للمغرب** ،10ج ،مطابع فضالة ، المحمدية ، المغرب 1988، ج 7، ص262.

(3) هو أبو حسون أخ السلطان الوطاسي محمد البرتغالي، كان أميرا على بادس ، اتصل بالأتراك وطلب منهم عونا عسكريا دخل بهم فاس منتصرا ، قتل سنة961هـ/1554م . أنظرعنه : دييقو دي طوريس : المصدر السابق ، ص 217.

إلى "شارل الخامس" محررة بتاريخ 3 فيفري 1549م /محرم 956هـ.[1]يعيد فيها إلى الذاكرة الرسائل التي بعث بها هو وملك فاس "أحمد الوطاسي" لإمبراطور إسبانيا لطلب المساعدة ضد السعديين المدعومين من الأتراك.[2]

ب- العلاقات الإسبانية المغربية في عهد أوائل السعديين (السلم الحذر):

اغتنم أحمد الأعرج الهدنة بينه وبين البرتغاليين سنة 929هـ/1523م ليتبادلا الأسرى، والتي انقلبت إلى هدنة سلم بين الطرفين فيما بعد ،غير أن الظروف كانت في صالح المولى "أحمد الأعرج"، الذي سرعان ما هاجم الإسبان في حصن سانتاكروز عند وادي النون، وألحق بهم هزيمة كبيرة سنة930هـ/ 1524م[3] .

كانت حادثة استعادة فاس إلى حكم السعديين في 23سبتمبر 1554م نقطة تحول هامة في تاريخ الدولة السعدية الناشئة[4] ،فالمولى محمد الشيخ السعدي، قد ظهر كخصم عنيد للأتراك في الجزائر، ومن المعارضين لسياستهم التوسعية في المغرب، وبديهي أن يبحث محمد الشيخ على قوّة خارجية تدعمه في صراعه مع الأتراك في الجزائر، وقد وجد ذلك في الإسبان.

ظلت العلاقات السعدية الإسبانية في دائرة السلم الحذر ، ولم تتطور إلى تحالف و تعاون إلا بعد الحملة الجزائرية على المغرب سنة (960هـ/ 1553م /961هـ/ 1554م)؛ و التي أشعرتهما بضرورة التنسيق والتعاون ضد عدوهما المشترك "الأتراك "، فبادر الكونت "دالكوديت" الحاكم الإسباني لوهران بتوجيه رسائل في هذا الصدد مع نهاية سنة (961هـ /1554م) أو مطلع سنة (962هـ /1555م) إلى "عبد الله بن محمد الشيخ"،وإلى"المنصور بن أبي غانم" المزوار الأسبق لتلمسان، والذي كان رده إيجابيا على هذه الاقتراحات، حيث رحب بعقد الاتفاق مع الإسبان[5].

---

(1) أنظر عن هذه الرسائل ، عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ص 262.

(2) نفسه.

(3) عبد الكريم كريم : المرجع السابق ، ص 50.

(4) تمكن السعديون من هزيمة أبي حسون الوطاسي وقتله ،ودخولهم لفاس، وقد صفا لهم الجو من كل معارضة تذكر سنة961هـ /1554م . وبذلك تم القضاء النهائي على إمارة الوطاسيين . للمزيد من التوسع أنظر دييقو دي طوريس : المصدر السابق ، ص 218.

(5) عمّار بن خروف : المرجع السابق ،ج1 ، ص163 .

كانت رغبة "محمد الشيخ" في بداية اتصالاته مع الإسبان، هي الحصول على الدعم العسكري؛ حيث كان في حاجة إلى عشرة آلاف جندي من حملة البنادق النارية لتعزيز فرسانه المقدر عددهم بنحو ثلاثين ألفا ، و العدد الكبير من المشاة و قطع المدفعية حتى يتمكن من الاستيلاء على الجزائر واحتلالها(1).

وصل عبد الله الغالب إلى عرش المغرب بعد مقتل أبيه محمد الشيخ على يد الأتراك، وقد بايعه أهل فاس ،ثم مراكش دون أي معارضة، وكان يكنّ في نفسه حقدا دفينا على قتلة أبيه، يتحين الفرص للقضاء عليهم.

إن عدم اطمئنان عبد الله الغالب على ملكه وتخوفه من الأتراك في الجزائر، دفع به من أن يتقرب من الإسبان، وهي السياسة التي بدأها والده من قبل(2) ، فقد وجه حملة عسكرية على تلمسان سنة 667هـ/1560م متزامنة مع حملة الأوروبيين على شمال إفريقيا لطرد الأتراك من المنطقة، ثم موقفه المتخاذل من أهل الأندلس؛ حيث تركهم ومصيرهم عند الإسبان، وقد عبر عن هذا الموقف المجهول بقوله : «... وأنه كانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات وأنه استشار معهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية الغرب ويعمروا السواحل... »(3).

مجمل القول:

أن أواخر الوطاسيين، حاولوا الحصول على دعم الإسبان ضد خصومهم السعديين بدون جدوى ،لأن الحكمة في نظرهم كانت تقتضي ترك المسلمين يقتتلون فيما بينهم ، وهناك تفسير آخر لعدم تدخلهم في الصراع ،وهو أن الإسبان كانوا فيما يبدو يخططون للتحالف مع السعديين ضد خصومهم الأتراك العثمانيين، وهكذا ذهبت جهود آخر الوطاسيين أبي حسون في الحصول على دعم الإسبان، بعد أن لجأ إليهم في أعقاب سقوط ملك الوطاسيين أدراج الرياح.

أما العلاقات بين الإسبان وأوائل السعديين،فكان يطبعها السلم الحذر، و لم ترق إلى التحالف والتعاون إلا عندما شعر السعديون بالتهديد العثماني، وخاصة في عهد محمد الشيخ السعدي الذي كان يناصب الأتراك العثمانيين العداء، واتّضح ذلك التقارب جليا بعد الحملة الجزائرية على المغرب سنتي (960هـ/1553م /961هـ/ 1554م)؛والتي أشعرتهما بضرورة التنسيق و التعاون ضد عدوهما المشترك "الأتراك".

---

(1) نفسه ، ص 163.

(2) نفسه ، ص121 .

(3) مجهول : المصدر السابق ،ص 40.

2- علاقات المغرب الأقصى مع البرتغال خلال العقود السابقة للمعركة :

أ- العلاقات في عهد الوطاسيين 1554/1471 م):

*- حالة الأهالي في الثغور المحتلة.

*- المهادنة والاتفاقيات.

إن الحديث مجددا عن الاحتلال البرتغالي للثغور المغربية في عهد الوطاسيين والذي طبع العلاقات بين البلدين، قد أخذ نصيبه من التحليل في المباحث السابقة، وأركز هنا عن السمات التي اتصفت بها العلاقات البرتغالية الوطاسية في الثلث الأخير من القرن9هـ/15م، وبداية القرن 10هـ/ 16م فما هي الخطوط العريضة لهذه العلاقات ؟

أولا – حالة الأهالي في الثغور المحتلة :

شهدت العلاقات البرتغالية المغربية فترة عراك وصدام ، كما عرفت حقبة خضوع واستسلام، حيث تشير المصادر التّاريخية أنّ مدينتي آزمور وأسفي قد سقطتا بيد القوات البرتغالية منذ أن تولّى الملك البرتغالي ضون "جوان الثّاني" الحكم عام885هـ/ 1481م، والمتمعن في الرسائل التي بعث بها الأهالي لملوك البرتغال ،تبين مدى الاستكانة والخضوع التي صار عليها المغرب[1] ،ومنها رسالة أهالي آزمور إلى هذا الأخير عام 891هـ/ 1486م، والتي أعربوا فيها عن طاعتهم وخضوعهم لحمايته ، وأكّدوا له استعدادهم لدفع الجزية السّنوية المقررة والمقدرة بعشرة آلاف (شايل) ،كما أخبروه بأنهم لن يأخذوا من المراكب البرتغاليّة أية ضريبة ، وكذا تجار البرتغال الذين سيتاجرون معهم ، و لإظهار حسن نواياهم حملوا الأعلام البرتغالية ، ورفعوها فوق بلادهم، وتمنوا على الملك البرتغالي أن يسعى أيضا لضمان أمنهم ،و سلامة مراكبهم عند غيره من ملوك النصارى[2].

وبعث الملك البرتغالي ضون (جوان الثّاني) رسالة إلى أهل آسفي[3] عام 893هـ/ 1488م ؛ يؤكد فيها رضاه عنهم ، ويطلب منهم رفع الأعلام البرتغاليّة ، وتأدية يمين الطّاعة على أن يرسلوا له كل شهر ثلاثمائة مثقال ذهب أو قيمتها ، مع إقامة دار التّجارة في المدينة ، تكون مقرا لإقامة

---

(1) فالح حنظل : **العرب والبرتغال في التاريخ** ، ط1، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي 1997 ، ص109.

(2) نفسه .

(3) عبد الكريم كريم : المرجع السابق ، ص15.

التّجار البرتغاليين واستقرارهم بها ، وختم الملك البرتغالي رسالته مخبرا أهالي آسفي بأنّه قد أمر البرتغاليين بألا يؤذوهم ، وأنّ من خالف منهم ذلك يتعرض للعقاب[1]. ومن المعلوم عند الدارسين لهذه الفترة، أنّ الهدف البرتغالي كان هو الوصول إلى فاس العاصمة ، و التوغل داخل البلاد ، لكن المقاومة المغربيّة حالت دون تحقيق هذا الهدف[2].

وفي عهد الملك البرتغالي"عمانويل الأوّل" بعث أهل آسفي[3]رسالة له عام914هـ/ 1509م يشتكون فيها من ظلم عامله وتعسف جنوده . وبعد إطلاع الملك على أحوالهم المضطربة وأنهم متمسكون بطاعته،يخبرونه بمدى القهر الذي يعانون منه بسبب عامل آسفي ، وما يقوم به الجنود البرتغاليون فيها من فوضى وتخريب وظلم ، قد أدّى إلى انعدام وإضعاف التّجارة ، وختموا رسالتهم بطلبهم من الملك البرتغالي ،أن يولي على آسفي عاملا عادلا يستطيع أن يصلح ذات البين بين سكان المدينة ، والقبائل المحيطة بها لتزدهر البلاد من جديد[4] .

كما بعث أهالي ماسة[5]،رسالة إلى الملك البرتغالي(عمانويل الأوّل) سنة915هـ/ 1510م[6] يخبرونه بالسّرور الذي اعتراهم عندما علموا أن الملك البرتغالي سيقيم ببلدهم حامية برتغالية ،ويذكّرونه بتفانيهم في طاعته ويشكرونه على الأمن الذي شعروا به في ظله ببلادهم ، ثمّ يوجهون انتباهه إلى أنّ سفنهم التّجارية تتعرض للنهب في البحر،ممّا جعل جيرانهم يسخرون منهم؛ مع أنهم في حماية التّاج البرتغالي،كما يرجونه النظر في أمرهم ،وأن يردّ عليهم حقوقهم التي نهبت منهم ، وأن يأمر البرتغاليين بعدم إذا يتهم[7].

ويتضح من خلال هذه الرسائل من وإلى البرتغال، طبيعة العلاقة التي كانت تربط بعض الثغور المحتلة مع البرتغال، وهي علاقة خضوع واحتلال، وهيمنة وظلم ، تعكس الظّروف السّياسية

---

(1) نفسه، ص 15.

(2) عبد القادر العافية : **الاحتلال البرتغالي ومعركة وادي المخازن** ، في م د ح ،المغرب أوت 1978م ،عدد 8 ، ص103.

(3) عبد الكريم كريم : المرجع السابق ، ص 15 .

(4) للإطلاع على رسالة أهل آسفي أنظر فالح حنظل : المرجع السابق ، ص ص 286- 293 .

(5) تتألف من ثلاث مدن صغرى ، تقع على مسافة ميلين من ساحل المحيط ، بها غابات كثيرة من النخيل ، تشتهر بالفلاحة وببيع العنبر الجيد . للمزيد أنظر الوزان : المصدر السابق ، ج2، ص 126.

(6) فالح حنظل: المرجع السابق، ص 295 .

(7) للإطلاع على ما جاء في رسالة أهل ماسة بتاريخ 28ربيع الأول 916هـ/ 1510م، أنظر فالح حنظل : المرجع السابق، ص ص295- 296 .

المتردية، والأحوال الاقتصادية المتدهورة التي كان المغرب يعيشها في عمومه ، وبخاصة في عهد الملك البرتغالي "عمانويل الأوّل"حيث زاد الظلم والتعسف والهيمنة.

ثانيا– الهدنات والاتفاقيات:

من البدايات الأولى لحكم الوطاسيين ؛الذين ورثوا ميراث المغرب الضعيف ،والذي تتربص به القوة الإيبيرية ،سعوا إلى مهادنة البرتغاليين و الإسبان على حد سواء ،آملين أن ينقذوا ما تبقى من مدن المغرب أو على الأقل التخفيف من الخسائر؛ التي منيوا بها من جراء هذا الغزو، والمحافظة على سلطانهم في فاس.

ففي سنة 875هـــ/1471م بعث محمد الشيخ الو طاسي أخاه محمد الملقب (بالحلو) سفيرا عنه للبرتغاليين ،حيث تم إبرام هدنة طويلة المدى بين محمد الشيخ الو طاسي و"الفونصو الخامس"(1) ملك البرتغال في أواسط ربيع الأول 875م /أوت 1471م، وقد أفادت هذه الهدنة كلا الطرفين وأعطت لكل منها مهلة لتحقيق أغراضه(2).

ولما ظهرالخطرالسعدي في الجنوب، وبدأ يهدد ملك الوطاسيين ، توجه مرة أخرى الوطاسيون نحو البرتغاليين المحتلين للثغور المغربية إلى عقد هدنة، عام 932هـــ/ 1526م وهذا للتفرغ لخصومة أعدائهم السعديين ؛الذين يرفعون نداء الجهاد ضد النصارى، وهم يجدون في هذه الدعوة إحراجا لهم ،بتخليهم عن فكرة الجهاد، نظرا للضعف الذي يعانون منه(3).

وفي عام 944هـــ/1538م أبرم الوطاسيون مع حاكم أصيلا كوتينهو(coutinho) المفوض من الملك البرتغالي "جوان الثالث" لعقد اتفاقية لمدة أحدى عشر سنة في البر والبحر بالبنود السبعة الآتية لتدخل الاتفاقية حيز التنفيذ يوم 24جويلية 1538م /27صفر 945هـــ نذكر منها :

– على المغاربة التابعين لملك فاس المقيمين في الأراضي المنبسطة حول المواقع البرتغالية، أن يؤدّوا أتاوة سنوية تتضمن عشرة خيول إلى ملك البرتغال.

– مصادرة القطعان التي تدخل إلى المواقع البرتغالية.

– حرية التجارة بين المسيحيين والمسلمين باستثناء الأسلحة(4) .

---

(1) ملك البرتغال الملقب بالإفريقي لأجل غزوه لإفريقيا ، الحادي عشر في سلسلة ملوك البرتغال والثالث في أسرة دافيز ، ابن الملك إدوارد ، توفي في 24أوت 1481م أنظر عنه شجرة ملوك البرتغال في الملحق العاشر.

(2) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج7 ، ص 245.

(3) نفسه ،ص 250.

(4) نفسه ، ص 255.

في هذه الظروف السياسية المتردية، وفي ظل حكم الوطاسيين المهادنين للعدو،بات المغاربة يتطلعون لمن ينقذهم من الغزو الأجنبي، ويحرر ثغورهم المحتلة.

ب– علاقات السعديين مع البرتغاليين1509م/1578م:

أحدث الاحتلال الإيبيري للسواحل المغربية ردّة فعل قوية في الداخل، إذ ظهرت حركات تدعو لحمل السلاح والجهاد ضد المحتلين في الجنوب، بقيادة أبو "عبد الله محمد القائم بأمر الله" (915هـ–923هـ/ 1510م–1517م)؛ الذي بنى الأسس الأولى للدعوة السعدية، ومن أعماله ضد البرتغاليين، استيلاؤه على حصن "فونتي"سنة(917هـ/1511م).فكيف كانت العلاقات مع البرتغاليين مع أوائل الحكام السعديين ؟.

– العلاقات في عهد محمد الأعرج923هـ–946هـ/1517م–1540م:

ظل اهتمام السعديين في عهد احمد الأعرج[1] منصبا بدرجة كبيرة على مواصلة الجهاد ضد الوجود الأجنبي ،واستطاع أن يحرر آسفي بعد أن حاصرها مرات عديدة، ليتم فتحها بعد دخول السعديين لمراكش سنة 936هـ/ 1530م ،كما استغل أحمد الأعرج الهدنة التي وقعها مع البرتغاليين سنة 544هـ/1537م لمدة ثلاث سنوات، استطاع خلالها أن يبسط نفوذه على الكثير من المناطق في الجنوب كأعالي درعة، لكن الخلاف الذي وقع بينه وبين أخيه محمد الشيخ دفع بهذا الأخير أن ينقلب عليه سنة951هـ/ 1544م[2].

–العلاقات في عهد محمد الشيخ المهدي 946هـ–964هـ/1540م–1557م:

كانت علاقة محمد الشيخ[3] بالبرتغال ذات طابع عنيف في البداية، وسلمي في نهاية عهده،حين وجد نفسه مهددا من حكام الجزائر، أما مقاومة الاحتلال البرتغالي فقد كان الفضل فيها للزاوية الجزولية، في مساندته لطرد البرتغال نهائيا من أغادير، واسترجاع أزمور وأصيلا والقصر الصغير بعدما انجلى عليها البرتغاليون طواعية، ومن أقوال محمد الشيخ المأثورة: «... ينبغي للملك أن

(1) ولد أبو العباس الأعرج سنة 891هـ(1486)م ، وبويع وليا للعهد سنة 918هـ وكان أول عمل بادر إليه هو تعبئة المغاربة ضد النصارى توفي يوم الخميس 24محرم عام 964هـ/1557م أنظر عنه أحمد بن القاضي : **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد** ، تحقيق محمد حجي ، ط1، (موسوعة أعلام المغرب)،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان1996، ج2، ص 897.

(2) دييقو دي طوريس : المصدر السابق ، ص 79.

(3) ولد محمد الشيخ المهدي قبل نهاية القرن العاشر الهجري ببضع سنوات ،تلقى تعليمه بسوس ثم بفاس ،كان له ثلاث أولاد تعاقبوا على الحكم، وهم عبد الله الغالب وعبد الملك وأحمد المنصور تولى الحكم ما بين1540م/1557م ،قتل سنة 1557م بتدبير من العثمانيين. للمزيد من الإطلاع أكثر، أنظرعنه إبراهيم حركات: **السياسة والمجتمع في العصر السعدي** ، ص51.

يكون طويل الأمل، لأن الرعية تصلح بطول الأمل.... »[1].وبعدما استحكم العداء بينه وبين الأتراك في الجزائر عمد السلطان العثماني لتدبير عملية اغتياله في سنة964هـ /1557م[2].

-العلاقات في عهد أبو محمد عبد الله الغالب964هـ-982هـ/ 1557م- 1574م:

كان السلم يغلب على علاقاته مع البرتغاليين ،إذا استثنينا حملته على مازاكان (البريجة)وحصاره لها بواسطة ابنه محمد المتوكل، وقائده "علي بن ودة" في ربيع سنة 969هـ/1562م [3] .

-العلاقات في عهد أبو عبد الله المتوكل982هـ-986هـ/1574م-1578م:

لم يستطع أبو "عبد الله المتوكل" أن ينعم بالحكم طويلا، إذ صادفته معارضة شديدة من عميه عبد الملك وأحمد المنصور؛ اللذان يعتبران أن الحكم يعود لأكبر السعديين سنا ،وأن المتوكل لا يحق له ذلك ،رغم أن بيعته من أهل فاس وأعيان المغرب كانت صحيحة.وبالنسبة لعلاقاته مع البرتغال فكانت قد وطدتها أحداث الصراع على الحكم بين العمّين وابن أخيهما، ليستنجد المتوكل بالبرتغاليين في صيف 986هـ/1578م لتكون نهايته في معركة وادي المخازن بالقصر الكبير[4].

-العلاقات في عهد أبو مروان عبد الملك السعدي 983هـ-986هـ/1575م- 1578م:

لم يطمئن ملك البرتغال سيبستيان إلى تزايد القوة البحرية لعبد الملك، وقد رحب بعرض محمد المتوكل الذي جاءه في شوال 985هـ /ديسمبر1577م ،يطلب مساعدته على استرجاع ملكه من عمه عبد الملك[5] ،بالرغم من أنّ هذا الأخير راسل الملك البرتغالي ووعده بأن يتخلى له عن بعض الأراضي الزراعية لكن دون جدوى ، لتكون بينهما معركة فاصلة سنة 1578م ،وهي معركة وادي المخازن؛ والتي نحن بصدد ذكر تفاصيلها في الفصل الثاني.[6]

(1) عبد الرحمان القباج : **معركة وادي المخازن 986هـ/1578م** ، في مجلة الإحياء ، تصدرها رابطة علماء المغرب، المغرب 1981، عدد 1، ص 240.

(2) المجهول : المصدر السابق ، ص 32 .

(3) نفسه ، ص 42 .

(4) مصطفى بن حسن الهاشمي الجنابي: **البحر الزخار والعلم الطيار** ، ترجمه إلى الفرنسية(Fagnan)، ونشره تحت عنوان Extraits inédits relatifs au Maghreb,Alger 1924 ,p 253.

(5)كتب عنه المؤرخ الإسباني خوان باوتيستا (Bawtista) :«... كان رجلا واسعة الثقافة متمكن من عدد من اللغات الأوروبية ، متمرسا في الشؤون العسكرية والسياسية... » أنظر عنه : عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج8، ص48.

(6) أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني: **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، ترجمه للفرنسية، mougin et Humberger ونشره Roger le Tourneau في مجلة الغرب الإسلامي والمتوسط ، آن بروفانس، عدد 23 ، 1977، ص 77 .

3 ــ علاقات المغرب مع فرنسا خلال العقود السابقة للمعركة :

تعود العلاقات بين المغرب وفرنسا إلى أبعد من القرن السادس عشر(1).و لم تكتس العلاقة في هذا العهد بين فرنسا والبلاط المغربي صفة الدبلوماسية على الدوام، فقد تناولت أحيانا تبادل الأسرى أو التجارة أو استخدام بعض الرعايا الفرنسيين كأطباء وفنيين . ففي سنة 1533م أرسل فرنسوا الأول إلى أحمد الوطاسي مبعوثا ذا خبرة عسكرية وسياسية وهو الكولونيل "بيير دوبيطون (Pierre de Piton)، وكان معه شخصية أخرى وهو "إيمون دومولون" الذي سبق وأن زار المغرب ، وبعد أن رست الباخرة بالعرايش ، اتصل المبعوث في ضواحي المدينة بأحمد الوطاسي الذي استقبله استقبالا حسنا ،وقدم المبعوث بعض الهدايا التي حملها إلى السلطان ،والتي لم تحظ برضى الحاشية ،وكان بينها خمس سلال من الفضة وخمس وأربعون مرآة وخمس ساعات مذهبة وعدد من السكاكين والشوكات، ثم التحق المبعوث الفرنسي بالسلطان في فاس ، وحصل منه على بعض الامتيازات كحق جلب الدواب من المغرب والسماح للبواخر الفرنسية بالرسو في شواطئ المغرب والمرور في أمان بمياهه وحمايتها إذا اقتضى الأمر(2).

كما حمّله السلطان بدوره هدايا إلى "فرنسوا الأول" وهي اثنا عشر حصانا و ذئبه وأسد وثلاث نعامات وأربع أرانب ، وأثناء عودة الباخرة الفرنسية أدراجها واجهتها العواصف وجنحت بها نحو شاطئ البرتغال، لكن قائد السفينة الجنوي والذي لم يكن على وفاق مع السفير الفرنسي. اتصل بالسلطات البرتغالية، وأبلغهم أن السفير قد حمل إلى المغاربة عتادا حربيا، فحجز السفير الفرنسي ،ولقي حتفه من طرف البرتغاليين(3).

و في عهد "محمد الشّيخ المهدي"، قدم إلى المغرب سنة950هـــ/1543م مبعوثا عن "فرنسوا الأوّل" يدعى "باكلون جان"(j pacquelon) بغية مفاوضة المهدي وعقد ترتيبات تعاون وتحالف بينهما، على أن يقدم لفرنسا كمّيات من القصدير"Létain" مقابل المواد اللّازمة لصناعة المدافع من نحاس وأيدي فنيّة، وفي سنة 966هـــ/1559م بدأت المفاوضات بين "عبد الله الغالب" وملك "نافار"حول حلف عسكري بين الطرفين،على إثرها طلب "الغالب"(4) .

---

(1) Ahmed H : **relation de la France avec le Maroc** , in, <u>R . A</u> , Alger 1901, vol 45, p 197 -198.

(2) إبراهيم حركات : **المغرب عبر التاريخ** ،ج2، ص 213 .

(3) نفسه .

(4) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج8 ، ص 163.

من"أنطوان دوبوربون"(Antoine de Bourbon)[1]بأن يجعل تحت تصرفه خمسمائة جندي مسلحين بالبنادق، مقابل أن يسلم له "القصر الصّغير" – وهو مرسى صغير بين طنجة وسبته أخلاه البرتغاليون سنة 957هـــ/1550م .

لم تقتصر بنود الحلف المقترح على هذه الشّروط فقط ،بل تضمنت السّماح للبواخر الفرنسية بالرسو في الموانئ المغربية ،مقابل السّماح للسفن المغربية بالرسو في الموانئ الفرنسية، من باب التعامل بالمثل؛ الذي ظلّ مفقودا في العلاقات العربية الأوروبية رغم أنّ المعاهدات تنصّ عليه[2].

وبما أنّ الاتفاقية المبرمة تنصّ على تسليم ميناء "القصر الصغير" للفرنسيين، إلاّ أنّ هذا لم يحصل في الواقع ، على الرغم من أنّ الأمير الفرنسي"أنطوان دوبوربون" زوّد السّلطان المغربي ببعض الفنيين والخبراء ، ربمّا يعود ذلك إلى تخوف السلطان عبد الله الغالب، من ردّ فعل الجانب الاسباني، وهو الحريص على عدم توتير العلاقات بينهما لأولوية صد الخطر العثماني.

في سنة 968هـــ/1561م بعث الملك شارل التّاسع ،مبعوثا يدعى" روبير بوردو"(Robert Brodet) الذي كان تاجرا ، من أجل الاتفاق والتفاهم مع السلطان عبد الله الغالب في شأن احتكار فرنسا لتصدير النّحاس والسّكر المغربي، إلا أنّ الحروب الدّينية التي اندلعت في أوروبا ، والصّدام والتنازع على وراثة العروش في الممالك الأوروبية، وظهور المذهب البروتستانتي المعارض للكنيسة الكاثوليكية بزعامة القس "مارتن لوثر" كان له أبلغ الأثر على علاقات أوروبا فيما بينها، وقد أدّت هذه الظروف ،إلى توقيف المفاوضات الفرنسية المغربية، وفي الوقت نفسه أبدت الكثير من الممالك الأوربية، رغبتها في نسج علاقات سياسية، واقتصادية ، مع المغرب الأقصى[3].

ويمكن القول:

أن فرنسا مع القرن السادس عشر،لم تكن لها علاقات متميزة مع الأشراف السعديين،نظرا لأوضاعها الداخلية المتمثلة في الحروب الدينية؛ التي بدأ دورها الثاني من سنة 1572م إلى 1593م؛ والتي انتصر فيها الهجونوت[4].

---

(1) أنطوان دوبورمون " Antoine de Bourbon" ، أحد أفراد الأسرة الحاكمة في فرنسا ، اعتنق المذهب البروتستانتي المعادي للكاثوليك. أنظر : Auguste savagne : **les Bourbon Histoire de la Maison bourbon**,Paris1845,p443.

(2) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ص164.

(3) نفسه ، ص163.

(4) هم بروتستانت فرنسا حاولوا سنة 1560م اختطاف الملك الفرنسي فرنسوا الأول، إلا أن مؤامرتهم على الملك في قصر أمبواز فشلت للإطلاع أكثر أنظر : عبد الفتاح حسن بوعلية وإسماعيل ياغي: المرجع السابق ، ص 187.

4- علاقات المغرب الأقصى مع دول أخرى قبل معركة وادي المخازن:

ارتبط المغرب الأقصى بعلاقات متشعبة مع جيرانه، سواء كانت سياسية، أو تجارية يتخللها التفاهم والتعاون ،طورا والتوتر والخلاف أطورا أخرى، ومن بين الدول التي تشارك المغرب في علاقاته المختلفة نذكر:

أ- علاقات المغرب في عهد الأشراف السعديين مع أتراك الجزائر:

تبدأ العلاقات بين السّعديين و أتراك الجزائر من العقد الرّابع من القرن العاشر الهجري / العقد الخامس من القرن السّادس عشر الميلادي، أي إلى عهد خلفاء "عروج" و "محمد القائم بأمر الله"[1]،حيث كان لأحمد الأعرج ابن محمد القائم اتصالات مع الأتراك العثمانيين الذي سيطروا على شمال إفريقيا برمته ، ووجدوا أن الجناح الغربي من المغرب الإسلامي خارج دائرتهم وسيطرتهم، فسعوا جادين مستعملين كل السبل من أجل ضمّه، بدعوى توحيد القوى الإسلامية بشمال إفريقيا، ضدّ الأخطار الأيبيرية، الأمر الذي عجّل باصطدام قواهما لأسباب عديدة أهمها:

1 – موقف السّعديين من مسألة الخلافة العثمانية :

شغلت مسألة الخلافة ومن هو الأحق بها بال السلاطين السعديين ، بعدما تغلبوا عن منافسيهم في البلاد ووحّدوا المغرب ، فتطلعوا إلى منافسة جيرانهم العثمانيين في الجزائر التي أصبحت ولاية عثمانية منذ 925هـ/1519م فكان للسلاطين السعديين موقفا من مسألة الاعتراف بأحقية بني عثمان بحمل لقب خليفة المسلمين، وقد ظهر الموقف جليا خاصة في فترة حكم محمد الشيخ السعدي946هـ/1539م، الذي تحدّى الأتراك ورفض الاعتراف بالتبعية للباب العالي[2] ،و إن مسألة الخلافة نظر لها السلاطين السعديون من خلال نسبهم الشريف ، ومن هذا المنطلق اعتبروا بأن سلاطين بني عثمان أعاجم، لا تصح الخلافة فيهم.

2- نظرة العثمانيين لسلاطين المغرب على أنهم مجرد أمراء أو شيوخ:

نظرالسلاطين العثمانيون لحكام المغرب على أنهم مجرد أمراء وشيوخ قبائل، ويستدل على ذلك بالخطاب الذي وجهه السلطان العثماني في أوائل محرم 959هـ/ جانفي1552م يهنئ فيه محمد الشيخ بالملك بعد انتصاره سنة 956هـ/1549م ، وقد سماه في الخطاب بشيخ العرب

---

(1) عمّار بن خروف : المرجع السابق ، ج1 ، ص 89 - 90 .

(2) فهد بن محمد السويكت : **موقف الأشراف السعديين من مسألة الخلافة** ، في مجلة جامعة الملك سعود ، كلية الآداب ، الرياض 2006 ، عدد19 ، ص 177 .

وبنبرة فيها أمر وشدة .مما أغضب السلطان السعدي وأوشك على قتل الرسول ،وهدد بغزو مصر، ونعت السلطان العثماني بسلطان القوارب والحواتة(1).ولما وصل مبعوث السلطان سليمان إلى إسطنبول وتلقى الخبر فكر هذا الأخير في غزو المغرب، تأديبا لسلطانه إلا أنه عدل عن الأمر(2).

3- غزو السعديين للجزائر وعدم اعترافهم بالسيادة العثمانية:

كان الملوك السعديون وخاصة في عهد محمد الشيخ وابنه عبدا لله الغالب، يرفضون كل تبعية أو خضوع للدولة العثمانية، وقد اشتبكوا معهم في كثير من المرات في الجزائرحيث نذكر منها: اصطدامهم في الغرب الجزائري في خريف 957هـ/1550م، وتدخلهم الأول في تلمسان في سنة 957هـ-958هـ/1550م-1551وحملتهم الثانية على تلمسان كذلك في سنة 962هـ/964هـ/1555م-1557م ،وتدخلهم الثالث على هذه المدينة في 967هـ/1560م وغيرها من التدخلات العسكرية، ليتضح أن السعديين كانوا يقفون رافضين لكل عملية ضم محتملة(3).

4-اغتيال محمد الشيخ964هـ/ 1557م :

لم يعترف "محمد الشّيخ" (4) بخلافة العثمانيين، وكان مناوئا لهم طيلة حكمه، ،وقد فكّر الخليفة العثماني(5)في قتله بعد ما بلغه موقف محمد الشّيخ "المهدي" منه ، وكانت الفكرة نفسها عند "حسن بن خير الدّين" حاكم الجزائر، فبعث أحد ضبّاطه "صالح الكاهية "(6) الذي قدّم نفسه للمهدي على أنّه فار من الجيش التّركي، والتحقت به العصابة التي بعثها الباب العالي، فما كان من المهدي إلاّ أنّ ألحقهم بحاشيته، بالرغم من حيطته وذكائه. وقد توجه المهدي إلى "تارودانت" وتوقف "بأكلكال" ،هاجمته المجموعة عن حين غرّة وحزّوا رأسه وحملوه إلى القسطنطينية.

---

(1) محمد الصغير بن الحاج الأفراني: **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي** ، تحقيق هوداس، باريس 1889م ، ص79.

(2) عزيز سامح إلتر: **الأتراك في شمال إفريقيا**،تعريب محمود علي عامر، ط1،دار النهضة العربية،بيروت1989،ص177.

(3) عمار بن خروف : المرجع السابق، ص ص 141-161-178.

(4) قتل يوم الأربعاء السادس والعشرين من محرم 1557م، وفي يوم الخميس بعده توفي أخوه أبو العباس احمد الأعرج أنظر أحمد بن القاضي : **لقط الفرائد** ، ص 897.

(5) إبراهيم حركات : **السياسة و المجتمع في العصر السعدي** ، ص 56 .

(6) لفظ تركي معناه رب الدار، ويطلق أيضا على المعاون الأوّل لأغا الإنكشارية ، أنظر مصطفى عبد الكريم : **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية** ، ط1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1996 ، ص363 .

وظلت العلاقات بعد هدوء المعارك مشوبة بالحذر والتوتر، لأن الجزائر أوت العديد من الأمراء السعديين قبل أن تقدم على دعم عبد الملك وأخيه أحمد بحملة أوصلتهم إلى الملك في المغرب سنة984هـ/ 1576م أي قبيل معركة وادي المخازن.

ب- علاقات المغرب في عهد الأشراف السعديين مع إنجلترا :

كانت علاقات المغرب مع المملكة الإنجليزية قديمة تعود إلى العهد الموحدي، ولكن لم تتبلور وتتضح إلا في العهد السعدي، عندما علم الإنجليز بالأرباح التي يحققها الإسبان والبرتغاليون من المتاجرة مع الثغور المغربية[1].

قامت أول رحلة إنجليزية معروفة إلى المغرب عام 958هـ/1551م بقيادة "توماس ويندام"، ووصلت إلى ميناء آسفي محملة بالأقمشة والمرجان والكهرمان[2] بنوعيه الأصفر والأسود، وفي المقابل حملت معها بضائع من السكر والبلح(التمر) واللوز[3] .

كانت بداية العلاقات بين البلدين ناجحة، وذات عائدات وفيرة، فالسلاطين المغاربة عرفوا أنهم بإمكانهم الحصول على السلاح، والذخيرة،والأقمشة الإنجليزية[4] .

- احتجاجات برتغالية على التجارة مع المغرب:

نظر البرتغاليون بغضب لمّا رأوا الإنجليز يوطّدون علاقاتهم التجارية مع المغرب، مدعين ما فعله التجار الإنجليز من تقديم الأسلحة إلى المغرب، و الذي مكن السعديين من استعادة أكادير عام948هـ/ 1541م، وغيرها من المستعمرات البرتغالية، وبذل السفراء البرتغاليون و لفترة طويلة(1562م-1576م) ضغطا على الملكة "إليزابيث"[5] لوقف وحظر هذه التجارة، لكن الملكة رفضت ذلك .

---

(1) روجرز ،ف،ج : **تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900** ، تعريب يونان لبيب رزق ، ط1 ، دار الثقافة ، دار البيضاء ، المغرب 1981 ، ص 39.

(2) عبارة عن مادة صمغية تفرزها فروع شجرة الصنوبر ، موطنه بحر البلطيق ، ويعتبر مادة نفيسة وذات قيمة ، يستخدمه الملوك في ترصيع التيجان والمجوهرات، أنظر موقع ويكيبيديا ، الموسوعة الحرة يوم 30-06-2010م على الساعة 11:00.

(3) روجرز ،ف،ج : المرجع السابق ، ص 39.

(4) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ص 189.

(5) إليزابيث الأولى ملكة انجلترا تولت العرش سنة 1558م وحكمت بلادها لخمس وأربعين سنة كان من أهم ما حدث خلالها ظهور بريطانيا كقوة بحرية تنافس الإسبان والبرتغاليين. أنظر **La vie Délizabeth Reine d àngleterre** , T1 ,traduit de l’anglois de robert Nauton,p 39.

– تجارة السلاح:

كان اتهام البرتغاليين للإنجليز بإمداد المغاربة بالسلاح والذخائر مبني على أدلة دامغة، فقد حدث عام 984هـ/1576م أن قام إنجليزي يدعى "جون وليامز" ببيع كميات كبيرة من قنابل المدافع، لعبد الملك السعدي مقابل كميات من نترات البوتاسيوم ؛التي كان المغاربة في الماضي يمنعون تصديرها.

كان "عبد الملك" السعدي في أمس الحاجة لهذه القنابل؛ لأنه اشتبك في الكثير من المواقع مع ابن أخيه "محمد المتوكل" أثناء صراعهما على العرش(1).

وفي985هـ/ جويلية 1577م أرسلت الملكة سفيرها "إدموند هوكان" (E- Hogan) إلى المغرب وقد استقبلت البعثة الدبلوماسية من طرف "عبد الملك السعدي" حيث طلبت الملكة الإنجليزية منه امتيازات تجارية، وتم تقديم شكوى ضد تصرفات التجار اليهود؛ الذين أساؤوا معاملة التجار الإنجليز(2).

وممّا تقدم يمكن القول :

إن أوضاع المغرب قبل معركة وادي المخازن ، ومع مطلع القرن السادس عشر ، اتسمت بالضعف والتفكك، نظرا لما تعانيه الإمارة الوطاسية ،التي فقدت كل سبل القوة، وتركت المغرب عرضة للانقسامات السياسية، ولقمة سائغة للغزو الإيبيري؛ الذي احتل شواطئه ويسعى ليتسرب إلى دواخله، فبات المغرب يتطلع لقيادة جديدة، تتسلم مقاليد الحكم وتنقده من هذا السقوط المتسارع.وبالنسبة لإسبانيا فقد توحدت وكونت دولة قوية حديثة، وتطلعت أن تتوسع على حساب المسلمين جنوب البحر الأبيض المتوسط،.أما البرتغال فاستطاعت أن تبني لنفسها أسطولا عسكريا قويا، أبحرت به لتكتشف العديد من الأراضي، وتسيطر على طرق التجارة، وتنشئ مراكز تجارية، وتدخل للقرن السادس عشر كدولة استعمارية كبيرة.أما فرنسا فبالرغم من الحروب الدينية التي مزقتها؛ إلاّ أنها ظلت تتطلع إلى التنافس مع إسبانيا حول السيطرة على أوروبا المسيحية، لكن الضغط الإسباني والهزائم التي تجرعتها في صراعها المحموم مع إسبانيا ،دفعت بها أن تتحالف مع العثمانيين، وترتبط معهم بمعاهدة سلم وسلام وامتيازات . فإذا كانت تلكم هي الأوضاع والعلاقات بين تلكم الدول في المنطقة، فما هي الأسباب التي أدت إلى موقعة وادي المخازن؟

---

(1) روجرز ،ف،ج :المرجع السابق ، ص 42.

(2) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ص 190.

الفصل الثاني

معركةُ وادي المخازن 986هـ /1578م

الأسباب ـ المجريات ـ النتائج.

المبحث الأول :

– الأسباب.

المبحث الثاني :

– المُجريات.

المبحث الثالث :

– النتائج.

المبحث الأول:

الأسباب:

لم تكن معركة وادي المخازن أو الملوك الثلاثة ،حدث قد حصل بمحض الصدفة، وإنما كانت وراءه أسباب بعيدة مهدت له، وصنعت الظروف الملائمة لتدفع بالبرتغال أن تشن هذه الحملة على المغرب في الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وسبب مباشر وجدت فيه البرتغال الذريعة لبدء حملتها،ويمكن إجمال هذه الأسباب في النقاط التالية:

*- انهزام العثمانيين في ليبانتو979هــ/1571م.

*- افتتان السعديين على الملك.

*- الضّائقة الاقتصادية للبرتغال.

*- فقدان البرتغال لبعض مستعمراتها في عهد الملك "يوحنا الثالث" 1521م/1557م.

*- طموحات الضون سيبستيان وتحرشاته بالمغرب قبل معركة وادي المخازن 1578م.

*- التقارب الإنجليزي مع عبد الملك السعدي.

*- التفاهم السري على الحملة بين فيليب الثاني وسيبستيان.

*- استنجاد محمد المتوكل بالبرتغاليين.

أ- انهزام العثمانيين في ليبانتو979هــ/1571م :

كانت معركة ليبانتو إحدى المعارك التي استطاعت فيها القوات الأوروبية، والرابطة المقدسة مجتمعتين تحت لواء "جوان" النمساوي في فجر السّابع من أكتوبر سنة979هــ/1571م من إلحاق هزيمة كبيرة بالأسطول العثماني[1] ،الذي كان تحت إمرة "علي باشا".

وقد أكسب هذا الانتصار الكاسح الأوروبيين المتحالفين ثقة بالنفس ، وقوّة في العزيمة فأخذوا يتطلعون إلى تحقيق انتصارات أخرى، عملا بقاعدتهم التي تنصّ على«... أن ما استأثر به الصّليب

(1) كانت المعركة بالقرب من "ليبنته"،واشتبكت فيها قوات العثمانيين مع الأساطيل المسيحية مدة ثلاث ساعات، انتهت المعركة بانتصار المسيحيين فغنموا 130سفينة عثمانية ،وأحرقت وأغرقت 94 ،وغنموا 300 مدفعا ،وأسروا 30ألف ، وكان لهذا النصر فرحة عارمة في كامل أوروبا . للمزيد من الإطلاع أنظر : محمد فريد بك المحامي: **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، ط3، مكتبة الآداب ، القاهرة ، مصر 2009، ص111.

واغتصبه من الهلال لا يردّ ،وإن كل ما حازه الهلال أو ضمه إليه وأخذ منها تتحتم إعادته ... » وهو ما أسموه بسياسة الاسترداد(Reconquista).[1]

وقد احتذى البرتغاليون بنظرائهم الأوربيين بما حققوه من نصر على الأتراك العثمانيين في "ليبانتو"، مولّين أنظارهم شطر المغرب لتحقيق أطماعهم في المغرب الأقصى وإفريقيا.

ب – افتتان السعديين على الملك :

لم يستطع المتوكل أن ينعم بحياة الملك ؛ فقد اتّحد ضده خصمان عنيدان ؛ هما : عمّاه عبد الملك وأحمد ، حيث لم يمكث في الحكم إلاّ عاما و تسعة أشهر ، فقد غضب عمّاه، وتوجها إلى السّلطان العثماني بالقسطنطينية ، يطلب منه عبد الملك أن يمدّه بقوة من الجيش حتيّ يأخذ بها ملك أبيه، الذي أخذه ابن أخيه محمد المتوكل بوصفه الأكبر سنا منه[2]كما تقضي العادة في البلاط السّعدي . وقد اتصل عبد الملك السعدي بالسلطان العثماني بعد أن بشرته مسعودة الوزكيتية[3] بانتصار حلق الواد ؛ فاستبشر السلطان بذلك،وطلب منهما أن يتصلا بحاكم الجزائر لتحقيق مرادهما بعدما حسم الصراع على تونس لصالح العثمانيين ، فزودهما حاكم الجزائر بقوة عسكرية، قدرت بخمسة آلاف من الأتراك، وألف من الزواويين، وثمانمائة من الصبايحية ،وستة آلاف فارس، واثنا عشر مدفع[4].على أن يتكفل الأميران المغربيان بدفع تكاليف الحملة للأتراك بعد انتصارهما والمقدرة 500000 مثقال ذهبي ، و10000 مثقال ذهبي عن كلّ يوم تستغرقه هذه الحملة [5].

كانت قوات محمد المتوكل تناهز الثلاثين ألف فارس مغربي ومثلها من المشاة ؛ منهم ثلاثة آلاف من حملة البنادق النارية العلوج والأندلسيين، وعدد كبير من المدافع، في حين كان الأندلسيون يكاتبون المولى عبد الملك سرّا ؛ لكرههم لعبد الله الغالب وابنه المتوكل ؛ بسبب خذلانهما أهل الأندلس ، فأضمروا له العداوة والبغضاء[6]. و من هذه المواجهات نذكر :

---

(1) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : **تاريخ الجزائر العام** ، ط8، دار الأمة ، الجزائر 2007، ج3، ص 98.

(2) عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي: **تاريخ السودان** ،طبعه هوداس، المكتبة الأمريكية والشرق ، باريس1981، ص 208.

(3) هي أم المنصور أمازيغية الأصل أنظر عن ذلك إبراهيم حركات : **السياسة والمجتمع في العهد السعدي** ، ص 66.

(4) Fray Diego de Haédo **: Histoire des rois d' Alger**, traduite H ,D Grammont , Alger1881 .p 161.

(5) أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني: المرجع السابق ، ص 353.

(6) علي محمد الصلابي:**الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط** ، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة،2005، ص 236.

– موقعة الركن في 08 ذو الحجة 983هـ/ 9 مارس 1576م :

لمّا وصل عبد الملك رفقة جند الترك إلى الموضع المعروف "بالركن" من أحوازِ فاس خرج إليه ابن أخيه محمد المتوكل للقائه، فالتقى الجمعان واشتدّ القتال ، وإذ بقائد جند الأندلس "سعيد الرغالي" ينعطف بجيشه ملتحقا بجيش عبد الملك ، وفي خضمّ المعركة علم المتوكل بأنّ القائد "جرمون" "وأولاد عمران" تخلوا عنه، فجزع المتوكل وانهزم جمعه ، وتفرقت محلته ، وتوجه فارا صوب فاس حيث التحق به القائد "ابن شقراء الذي أشيع عنه أنّه انضمّ بقواته إلى عبد الملك ، وقد لامه في تصديق الإشاعة والفرار من المعركة[1] .

– موقعة خندق الريحان في ربيع الثاني 984هـ/ جويلية 1576م :

فرّ مولاي "محمد" إلى مراكش ، فجنّد جنودا من أهلها ، و أرسل إلى أهل سوس وأعطاهم الأموال الكثيرة ، ثم خرج بهم إلى ملاقاة عمّه مولاي عبد الملك ؛ حيث التقى الفريقان في "وادي الريحان" و يسمى اليوم "وادي شراط" فاقتتل قتالا عنيفا ، ودارت دائرة الحرب على مولاي محمد؛ وانهزم و أهل مراكش تاركين عتادهم وعدّتهم ، وكثيرا من الغنائم ، وتوجهوا إلى "جبل سوس" حيث واصل جيش مولاي عبد الملك ملاحقة فلوله[2].

– موقعة تنــزرت سنة 984هـ/ 1576م :

كلّف المولى عبد الملك أخاه أحمد بمطاردة ابن أخيه محمد المتوكل وتعقب أثره ؛ فأشتبك معه في عدّة مواقع منها موقعة "تنزرت"[3]، حيث كان النصر فيها لأحمد المنصور رغم قلّة عدده وعدّته؛ إذ قدرت قواته بما يناهز ألفا وثلاثمائة مقاتل ، بينما بلغت قوات ابن أخيه المتوكل حوالي ستين ألف ، فاشتدّ القتال بين الطرفين إلاّ أن جيش المتوكل لم يستطع الصمود ، وانهزم المتوكل رفقة قائده "ابن ويسعدن" ؛ حيث بلغت خسائره أربعة آلاف قتيل[4] وتلتها هزيمة أخرى للمتوكل في موقعة "أساطس" رغم أنّ أحمد المنصور أبعد مجموعة من جند الترك عن جنده، بعدما أحسّ منهم ميلا للانضمام إلى جيش المتوكل.

---

(1) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : المرجع السابق ، ج5 ، ص 64 .

(2) المجهول : المصدر السابق ، ص 53 .

(3) مدينة بين فاس وجبال غماره ذكرها الوزان باسم تنصر،للمزيد من الإطلاع أنظر الوزان : المصدر السابق ، ج1، ص308.

(4) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء** ، تحقيق عبد الكريم كريم ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة ، الرباط ، د ت ، ص 32 .

ت- الضّائقة الاقتصادية للبرتغال :

توّج الملك البرتغالي "جان الثالث" حاكما في عام937هـ/ 1531م وكانت الحروب قد استنزفت الكثير من موارد البرتغال البشرية والمالية[1]،نتيجة توسع مستعمراتها في المغرب والخليج العربي ،ممّا جعل خزينة المملكة لا تقدر على تحمل مصاريف المعارك التي تخوضها من أجل السّيطرة على الثغور المحتلّة ، وازدادت الظّروف الاقتصادية سوءا ، وتدهورت أحوال البلاد في ظلّ حكم الملكة "كاترينا" – زوجة "جان الثالث" - التي تولت حكم البرتغال من جويلية 1557م/ إلى ديسمبر 1559م ؛ حيث انتابها القلق على مستقبل المملكة؛ التي لا يتجاوز عدد سكانها مليون ونصف المليون نسمة، أمام الأخطار التي تهددها بسبب مشاكلها الاقتصادية والتهديدات الخارجية.

لم يكن للثّراء السّريع والمفاجئ القادم من البرازيل وآسيا ، وتدفق الذهب والفضة أثرا يذكر على الشعب البرتغالي، نظرا لانتشار التّهاون وانعدام المسؤولية .

مما أدّى إلى إفقار البلاد شيئا فشيئا؛ إذ توقف الفلاحون عن حراثة أراضيهم ، وخسر النبلاء صفات المحاربين ، وضعف الأشداء ، وتلاشوا في متاهات الترف، يتنافسون ويتزاحمون ، وتمّ تسويق الذهب، وتهريبه إلى أسواق إيطاليا وألمانيا .

أمّا على الصّعيد الخارجي فقد أصبحت المراكب البرتغالية غنيمة للقراصنة ؛ يضربونها عند المنابع الأساسية لتجارتها في البرازيل وآسيا ؛ زادها سوءا المخاوف والمشاكل التي تعاظمت ، وظهرت للعيان عندما طرحت مشكلة ولاية العرش بعد الملكة "كاترينا"[2].

وبما أن التوسع التي شهدته البرتغال في الخليج العربي والهند وغيرها ،تسبب لها في مصاريف مالية ضخمة ،بسبب تموينها لحروبها في الشرق، جعل خزينتها عاجزة عن تلبية ذلك.

بالإضافة إلى قلة عدد سكان المملكة، مما أظهر لديها مشكلة تجنيد المقاتلين للقتال في الثغور والمناطق الشاسعة التي سيطرت عليها هذه المملكة.

كما ظهرت المنافسة البريطانية القوية، محاولة الوصول إلى ثروات الشرق من توابل وذهب وعطور وغيرها، والتي كانت تحتكرها دولة البرتغال، حيث سعى الإنجليز لانتزاعها منها، وذلك بالتعاون مع أعدائها من العرب و المسلمين[3].

---

(1) شوقي عطا الله الجمل : المرجع السابق، ص 64 .

(2) يونس نكروف: **معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة** ، تعريب وفاء موسى وحسين حيدر، ط1 ، منشورات عويدات ، بيروت ، ص 26 .

(3) فالح حنظل : المرجع السابق ، ص451.

ث- فقدان البرتغال لبعض مستعمراتها في عهد الملك "يوحنا الثالث" 1521م/1557م :

بعد أن ذاقت البرتغال نشوة الانتصار على المغاربة في ظلّ أوضاعهم السياسية والاقتصادية المزرية ؛ احتلت خلالها معظم شواطئ المغرب في البدايات الأولى لحملات الجيش البرتغالي ، إلاّ أنّها لم تنعم بالراحة والهدوء . وقد أذكت هذه الحملات البرتغالية روح النضال في سائر طبقات الشّعب[1] ، وراح المغاربة يشنون هجمات قويّة على الثغور المحتلّة ؛ ساعدهم في ذلك قيام دولة السّعديين التي ساندت الحركات الجهادية ، وجعلت من أهدافها تحرير المدن كأغادير سنة 948 هـ / 1541م واضطرّ البرتغاليون لإخلاء أَسفي سنة 952 هـ / 1545 م ، ثمّ أصيلا سنة 956 هـ / 1549م ، والقصر الصغير سنة 957 هـ /1550 م ، ولم يبق بيد البرتغال إلاّ طنجة وسبته في الشّمال والجديدة في الجنوب[2].

ورغم هذه الانكسارات والاندحارات المتوالية التي مني بها الجنود البرتغاليون؛ فقد أشاد الرهبان ببطولات الجيش البرتغالي للرفع من معنوياته بحملات دعائية، رغبة في مواصلة التّوسع على حساب المغرب[3].

لكن الأوضاع التي تمر بها البرتغال كانت جد صعبة ،وأصبح من الصعب ،التمسك بالكثير من الثغور لصعوبة حمايتها والتي تعود إلى الأسباب التالية: [4].

- انعزال الثغور التي احتلها البرتغاليون وصعوبة اتصالها مع العاصمة لشبونة .

- لم تكن للبرتغاليين خطة مرسومة في سياستهم تجاه المسلمين ؛الذين كان من الطبيعي أن يستردوا ثغورهم ، خاصة بعد أن تبدلت الحالة الداخلية للمغرب ،ووجدت سلطة قوية تمسك بدفة الأمور وتسعى إلى تصفية الوجود الأجنبي من سواحل المغرب[5].

- لم تكن لهذه المستعمرات البرتغالية في المغرب جهة مسئولة واحدة بيدها القرار، فمثلا عندما حاصر المغاربة سانتا كروز سنة948هـ /1541م بقي القائد (gutare de monroy) مدة

---

(1) شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق ، ص 36.

(2) سعيد أعراب : **موقعة وادي المخازن واندحار الصّليبية بالمغرب** ، في م د ح ،المغرب أوت 1978م ، عدد 8 ، ص 90 .

(3) نفسه .

(4) شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق ، ص 36.

(5) نفسه ، ص 37.

طويلة ينتظر المعونة، ولما أرادت لشبونة مد العون له ،كان الوقت قد فات .هذه الخسائر التي منيت بها البرتغال في هذا الظرف، قد أوجدت أصواتا تنادي بضرورة العودة للمغرب لأنها مسالة دينية .

ج- الضون سيبستيان وتحرشاته بالمغرب قبل معركة وادي المخازن 1578م:

ولد سيبستيان ولي عهد البرتغال ووريث عرش سلالة "أفيز" الحاكمة في العشرين من جانفي 1554م[1] بعد وفاة أبيه الأمير (جان) بثمانية عشر يوما ؛ فرحبت المملكة ، واحتفلت بالحدث بابتهاج وحبور متماثلين وتواصلت الأعياد والأفراح مدّة سبعة أيام متتالية بلشبونة ،كما في سائر أنحاء البرتغال ، وتسابق النبلاء لإظهار السّرور ، وأقيمت الولائم ، وعبّت أقداح النبيذ .وفي خضم الابتهاجات، أَقامت الكنيسة قداديس ونذورا متوجة ذلك بإحراق العشرات من المسيحيين الجدد المتهمين بممارسة الطقوس اليهودية في منازلهم ،بعد أن ضبطت عندهم كتب ومخطوطات تدينهم .

أمّا في القصر الملكي فكانت أجواء الفرح مغلفة بالانطواء والدموع ، حيث لم تكتمل الفرحة إطلاقا ،رغم تماثل الأميرة "جوانا " " joina " – والدة سيبستيان – للشفاء [2] ، لكنها لم تستطع نسيان ذكرى زوجها الراحل – الشاب الأمير جان أمير البرتغال – والد ابنها الذي توفي قبل أيام من ولادة ابنه و ولي عهده وهو في الثامنة والعشرين من العمر . وشاركها أحزانها الملك (جان الثالث) - الملقب بالتّقي - الذي تولى العرش منذ عام 1521م ؛ و إن وجد في حفيده بعض السلوى عن فقد ابنه الأمير جان رغم الوساوس، التي تنتابه بما تردد من نبوءات العرافين حول حفيده .

تقول إحدى النبوءات المشؤومة التي قيلت للملك (ألفونس الخامس) ، والتي تناقلتها الأجيال على كل شفة ولسان ومفادها :

«... أنّ الله كان وعده بضمان نسله ، بحيث لا يفتقد قط على الأرض ، غير أنّ محنا وشدائد سوف تحلّ بمجيء نسله السّادس عشر (أي الوليد سبستيان)...»[3] الذي كان أميرا ثم ملكا طموحا مما أدى به إلى الدخول في معارك مع المغاربة قبل معركة وادي المخازن كما سيأتي الحديث عنه بعد حين .

---

(1) Miguel dentas : **les faux don sebastien, étude sur histoire de Portugal** ,Chez August Puran ,Paris , 1866, T1 , p1.

(2) يونس نكروف : المرجع السابق ، ص 07 .

(3) فالح حنظل : المرجع السابق ، ص 379 .

طلبت العاهلة (ضونا كاترينا) ، من البابا (بولس الرابع) رهبانا من الكنيسة يتولون تعليم وتربية الفتى سيبستيان، فبعث إلى بلاط لشبونة الأب اليسوعي "لويس غونزالفس داكمارا " (LouisGonzalez De Camara) موفدا من قبل الأب "لانس "- رئيس جمعية يسوع- سنة 1559م ، وقد رافق "لويس" كاهنان على مستوى من البراعة والنشاط بغية السهر على تربية ولي العهد ، وعند وصوله إلى لشبونة وجد الأب "لويس غونزالس داكامارا" ومرافقاه أرضا خصبة وجوا ملائما بفضل الأب "فرناندو سيلفا" كاهن الضون سبستيان الخاص[1]؛ حيث تمكنوا من الاستحواذ على قلب الفتى والسيطرة على عقله ؛ إذ كانوا حريصين على ملازمته باستمرار . ترعرع الضون سبستيان في جوّ من التقوى والخشوع وارثا ذلك من جده التّقي الملك "جان الثالث" ، ومتأثرا بوالدته "جوانا" التي آثرت العيش بعيدا عن القصر الملكي ، وجدته الملكة "كاترينا" ، وكذلك أخ جده الكاردينال "هنري" ، وأظهر- وهو في السادسة من عمره - استعدادا واضحا وميلا للعبادة ، فقد سلبت حياة القديسين وشهداء الكنيسة عقله ، كما انتابه حزن شديد عند وفاة الراهب "لويس غونزالس داكَامارا" (Louis Gonzalez De Camara).

أشرك "فيليب الثاني" (ملك اسبانيا)[2]؛ ابن أخته سبستيان - بدافع من حماسه الديني - في معركة احتلال جزيرة بادس الثانية خوفا من أن يتخذها الأتراك قاعدة لعملياتهم.لذا قام البرتغاليون بمساعدة الإسبان باحتلال بادس عام 1563م.بعدما كانت بأيديهم سنة 1508م.

كما حرص على اصطحابه لإخماد ثورة الموريسكيين عام 1568م؛ التي ألهبت حماس و شعور ملك البرتغال الصّغير، وأججت ما يعتمل في نفسه من ضغائن وأحقاد و إحن ضدّ المسلمين الكفار كما يعتقد .

- تحرشات الضون سبستيان "sebastien" على المغرب قبل معركة وادي المخازن:

توّج الفتى الضون سبستيان الذي بلغ سنّ الرشد عام975هـ/ 1568م ملكا على البرتغال وسائر أنحاء الإمبراطورية البرتغالية تحت اسم جلالة الملك ضون "سبسستيان الأوّل" - وهو في سنّ الرابعة عشر من عمره خلفا لجدته الضونا كاترينا، فبدأ بتنظيم الجيوش ، وتحضير العتاد ، وانتشر خبر الحملة العسكرية المقررة على طنجة بسرعة في المملكة حتّ وصلت أخبارها للمغرب ، فأتّخذ

(1) Louis Charles : **Les Jésuites Dans Les Etats Barbaresques Alger Et Maroc**,Boston Collège , Librairie, chestnut hill,mass , S , D , Paris , p8 .

(2) ملك إسبانيا من سنة 1556الى سنة 1598م ، ولد بمنطقة بلد الوليد في 21ماي 1527م، أبوه هو "شارل الخامس"، وأمه هي إيزابيلا من البرتغال، عمل على تعزيز مكانة إسبانية السياسية، والعسكرية. للمزيد أنظرعنه :
M.Watson :**Phillipe2 roi d éspagne** ,vol 1 , Mesterdam , p 1.

السلطان "عبد الله الغالب" احتياطاته الأمنية والاستعدادات العسكرية لمواجهة هذا الغزو المتوقع، معتقدا أن الملك البرتغالي يقصد الاستيلاء على ميناء "أغادير"(1) ، فأمر ببناء حصن على الجبل القريب من المدينة بغية حراسة الميناء ، والتّصدي لأيّ هجوم محتمل(2).

أحدث نبأ الحملة إرباكا واضطِرابا شديدين في أوساط الشّعب البرتغالي، الذي لم يكن مستعدا بعد لمثل هذه المغامرات مع ملكه الجديد ، الذي مازال فتى يافعا ،لم يناهز السّابعة عشر من عمره بعد ، قليل الخبرة ، تعوزه التجربة والحنكة، وقراره هذا فيه مجازفة خطيرة (3). فقرر الأعيان والنبلاء مكاتبته لعله يعدل عن مشروعه ويتفطن لمخاطره .

وبمرور الوقت توافدت العرائض بكثرة على الملك سبستيان لمنعه من خوض حملته التي يحضر لها، ودعوته للتخلي عن فكرة غزو المغرب ؛ وتحذيره من مغبة التّورط في مغامرة عسكرية غير مضمونة. ونكتفي في هذا المقام باستعراض اثنتين منها للدلالة على إشفاق الأعيان ورجال البلاط من عواقب اندفاع الملك ، و قراراته الانفرادية غير المدروسة.

كلف أعيان البرتغال ونبلاؤها من الذين يعارضون فكرة غزو المغرب الكاردينال "هنري" بأن يتوجه للملك "سيبستيان"، بخاطبه لعله يسمع لنصيحتهم ويتخلى عن هذا الغزو(4)، فقد ذكّره بأنّ أجداده من ملوك البرتغال قد تخلوا مرارا عن المشاريع التي خططوا لها ،كما نبهه إلى صغر سنه وعدم فهمه للمخاطر التي ينطوي عليها غزو المغرب، سواء على الصعيد السياسي أو العسكري أو الاقتصادي ،ونصحه بضرورة أخذ مشورة أصحاب الرأي من الذين لهم خبرة في الحياة ومعرفة واسعة بدقائق الأمور، ثم يستدرك بقوله : «... لا نريد لهذا الخطاب أن نطعن بحماستكم التي تدفعكم إلى التبليغ والتبشير بكلام الله الحقّ لدى الشّعوب الهمجية ، ولا بمهارتكم الثاقبة ، ولكن بعد تأمل عميق للأمور التي تتعدى قدرتكم... ».

ووضح له أن النتائج التي يمكن أن تحصل عليها البرتغال من هذا الغزو، ضئيلة وبسيطة، لا تعادل حجم الأخطار التي تواجه جيش البرتغال وشعبه .

---

(1) دييقو دي طوريس : المصدر السابق ، ص 234 .

(2) وهي إشارة مهمة للتعرف أكثر على خلفيات معركة وادي المخازن ، وأنها لم تكن بنت الساعة التي التجأ فيها المتوكل إلى سبستيان .

(3) LèonGodard **: Description et Histoire Du Maroc**,Editeur Librairie Pour Lart Militaire Et Les sciences ,S,D, Paris , p 47 .

(4) يونس نكروف : المرجع السابق ، ص 76.

بعث الأب "لويس دوغونزالفس دوكامارا"[1]رسالة ثانية للملك البرتغالي لعله يسمع لنصائحه وتوجيهاته [2].

انزعج الملك من هذه التوسلات ورفض الإنصات لصوت الحكمة والعقل، لنقص تجربته و يفاعة سنه ففضّل الاندفاع وراء أحلامه، و مغامراته غير آبه بالعواقب و التحذيراتِ ، وتشبث بمشروعه في احتلال المغرب بدافع من سطوة عصبيته ، وحقده الدفين على العرب والمسلمين ، ضاربا بما تضمنته العريضتان عرض الحائط ساخرا من كاتبيهما .

في هذه الظروف التي يحضر فيها ملك البرتغال حملته على طنجة توفي السلطان "عبد الله الغالب" في الأوّل من شوال عام 982 /1574م و الذي حكم ثمانية عشر سنة[3] تولّى الحكم بعده ابنه "محمد المتوكل" الذي أساء السيرة في الرعية، وبات مكروها من شعبه ، فوصلت أخبار العاهل المغربي الجديد وشهرته السيئة إلى مسامع الملك الشاب سيبستيان ، فهلل لقراءة التعليقات والأخبار المبالغ فيها أحيانا ؛و التي كان يوصلها إليه حكام سبته وطنجة. ومن أقوالهم : أنّ المملكة الشّريفة تثور على حاكمها الطاغية كما – وصفوه – فزادت هذه الأخبار الواردة من المغرب الملك الشاب تصميما وإصرارا على حرب المسلمين ، وتنفيذا لمشروعه عيّن ابن عمه ضون "أنطونيو" حاكما على طنجة.

وفي السّابع عشر من شهر أوت ذهب الملك وبرفقته رجل واحد فقط، متنكرا إلى مرفأ "كاسكاس"[4] ، ومن هناك استقلّ مركبا إلى سبته، ثمّ وصل إلى طنجة حيث وجد ابن عمه الضون أونطونيو في استقباله [5]. قرر الملك أن يخوض تجربة القتال ، فخرج من حصن "طنجة"

---

(1) من اليسوعيين الذين أثروا على الضون سبستيان، وجعل منه ملكا متعصبا يتحرق لقتال الكفّار الهمجيين، كما يسميهم توفي عام 1574م .أنظر Louis Charles : Op .Cit , P 85.

(2) قال فيها : « ... إذا كنتم يا سيدي تتكلمون معي بصفاء ذهن وليس بخفّة ، فأنا أقول لكم هناك ثلاثة أشياء مهمة يجب لأن توجد مجتمعة لكي يكون بإمكانكم التفكير بالقيام بالحرب في إفريقيا : أولا أن يرى شعبكم أربعة أو خمسة أطفال ذكور على سلّم العرش ، والأمل بالازدهار المقبل للمملكة . ثانيا أن لا يتعرض البرتغال في حال غيابكم لأيّ خطر أو لأيّ اضطراب . ثالثا أن يكون لديهم من أجل القيام بالحرب الاستعدادات الوافرة من الفرق والمال والمؤن على جميع أنواعها ، والتي للحصول عليها لا داعي لتحقير واضطهاد شعبكم.... ». نقلا عن يوسف نكروف: المرجع السابق ، ص77.

(3) المجهول : المصدر السابق ، ص 42.

(4) مرفأ صغير ، يقع شرق العاصمة لشبونة .

(5) عبد المجيد قدوري : **المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر**،المركز الثقافي العربي ، ط1، الدار البيضاء 2000، ص 169 .

متوجها إلى "آصيلا" و"العرايش" لعله يتوغّل بجيشه القليل، والبالغ ما بين خمسمائة وستمائة فارس داخل المغرب لقتال الكفار المسلمين، معتقدا أن نصره على المغاربة أكيد وفي نفس الحين يغتنم الفرصة ليصطاد النمور هناك(1).

فسمع السلطان محمد المتوكل بهذه المناورة البرتغالية فأوعز إلى قبيلة "غماره"(2) بالتّصدي لهذا التوغل؛ فأشتبك الطرفان في قتال عنيف كاد أن يهلك فيه الملك الشاب.

وقد دارت هذه الموقعة بالرملة المسماة "بأبي غاص" من فحص طنجة قرب "قنطرة عصماء"وذلك يوم الأربعاء منتصف جمادى الأولى سنة اثنين وثمانين وتسعمائة.وفي هذه الوقعة أستشهد الشيخ أبو مهدي المصباحي(3).

ورغم فشل هذه المغامرة فإنّ الملك الشاب ظلّ يتحين الفرص لتكرار مغامراته ، وأحلامه في احتلال المغرب.

واصل الملك سيبستيان استعداداته الحثيثة لغزو المغرب ،فنظم سنة985هـــ /1577م فرقا من الجيش تظم خيرة شباب لشبونة، وقام بتدريب هذه الفرق وتموينها بالمال والسلاح حتى تكون جاهزة عند أخذ قرار الحرب في المغرب، ولأجل إيجاد التموين المالي اللازم للحملة أقدم على رفع الضرائب على السكان ،وأجبر المسحيين الجدد و اليهود بدفع أموال كثيرة لتموين الحملة، قدرت بخمسين ألف دوكا (4) وإلا تعرضوا للعقاب(5) .

في هذه الأثناء والاستعدادات للحرب في المغرب على أشدها،كان هناك جوا عاما في البرتغال حيث سادت الروح الصليبية الشعب البرتغالي، وقد أعطت لهذه الأخيرة زعامة العالم النصراني سياسيا في غرب أوروبا،وهنا بدأت دولة البرتغال بالتعاون الصريح مع الكنيسة الكاثوليكية للأخذ بيدها ودعم موقفها المتدهور، من نجاحات العثمانيين الإسلامية في شرق أوروبا. (6)

---

1) Victor de heaulme : **Dom Sébastien de Portugal les muysterre de la (d' alcaçar bataille,**1578 , Paris 1854, p 48.

(2) إحدى قبائل البربر بشمال المغرب (جبال الريف)، وهي فرع من المجموعة القبلية الكبرى "مصمودة" ،انقسمت إلى عدد كبير من القبائل تحت أسماء فرعية تعرف بقبائل جباله، وهناك بعض الفروع لازالت تحمل الاسم الأصلي غمـــاره. أنظـــر : الوزان : المصدر السابق ، ج1، ص 44.

(3) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : المرجع السابق ، ج5، ص 58.

4) (Dantas Miguel : Op .Cit , P 26.

(5) Hennri shafer :**Histoire de Portugal** , traduit de l'allmand hennri soulance bodin , Adolphe delhays , librairie ,Paris 1558, p 617.

(6) محمد حميد السلمان: المرجع السابق، ص31-32.

ح- التقارب الإنجليزي مع عبد الملك السعدي :

كاتب عبد الملك السّعدي[1] الملكة الإنجليزية إليزابيث ليخبرها بتوليه السّلطة ، وأنّه مستعد لتلبية كلّ مطالبها ؛ حيث جاء في رسالته لها : (إلى السّلطانة المعظمة ... "زبيلة " بنت السّلطان المعظم ... كتبناه إليك من حضرتنا العلية مراكش ... وموجبه أننا نعرّفك أنّ الله تباركَ وتعالى مكنني من ملك والدي ... واستوليت على جميع بلاده ... فلتتعرّفي أنت على محبتك وكل ما يعرض لك في بلادنا من الأغراض فإنّه مقضي على ما يوافق غرضكم ومرادكم)[2] .

فالإنجليز كانوا يسعون إلى مدّ نفوذهم في المغرب ، و إحراج الأسبان و البرتغال بالفوز بامتيازات تجارية كاستيراد ملح البارود، مقابل أن يلبوا احتياجات عبد الملك السّعدي من قنابل المدافع والأسلحة المختلفة.هذا التقارب استاءت منه البرتغال و إسبانيا ، و أحدثت المؤن و الذخائر التي أخذ التجار الإنجليز يحملونها إلى المغرب، قلقا عظيما عند ملك البرتغال رغم السفارة التي وجهها عبد الملك إلى الملك فيليب الثّاني في صفَر 985هـــ / أَفريل 1577م يعرض فيها صداقته في الوقت الذي بدأ البرتغال يعدّ العدّة لغزو المغرب [3].

كان عبد الملك بتعاونه مع الإنجليز خاصة والأوروبيين عامة يسعى إلى تحديث المغرب الأقصى وتكوين قوات عسكرية مجهزة تجهيزا جيدا على النمط العثماني، فقد أشار إلى ذلك المجهول عندما قال: «.... ونزل مولاي عبد الملك عن فرسه ومشى على قدميه وأخذ في ترتيب الجيوش...».[4]. ولعل تأثره بقوة الباب العالي، وعظمته، جعله يؤمن ويعمل يوم أخذ السلطة من ابن أخيه محمد المتوكل على تبني عادات الأتراك وتقاليدهم، سواء في اللباس أو التنظيم ،وقد أشار الجنابي إلى ذلك بقوله : «... وسمعنا أنه تزيا بزي الأورام في اللباس والعمامة ولبس الطرطور الأحمر ، وهو غير ما يعهده أهل تلك البلاد... »[5].هذا التعاون الإنجليزي مع عبد الملك نظرت إليه لشبونة على أنه تهديد لمصالحها في المغرب.

---

(1) عرف عبد الملك المعتصم عند الأوروبيين بالإطلاع الواسع على الحضارة الأوروبية وأراد أن ينهج سياسة جديدة تكسب المغرب احترام جميع الدول، وتوفر له الأمن، وسمي في المراجع التاريخية الأوروبية باسم mouluc ، أنظرعنه عبد المجيد قدوري : المرجع السابق ، ص187.

(2) عبد الكريم كريم : المرجع السابق ،ص ص 100 - 101 .

(3) نفسه .

(4) المجهول : المصدر السابق ، ص 53.

(5) مصطفي بن حسين الجنابي : المصدر السابق ،ص 351.

خ- التفاهم السري على الحملة بين فيليب الثاني وسيبستيان:

لم تكن معركة وادي المخازن رغبة" الضون سيبستيان" وحده، ولعل ما جشعه هو تفاهمه مع خاله فيليب الثاني لتقديم الدعم لهذا الغزو(1)، ومساندته وتشجيعه وموافقتة ولو ضمنية، بتقاسم الأدوار في المنطقة وسيطرة البرتغال على المغرب الأقصى، والإجهاز على ما تبقى من مدنه في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ،واغتنام فرصة انشغال الأتراك العثمانيين في حربهم ضد الصفويين(2) ،مما يجعل المنطقة خالية من كل قوّة دفاع أو تصد، وبتضافر هذه الأسباب غير المباشرة المذكورة أعلاه، مع سبب آخر نعتقد أنه مباشر ألا وهو استنجاد محمد المتوكل بالبرتغال، الذي فقد كل نفوذ في المغرب، وأصبح مكروها من الكثير من فئات الشعب المغربي(3).

د- استنجاد محمد المتوكل بالبرتغاليين:

هذا الاستنجاد الذي وجد فيه الملك البرتغالي سيبستيان الفرصة السانحةَ؛التي طالَما انتظرها لتحقيق حلمه في الاستيلاء على المغربِ ،وقتال المسلمين بعدما اشترط على المتوكل أن تكون للنصارى سائر السّواحل المغربية ، وله ما وراء ذلك ، فقبل أبو عبد الله المتوكل ذلك و لزِمه(4).

في هذه الأثناء ،كان عبد الملك يتابع التطورات الحاصلة في الجهة البرتغالية على كثب.ورغبة منه في تدارك الموقف،ودفع الحرب؛التي تلوح في الأفق ،وإعطاء فرصة للسلام بينه وبين ملك البرتغال .بعث عبد الملك السعدي إلى الضون سيبستيان رسالة بتاريخ 22جويلية 1578م يعرض

---

(1) أنظر في ذلك رسالة السفير الفرنسي جوي منشورة في

Ernest Charrière : **Négociations dela France dans levant**,imprimerie impériale, paris, t3 ,p 756 .

(2) هي تلك الحروب التي نشبت بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في إيران،حيث قام الصفويون بالاعتداء على حدود الدولة العثمانية في وسط أسيا والعراق ، وتحالفوا مع أعداء العثمانيين ، مما أعاق مشاريعهم التوسعية في أوروبا الشرقية، للمزيد من الإطلاع على هذه الحرب أنظر إسماعيل ياغي أحمد: المرجع السابق ، ص 65.

(3) كان عبد الله المتوكل بعد فراره من مراكش ، يجول في جبال السوس ويتنقل بين قبائلها إلى أن اجتمعت عليه مجموعة من الصعاليك كوّن منهم جيشا وتوجه بهم إلى مراكش ، وصادف أنّ عمه عبد الملك، ترك في مراكش أخته لالة مريم في نحو ثلاثة آلاف من الرماة ،مما أجبره على الفرار ليصل إلى جبل درن فتحصن هناك بقمته ثم فرّ إلى بادس ، وأقام بها مدة . للمزيد من الإطلاع على تحركات محمد المتوكل قبل لجوئه إلى ملك البرتغال أنظر أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : المرجع السابق، ج5 ، ص 67.

(4) محمد الصغير الأفراني : المرجع السابق ، ص 58.

له فيها امتيازات تجارية وسياسية ،في محاولة منه لتقديم عروض وإغراءات لعل الملك البرتغالي يعدل عن حربه ضد المغرب[1].

أراد المولى عبد الملك برسالته هذه، إلى أن يحمل الملك البرتغالي على التخلِي عن حليفِه المتوكل ؛ حيث عرض عليه جملة من المحفِزات السِّياسية والاقتصادية، لعله يرجع عن مشروعِ حملتِهِ، وينبهه إلى أن المتوكل لا يستطيع أنْ يفي بما وعده به ؛ لأنّه سيجد مقاومة عنيفة من الشعبِ المغربي ، لكنّ الملكَ البرتغالي أغلق أيّ سبيلٍ للحوار، أو محاولةٍ للصلح ، أو الوصول إلى حلول توفيقية تنهي الأزمة المتفاقمة بين المتخاصمين ؛ لأنّ الملك الشّاب كان في هذه الظّروف الحماسية، والتعبئة الشاملة لفرقه العسكَرية لا يسمع إلاّ قرع طبول الحرب ونذرها القادمة .

ظن الضون سيبستيان أن العرض السخي لعبد الملك، مرده الخوف من مصير أسوأ على ملكه، ولذلك أصرّ على غزو المغرب، وشن حملة صليبية قوية عليه، لعلها تخلد اسمه في التاريخ كما خلدت الحروب الصليبية في المشرق أسماء أخرى[2].

ومجمل القول:

أن الملك البرتغالي الشاب كان يحلم بغزو المغرب وقتال المغاربة "الكفار"، نصرة "ليسوع" كما يعتقد ، وقد عمل على التحضير لهذه الحملة على المغرب منذ سنة985هـــ/ 1577م بتحضير الجيوش وتدريبها ،وتوفير العتاد وجمع الأموال اللازمة بالرفع من الضرائب على الشعب البرتغالي؛ الذي كان يئن تحت ظروف اقتصادية صعبة .

وقد وجد الملك البرتغالي الفرصة السانحة التي طالما انتظرها، وهي استنجاد محمد المتوكل ابن عبد الله الغالب به ،لاسترجاع ملكه من عمه عبد الملك الذي استلم السلطة في المغرب سنة 1576م. فكيف جرتْ أحداث هذه المعركة ؟ وكيف تقطعت أوصالها في منطقة القصرِ الكبيرِ ؟

---

(1) جاء في الرسالة : « ... الحرب التي تعلِنها ضِدِّي هي غير عادلة ، لقدْ أتيت تنْزعني عن عرشِي ومملكتي لأجلِ هذا الشّريفِ الجاحدِ لما وعدك به، وأستطيع أن أؤكد لك أنّني سأمنعه من الالتزام بقوله ما دمت حيًا ؛ لأني أريد أن أجعله خادما للخدم والعبيد عندي ، ولا أنت ولا قواك تستطيع منعي من ذلك ؛ ولأجل أن تكون عدالتي أكثر شهرة ، أريد تصحيح خطئك ، وأقدم لك بحرية ما لا يستطيع الشّريف إعطاء ما وعدك به ، يعني ثلاثة عشر ميلا من البحر حتّى الأرض الصّلبة ؛ لأجل أن تتمكن من بناء الحصون التي تريد ، وليكون لديك أرضا زراعية أكثر مما تحتاج لتأمين التّموينات الضّرورية ... »

نقلا عن يونس نكروف : المرجع السابق ،ص165. وكذلك أنظر عن الرسالة Henry de Castries : les **sources inedites du Lhistoire du maroc1530-1845,dynastie Saadienne,**Archive et bibliotheques de France ,T1, Paris 1905,p 392.

(2) عبد الله العمراني:**معركة القصر الكبير** ،في م د ح ، المغرب نوفمبر 1964م، عدد 1، ص43.

المبحث الثاني :

المجريات .

وجه "سبستيان" خطابا قبل إبحار الحملة إلى نبلاء بلادهِ، يذكرهم بماضِي الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية ، و بما كان لأسلافهم من أمجاد في إنهاء هذا الوجود ،ثمّ دعا مجموع الأمّة إلى حمل السلاح ضدّ المغاربة لإخضاعهم ، وكان ردّ النبلاء على نداء الملك هوأنّ مشروعه سيصادف صعوبات جمّة ،من حيث أنّ البرتغاليين لن يقاتلوا جيشا واحدا ، ولا ملكا واحدا ، وإنما شعبا برمّته(1) فكيف كانت أحداث ومجريات هذه المعركة ؟

*- الحشد البرتغالي والإبحار نحو المغربِ .

*- قوات الجيش البرتغالي.

*- قوّات الجيش المغرِبي.

*- المسوغات التي أبداها المتوكل في رسالته للعلماء.

*- استدراج الملك البرتغالي إلى عمق المغرب.

*- المجلس الحربي لضون سيبستيان.

*- السّاعات الحرجة قبيل المعركة.

*- التنظيم القتالي لجيش مولاي عبد الملك السّعدي.

*- اندلا ع المعركة.

1- الحشد البرتغالي والإبحار نحو المغربِ :

هذا التعصب من الملكِ الشاب،حمل خاله "فيليب الثّاني" ؛الذي كان منشغلا بأحداث أوروبا الغربية والتزاع مع بريطانيا، بأن يبعث له عدّة سفارات ليحذره من مغبة أعماله . ولا ننسى بأنّ عبد الملك كان في هذه الآونةِ كان قد تقدم بمشروعِ المعاهدة المغربية الإسبانيةِ، التي لازالتْ قيد الدراسة في بلاط ملك اسبانيا "بالأسكوريال"(2) ومن هذه السِفارات التي وجهها فيليب الثاني إلى لشبونة سفارة الدون "جون دي سيلبا" (Don Juan de Silba) ،كما بعث له رسولا آخر هو الدون "مِدينا سِيدونيا"(Don Médina Sidonie) في مارس1578م ،ولكن جميع محاولاته باءت

---

(1) إبراهيم حركات : **السياسة والمجتمع في العهد السعدي** ، ص 70 .

(2) هي كنيسة بقربها القصر الملكي الأسباني، لفظة تعني القديس لورنس ، قتل سنة 1520م للمزيد أنظر أحمد الغزال: **رحلة الغزال**، تحقيق إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1984 ، ص 147.

بالفشل ، وبالأخصّ عندما التجأ "عبد الكريم بن تودة" – صهر المتوكل – إلى طنجة وتنازل للبرتغاليين عن أصيلا . وهذا الأمر يعدّ كافيا ليتدخل سيبستيان في المغرب سعيا وراء تحقيق أمنياته؛ لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخِ المغرب والدولة السّعدية بوجه خاص[1].

أبحرت السفن البرتغالية في اليوم الرابعِ والعشرِين من جوان عام 1578م من لشبونة على مراحلٍ، فأقامت "بلاكوس"[2] بضعة أيام ، ثم مكثت القوات في "قادس" أسبوعا ، وأرست في طنجة في اليوم السّادس من جويلية ، وهناك نزل الملك الضون سبستيان وحاشيته ، فوجد في استقباله صنيعة الصّليبيةِ محمد المتوكل،وأمر السفن الحربية بمتابعة سيرها إلى أصيلا التي تنازل عنها المتوكل للبرتغاليين قبل إبعاده من المغرب لتصلها في جمادى الأول سنة986هـــ/1578م[3].

لم يقم سبستيان في طنجة إلاّ يوما واحدا، حتى التحق بجيشه في اليومِ العاشر من نفس الشهر. بقيت القوات البرتغالية معسكرة بضواحِي أَصيلا إلى اليوم الثامن والعشرين من جويلية [4] حيث كان عبد الملك في هذه الآونة قد عسكر "بسوق الخميس" على بعد ستة أميال جنوب وادي القصرِ الكبير ؛ بعدما وصلت إليه تقارير من عيونه في أرض العدو ؛ تطلعه بتحركات الجيش البرتغالي ،وبكل ما يدور في القيادة [5].

2- قوّات الجيش البرتغالي :

اختلفت الروايات التاريخية حول عدد فرق الجيش البرتغالي ، وذهب المؤرخون الأوربيون إلى التقليلِ من عدد القوات البرتغالية بغية تفريغ النصرِ المغربي من محتواه ، وتثبيت صورة نمطية في الذاكرة الجماعية للمجتمع الغربي ؛ مفادها أنّ الجيش البرتغالي كان ضعيف العدد والعدّة ، ويفتقر إلى المؤونة والتنظيم ؛ و لو كان غير ما ذكر لأستطاع أن يسحق جيش المغاربة .

وقد أعطت المراجع الغربية أرقاما لتعداد الجيش البرتغالي ؛ منها من قال أنّ عدده كان اثني عشر ألف مقاتل لكنّ المؤرخ "بيرنندوداكروز" (bernandoda Cruz) رفع العدد إلى خمسة وعشرين ألف مقاتل ، كما أورد إحصائيات لفرق الجيش البرتغالي ؛ وهي كَالآتي[6] :

---

(1) عبد كريم كريم : المرجع السابق ، ص 103.

(2) هو مرفأ صغير يبعد عن العاصمة لشبونة بمائتي كلم .

(3) Louis Charles : Op. Ci t , p 33 .

(4) للتعرف أكثر عن مسيرة الجيش البرتغالي من تاريخ وصوله إلى أصيلا ،إلى أن وصل إلى منطقة المعركة في القصر الكبير قرب نهر اللوكس ، أنظر الخريطة التي تبين تنقلات الجيش في الملحق الرابع في قسم الملاحق.

(5) عبد كريم كريم : المرجع سابق ، ص 105 .

(6) M . Ferdinand Denis : **Portugal** , Imprimeur De Institut De France , S,D, p 268 .

تسعة آلاف جندي برتغالي (9000).

ثلاثة آلاف ألماني (3000).

ألفان قشتالي (2000).

أربعة آلاف فارس (4000).

ستمائة من العبيد (600).

قوات محمد المتوكل (300) أو(600) [1].

قوات بابا روما (4000) مقاتل منهم 1500فارس[2].

وحسب رواية أخرى ساقها "هنري دوكاستري" فإنّ القوات البرتغالية كانت موزعة كما يلي: ثلاثة آلاف من جيش الأسطول (3000).

ألفان من جيش الاحتياط(2000).أربعة عشر ألف من المشاة(14000، ألفان فارس(2000)،ثلاثة آلاف من معبدي الطرق(3000) المجموع: أربعة وعشرون ألف مقاتل(28000) مقاتل، و يدعمهم حوالي مئتين(200) مدفعا.هذا بالإضافة إلى ألف (1000) عربجي (فرقة عسكرية تجرّ عربات المدافع)، وحشد لا نهاية له من الغلمان ،والحشم ،والرقيق المغاربة ،وغيرهم بينما ذكر المؤرخ الفرنسي إرنست شاريار(Ernest Charrière)أن الملك البرتغالي الشاب حشد حوالي ثمانين ألف (80000)مقاتل[3]وهو أكبر عدد كتب في المصادر التاريخية الأجنبية التي وثقت للمعركة ،أمّا المصادر العربية التي عايشت الحدث أو كانت قريبة منه، فقدرت عدد جيش العدو بمائة وعشرين ألف مقاتل[4] نزلوا إلى البر، يقودهم مَلكهم "برتفيس" (سيبستيان) ،وبقي في العمارة حوالي عشرين ألفا، زيادة على قوات محمد المتوكل التي كانت حولي ثلاثمائة فارس[5].

وذكر أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن ما نصّه :« ... وعظيمهم سيبستيان ملك البرتغال ، واحتشدت أمم من النصرانية ؛ يقال أنّ مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفا ،

---

(1) عبد الرحمان القباج: المقال السابق، ص244.

(2) نفسه ، ص 241.

(3) Ernest Charrière : Op.cit, T3 , p 722.

(4) أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني: المرجع السابق ، ص 71.

(5) محمد الصغير بن الحاج الأفراني : المرجع السابق ، ص 75.

وأقل ما قيلَ في عددهم ثمانون ألف مقاتل ، وضربوا محلاتهم بالفحص على أقل من مسيرة يوم من مدينةِ القصر ، وكانت أصيلا قد تصيرت إليهم قبل شهر ، فعاش أهل القصر الهلكة لقرب العدو منهم وقوته التي لا طاقة لهم بها ... »[1] .

كما روى محمد الغسّاني الأندلسي قائلا : « ... والنصارى يزعمون أنّ مبلغ الجيش الذي كاَن مع سيبستيان في خروجه ثمانية عشر ألف ، فمن جنس البرتغال اثنا عشر ألف ، ومن الإنجليز ثلاثة آلاف، أتوه مدّة الصّلح والمهادنة التي كانت بينه وبينهم ، ومن اسبانيول ثلاثة آلاف، أمدَّه بها... فيليب سكونَد... والصحيح ما هو مقرر عند المسلمين من العدد المذكور ... »[2].

3 – قوّات الجيش المغرِبي :

كانت الصرخة في كلّ أنحاء المغربِ : « أَن اقصدوا وادي المخازنِ للجهاد في سبيل الله... » فهذه التعبئة الشّعبية التي أطلقها السّعديون مدعومة من القوى الدينية كوّنت جيشا ذا معنويات عالية ، وذا تصميم أكيد على النصر ، وزاد الموقف تفاؤلا بالنصر،حيث أنّ القيادة كانت في مستوى الطّموح الشّعبي ، والشّعور الإسلامي[3].

فاحتشد المغاربة من كلّ حدب وصوب ؛ ملبين نداء الجهاد الذي أطلقه عبد الملك استعدادا لمواجهة جيش البرتغال القادم .

و كان جيش المعتصم يتألف من الفرق التالية :[4]

ثلاثة آلاف من جند الأندلس (3000) بقيادة الدغالي .

ثلاثة آلاف من المشاة (3000) .

خمسة وعشرون ألف فارس (25000) .

ألف رام بالبنادق (من الأتراك) (1000).

ألف فارس متطوع وعدد كبير من المغَامرين (1000) .

---

(1) أبو حامد محمد العربي الفهري : **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن** ، تحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتّاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ، د، ت ، ص 146.

(2) محمد الغساني الأندلسي: **رحلة الوزير في إفتكاك الأسير** ، تحقيق نوري الجراح ، ط 1، دار السويدي ، أبو ظبي 2002، ص77.

(3)شوقي أبو خليل : **وادي المخازن** ، ط 4 ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا 1993، ص50 .

(4) إبراهيم حركات : **السياسة و المجتمع في العهد السعدي** ، ص 71 .

يَدعمهم أربعة وثلاثون مدفعا (34). وبالتالي تكون القوات المغربية(33000)ألف مجاهد وهذا العدد قريب مما ذكره المجهول بقوله: « ... وأشتد عليه المرض حين توجه الناس للقتال وكان عدد المسلمين ستة وثلاثين ألفا والنصارى مثلهم مرتين ... »(1).

بينما وصف المؤرخون الأوروبيون الجيش المغربي بالكثرة والحشد العظيم، نتيجة التعبئة الدينيةِ التي قام بها عبد الملك السّعدي لخوض الحرب المقدسة ،و بذلك تفوّق على الجيش البرتغالي في سلاح الفرسان(2) ،وهذا لتبرير الهزيمةِ وإضعاف زخمها المعنوي ، والتقليل من إحباط الشّعوب المسيحية وحكوماتها، للمحافظة على بقاءِ الروح الدينية عالية و متحفزة لقتال المسلمين .

حاول محمد المتوكل (المسلوخ) قبل المعركة تبرير ما قام به ، وأتى بجملة من المسوغات الشّرعية والأخلاقية ليبين للشعب المغربيّ عامة ، والعلماء وأهل الرأي خاصة فيقنعهم بما قام به ويشرح لهم الدوافع والمبررات والظروف؛ التي أدت به لطلب العونِ من النصارى، لعله بعد ذلك يستطيع أن يستميل العلماء - وهم سند الأمّة في الملمات الكبرى — فيقفون بجانبه ويساندونه في معركته ضد عميه .كما لجأ إلى أسلوب الترغيب والترهيب ،حتّى يحدث شرخا، واختراقا، وبلبلة في الجبهة الداخلية لجيش عمه عبد الملك بعد صرخة الجهاد(3).

4 – المسوغات التي أبداها المتوكل في رسالته للعلماء :

قال : « ... ما استصرخت بالنصارى ، حتّى عدمت النصرة من المسلمين... » وقد قال العلماء: «... إنّه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حق ملكه بكل ما أمكنه...» .

- نقض البيعة والتحلل من واجباتها الشّرعية من دون وجه حق، وتقتضي الشريعة أن يقف العلماء وعامة الشعب عند بيعتهم للحاكم والالتزام بها، وهذا مالم يحدث في نظره . وقد هدد المتوكل العلماء بحدّ السيف والعقاب الرادع، واستشهد بقوله تعالى:« فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَهِ وَرَسُولِهِ... »(4) .

---

(1)المجهول : المصدر السابق ، ص 61.

(2) M. A.Fillias :**Lespagne et Le Maroc en 1860** , Poulet Malassin et De Broise , Paris,1860, p125.

(3) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : المرجع السابق ، ج 5 ،ص 70 .

(4) **سورة البقرة** : الآية 279.

وقد فند العلماء مزاعم المتوكل ودحضوها بقولهم[1]: لقد قلت:أن أهل فاس يجب أن يقاتلوا على البيعة التي التزموها، وأن يقفوا مع السلطان الذي توافقوا على مبايعته . فهذا صحيح في حالة ما إذا أقمت بينهم وحاربت معهم و لم تفر وتتركهم لمصيرهم .فقالوا:

« ... وهربت عن مدينة فاس وسكانها ينادونك لمن تركتنا وإلى من تكلنا ؟ فلم تلتفت إليهم ... فأصبح أهلها واليد العادية من المفسدين تريد أن تمتد إلى الحريم والأولاد ... ».

والحكم حسب التقاليد السعدية يعود إلى الأكبر سنا ،وقد عهد الجد الأكبر "محمد الشيخ" لأب المتوكل عبد الله الغالب بولاية العهد باعتباره الأكبر سنا ، لكنّ الغالب خالف المتفق عليه وسلم الحكم لأبنه . وعبر العلماء عن هذا بقولهم :

«... فعهد لوالدك الذي كان أكبر أولاده فلم ينازعه أحد في ذلك ... » وبخصوص أحقيته في الخلافة، فبينوا له بقولهم :

« ... وحجتك في إثبات الخلافة لك ضعيفة ،إذ المعدوم شرعا كالمعدوم حسا فلم يبق بينكما إلاّ القتال:والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا...» [2] . وعندما قال: أنه استعان بالنصارى عندما لم يجد العون من المسلمين، فردّوا عليه بالقول:

«... أماّ قولك أنك استعنت بالنصارى لعدم وجود النصرة من المسلمين، ففيه محظوران شرعيان ،لأنّك اعتقدت أنّ المسلمين كلهم على ظلال ،وأنّ الحق لم يبق إلاّ عند النصارى... وقد افتخرت بجموع الروم وقيامهم معك، فاعلم أنّ هذه الأمة لن تغلب ،ولو اجتمع عليها الكفار من كل الدنيا... » [3]، وقد قاتلك في جيش المسلمين في بضع وعشرين معركة ،ثم لم تنصر لك راية،فأي شؤم ونحس حلّ بديار الروم، فإن جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد.[4]

– بهذا ردّ علماء المغرب على المبررات والاتهامات التي رمى بها المتوكل أهل المغرب، والذرائع التي قدمها لعلّه يقنعهم بما أقدم عليه ،ويكسبهم لصفه ،فهو يعلم مدى تأثير العلماء والربط والزوايا في نفوس الرعية .

---

(1) للمزيد من الإطلاع على رسالة العلماء للمتوكل أنظر حسن السائح : **العلماء وراء معركة وادي المخازن** ، في م د ح ، المغرب 1978م ، عدد 8 ، ص ص 84 - 88 .

(2) هو عجز بيت أرثم الفزاري القائل : إني أرى فتنة تغلي مراجلها والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا ، قاله في معاوية بن يزيد بن معاوية المكنى بأبي ليلى حيث حكم أربعين يوما واعتزل ، وأبي ليلى كنية يشار بها للضعيف من القوم .

(3) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : المرجع السابق ، ج 5 ، ص77 .

(4) نفسه ،ص 76.

5- استدراج الملك البرتغالي إلى عمق المغرب :

لقد جرت الأعراف في المعارك التقليدية أن يتبادل الطرفان المراسلات بينهما، لتحديد موقع المجابهة وهذا ما حصل في غزوة وادي المخازن.

لمّا قدم عبد الملك إلى مدينة القصر الكبير، فكّر في حيلة يستدرج بها خصمه إلى عمق المغرب، ويبعده عن الساحل وعن أسطوله البحري ومراكز إمداده ، ويجرده من ورقة قوته وهي القتال عند السّاحل، ومن- باب أنّ الحرب خدعة- قام باستفزازه ومحاولة إغضابه لمعرفته الجيّدة بمزاج الملك الشاب وحداثة سنه، وقلّة خبرته بالقتال وجهله بطبيعة المغرب ،وخطورة التوغل فيه، فانطوت عليه الحيلة ، بالرغم من أن قادة فيالقه، ومحمد المتوكل نصحوه بعدم المجازفة داخل المغرب، واقترح عليه المتوكل الذهاب إلى احتلال العرايش على محاذاة البحر، ويبقى على اتصال بالقوّة البحرية ،تمدّه بالمؤن والعتاد والرجال لكنّ الملك لم يسمع لرأي أحد .

وفي كتاب تاريخ الدولة السّعدية للمؤلف المجهول يذكر بأنّ المعتصم، كتب إلى ملك البرتغال بعد نزوله بأصيلا ما نصه :«... إنّ سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك البحر إلى عدوَة المسلمين فإنْ أنت تثبت في الساحل إلى أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي وشجاع، وإن أنت رجعت إلى بلادك وحقرت بعض الرعية قبل أن يقاتلك أمير مثلك، فأنت كلب ابن كلب...»[1] وفي رواية أخرى : " أنت يهودي بن يهودي "،ولّما ارتحل من مراكش إلى سلا ومنها إل القصر الكبير، كتب إليه مرة أخرى خطابا يقول فيه :

« ... إني جئتك من مراكش ورحلت إليك ستة عشر مرحلة [2] ،وأنت لم تدن إليّ مرحلة واحدة.... » ، فلما وصل إليه الكتاب اغتاظ وارتحل إليه الملك البرتغالي من وادي "تهدّارت"[3] إلى وادي المخازن. فهذان الخطابان من السلطان عبد الملك ،استفزا الملك البرتغالي وأغضبه [4]، فلم يترو في الأمر، ولم يقدر العواقب، وركب رأسه مستهزئا بقوات المغاربة ،معتقدا أن الأمر مجرد نزهة سرعان ما تنقضي ، وتناسى أن الشعب المغربي في هذه المواجهة يقاتل عن دينه وكيانه ووجوده، وبروح قتالية عالية ، فتقدم بقواته زاحفا نحو الداخل يوم الثلاثاء 29جويلية ،وعسكر أخيرا على الضفّة اليسرى لوادي المخازن، يوم الأحد الثالث من أوت986هــ/ 1578م.

---

(1) المجهول : المصدر السابق ، ص 61.

(2) هي المسافة التي يقطعها المسافر في اليوم وتقر بـــ 42 كلم .

(3) واد يبعد عن مدينة طنجة بـــ 5 كلم، عسكر فيه الجيش البرتغالي، قبل أن يصل إلى وادي المخازن، ويجتاز القنطرة.

(4) المجهول : المصدر السابق ، ص 59.

6 ــ المجلس الحربي لضون سيبستيان :

نزل الجيش البرتغالي يوم الأحد الثالث من أوت على محاذاة الضفة اليمنى لنهر المخازن ،[1] واجتاز مجرى الماء بلا عائق ،فاصطدم بالمنحدرات الوعرة فعاد أدراجه ليقيم المخيم على الضفة اليسرى من وادي المخازن ،غير بعيد عن نهر "اللوكس"، وقرر سيبستيان جمع مجلسه لمناقشة أمر المعركة وميدانها للمرة الأخيرة، وأخبر القائدان "جوادو كاستيلهو" و"دييغودوبالما" الملك أن جيش المعتصم يزيد عدده عن سبعين ألف رجل، وأنه مشهور بذكائه وحنكته العسكرية قد جند وحدات قتالية جيّدة التدريب والتسليح، فقاطعهما الملك و أظهر لهما الغضب الشديد[2].

طلب "دوق آفيرو" ، ودون "فرانشيسكو دوماسكارينهاس" ، والكونت "دوفيميوسو" من الملك أن يتجنب كل تهور ،وألاّ يتعرض إلى الأرض المكشوفة ،وقد وافق محمد المتوكل رأيهما حتى يسهل الانسحاب في حالة الهزيمة، كما نصحه ألاّ يخوض معركة الغد إلا في آخر النهار– عندما تنخفض الحرارة في المساء – ليتفادى تعريض المسيحيين للحرارة الشديدة في الهاجرة، وانتهى المجلس بدون رأي قاطع، لأنّ الملك نذر حياته "كفارس راهب" لضرب أعداء المسيح[3] .

7– السّاعات الحرجة قبيل المعركة :

لقد حنكت التجارب "عبد الملك المعتصم بالله" ، فعزل عدوّه عن أسطوله بمكيدة عظيمة ، وخطة مدروسة ، عندما استدرج سيبستيان إلى مكان حدّده عبد الملك ميدانا للمعركة .

كان عزله عن أسطوله محكما، عندما وجه إلى القنطرة التي على وادي المخازن، كتيبة من الخيل بقيادة أخيه أحمد، فهدموها وقطعوا بذلك خط الرجعة على جيش البرتغال .

وفي خضم الساعات الأولى من صبيحة يوم الاثنين 04 من أوت 1578م، أصيب عبد الملك القائد العام للقوات المغربية بقيء مستمر، وإسهال شديد ،وارتفاع في درجة الحرارة .

ودارت إشاعة مفادها أن عبد الملك قد أصيب بتسمم ، وأنّ سما دسّ له في كعك أعطاه له رضوان العلج[4].

---

(1) نهر في منطقة القصر يبلغ عرضه 50مترا، مع جرف ترابي ذي ارتفاع من ثلاثة إلى أربعة أمتار، يصب في نهر اللوكس، حدثت فيه معركة وادي المخازن الشهيرة . أنظر الخريطة في الملاحق.

(2) يونس نكروف : المرجع السابق ، ص 177.

(3) نفسه.

(4) عبد الله العمراني : المقال السابق ، ص 47.

ومما ذكر في سبب وفاة عبد الملك السعدي، والمعركة مستعرة ما رواه ابن القاضي بقوله : « ... كان سبب وفاة السلطان أبي مروان رحمه أنه سقي سما وذلك أن قائد الترك –الذين كانوا معه– واسمه رضوان العلج بعث إلى بعض قواته أن يتلقوه بكعك مسموم، هدية للسلطان المذكور وقت مرورهم عليه، وقصد بذلك قتله بعد أخذه مدينة فاس ليثبت لهم ملكها، فلم يكمل الله مرادهم لما شاهدوه من عظيم جيش المغرب، فهذا كان سبب موته رحمه الله ... »[1]، لكن طبيب عبد الملك الخاص لم يثبت هذا الإدعاء في الرسالة التي وجهها لأخيه بإسبانيا ،يصف له فيها ما حصل في المعركة ،باعتباره شاهد عيان حضر المعركة ولازم السلطان عبد الملك[2] إلى حين وفاه الأجل. وسأدرج الرسالة كاملة في المتن حسب تسلسل الأحداث.

8ـ التنظيم القتالي لجيش مولاي عبد الملك السّعدي :

تختلف المصادر العربية ،والأجنبية ،اختلافا كثيرا حول عدد قوات الجيشين، فبالنسبة للجيش السعدي[3]كان يتراوح ما بين أربعين ألف ومائة وعشرة آلاف مجاهد، يملكون تفوقًا في الخيل مابين عشرة آلاف وعشرين ألف فارس، أما المدافع فكان عددها ما بين عشرين و أربع وثلاثين ومعنوياتهم كانت عالية جدًا لسببين:

الأول :أنهم ذاقوا حلاوة الانتصار على أعدائهم البرتغاليين المحتلين عندما انتزعوا منهم ثغورًا، كانت محاطة بسياج من الأسوار العالية، والخنادق العميقة والحصون المنيعة.

ثانيا :يعلمون أن نتيجة المعركة هذه، يتوقف عليها مصير بلادهم كلها، فــ"سبستيان" ومن معه يمثلون حركة توسع على حساب الإسلام وأراضيه، وذكرى سقوط غَرْناطة وضياع الأندلس أرضًا وسكانًا، حادثة لم تنسَ بعد، إنها ماثلة قُبالة الشعب كله بلا استثناء.اختار عبد الملك المعتصم بالله القصر الكبير مقرًا لقيادته، وخصص من يراقب تحركات "سبستيان" وجيشه بدقة ،وحسب الخطة التي رسمها عبد الملك للمعركة، ومن ضمنها أن وادي المخازن لا معبر له سوى هذه القنطرة حيث وجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه أحمد فهدمها. فعزل الجيش البرتغالي وسدت عنه منافذ النجاة وإمكانية التراجع للوراء[4].

---

(1) نفسه ، ص ص 42 – 47. نقلا عن ابن القاضي.

(2) قال عنه المؤرخ الأسباني منويل : « كان أمر هذا الرجل عجبا في الحزم والشجاعة ... ليموت مجاهدا شهيدا » أنظر محمد حجي : **مشاهير رجال المغرب** ، دار الكتاب المصري ، د ، ت ، المجلد 5 ، ص19.

(3) عبد الرحمان القباج : المقال السابق ، ص 244.

(4) سعيد أعراب: المقال السابق ، ص92.

كانت وضعية الجيش المغربي بقيادة عبد الملك السعدي على أرض المعركة على شكل الهلال المفتوح[1]،قد أعدّ بدقة وحنكة عسكرية متناهية ،حيث كانت مدفعية الجيش المغربي في المقدمة ، تليها مباشرة صفوف الرماة والمشاة، وفي الركن الأيمن للهلال تركزت قوات مولاي أحمد مع ألف من حملة البنادق على ظهور الخيل، وفي الركن الشمالي للهلال ، القائد "محمد زرقون " ومعه ألفان من حملة البنادق الخيالة، وبقربه عشرة آلاف قنّاص يواجهون وحدات الشريف مولاي محمد (المسلوخ) وبعض القادة منهم الضون دوارت دومتريس (don Duert deMennesses) والضون أفيرو(don duc verou).

وفي الجناح الأوسط من الهلال، كانت تتمركز قوات مقدرة بعشرين ألف مقاتل من القناصين الخبراء، وبجانبهما خمسة عشر ألفا من حملة البنادق في فصائل متباعدة يقودهما القائدان "دوغالي"[2]."ومحمد فابا"، وفي وسط الهلال كان يقف الحرس الشخصي للشريف عبد الملك،بقيادة القائد موسى، وفي المؤخرة بقية الخيالة، أي عشرين ألفا في خط مستقيم يقوي الخط النصف الدائري للصف الأول[3] أمّا الألف فارس من القبائل التي لبت الجهاد فقد وضعهم عبد الملك على مرتفعات الهضاب بالقرب من أخيه أحمد لأن تجربته السابقة معهم، جعلته يتخوف منهم ولا يطمئن إليهم.

وامتازت خطة عبد الملك بوجود كوكبة احتياطية من الفرسان ستنقضّ في الوقت المناسب متى رأت أن الوحدات المغربية تحتاج إلى الدعم والمساندة ، وهي في غاية الراحة، لمطاردة فلول البرتغاليين واستثمار النصر.

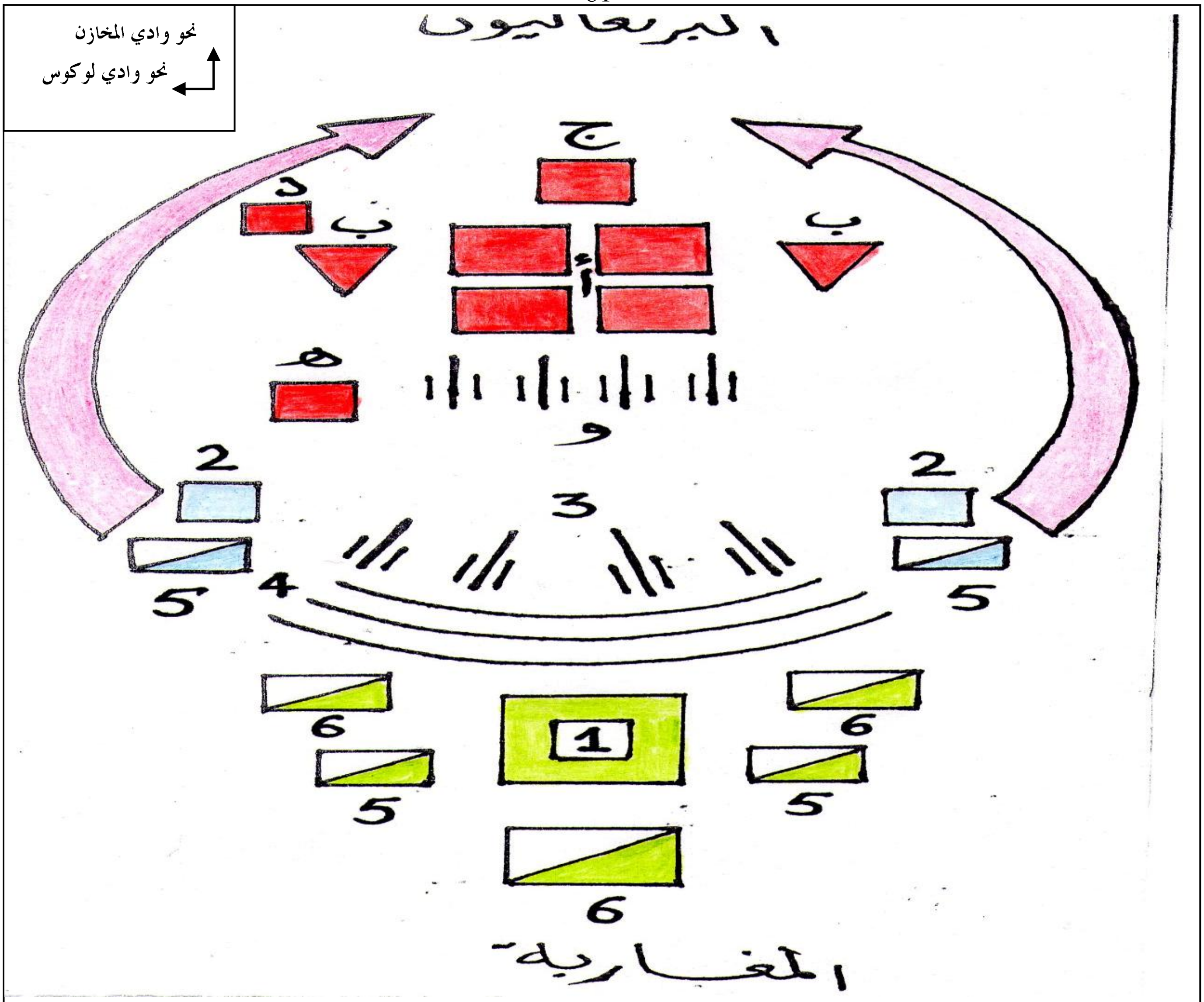
كما اعتمد عبد الملك السعدي على قادة عسكريين، لهم من الخبرة العسكرية الكثير، نذكرمنهم أبو علي الغوري ،والحسين العلج ومحمد بن طيبة،و علي بن موسى، وأخوه أحمد بن موسى الذي كان عاملا على مدينة العرايش. وقد استثمر عبد الملك طريقة الأتراك في خوض المعارك الكبرى،سواء في سلاح المدفعية، أو تسيير الفيالق، بما له من تجربة كبيرة في تعامله مع الأتراك في الكثير من المواقع كمشاركته في تحرير تونس . وقد وضع المؤرخ فراي لوي نييطو (Fray luis nieto) رسما تخطيطا لوضعية الجيشين على الميدان وهو كالتالي:

---

(1) نفسه ، ص 93.

(2) قائد فرقة الأندلسيين في معركة وادي المخازن اسمه سعيد بن فرج يعسوب من قرية نطيش بغرناطة قتله المنصور رفقة ثلاثة من القادة وهم محمد زرقون وأبو الفضل الفري ومحمد ابن أخيه بسبب تآمرهم أنظر الفشتالي : المصدر السابق، ص 41.

(3) يونس نكروف : المرجع السابق ، ص 185.



رسم تخطيطي لمعركة وادي المخازن كما تخيلها المؤرخ فراي لوي نييطو Fray luis nieto

أ- الكتائب الأربعة الرئيسية التي تحيط بملك البرتغال 1 - الرماة المشاة محيطون بالعاهل المغربي عبد الملك السعدي[2].

والفرسان والرماة[1].

ب- الفرسان . 2- الرماة الفرسان .

ج- الحراسة الخلفية . 3- المدفعية .

د- فرقة المتوكل حليف ملك البرتغال . 4- ثلاثة صفوف للرماة المشاة

ه- الفرسان . 5- الفرسان .

و- المدفعية . 6- فرسان الاحتياط .

(1) استعمل عبد الملك السعدي في معركة القصر الكبير خطة، هي الانقضاض على الجيش الصليبي بغلق الهلال على الأجنحة.

(2) أنظر مجلة دعوة الحق المغربية ، عدد 8، 1978 ،ص 28.

– عبد الملك يقاوم المرض ويخطب في جيشه :

ساعات قليلة قبل المواجهة والصدام، أخذت الكتائب أماكنها وصفت الخيل، ووجهت أفواه المدافع لكل خصم ينتظر الإشارة،وقف عبد الملك خطيبا في جيشه، مذكرا بوعد الله للصادقين المجاهدين بالصبر، وتمّثل بآيات قرآنية عادة ما يذكّر بها في الدقائق الحرجة والأوقات الصعبة في المواجهة، للرفع من درجة الإيمان، والثبات عند الاصطدام، فقرأ قوله تعالى :« وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه إنَّ اللهَ لَقويٌّ عَزيزٌ »(1).

« يَا أَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِتْ أَقْدَامَكَمْ »(2).

«وَيَأبَى اللهُ إلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَه وَلَوكَرِهَ الكَافِرُون »(3).

كما ذكّر بوجوب الثبات و ضرورة النظام –وهو يغالب المرض– في ساعة حاسمة من تاريخ المغرب(4).

ثم تمالك نفسه وقال:

« ... وأنتم تعرفون أن الخيانة والغش لا يمكن أن يؤديا إلاّ إلى عواقب وخيمة ، تذكروا أنكم مقدمون على مجاهدة الكفار، فليكن سلوككم وتصرفكم كمسلمين أحناف، ولا تنسوا أنكم سواء غلبتم أم غُلبتُمْ ستفوزون بالجنة؛ التي وعد بها النبي صلى الله عليه وسلم ،أولئك الذين تدافعوا بقوة السلاح عن حوزة الوطن، وينافحون عن شريعة رب العالمين ... »(5).

في هذه الأوقات العصيبة والمعركة على وشك الاندلاع، كان عبد الملك السعدي القائد العام للقوات المغربية ،يعاني أوجاع المرض .

أما في الجانب الثاني وفي معسكر البرتغال ،كان الملك سيبستيان يتلقى الهدية الرمزية من خاله فيليب الثاني، من طرف سفير إسبانيا في البرتغال، وهي الخوذة التي كان يلبسها جده شارل الخامس ، عندما دخل تونس سنة 942هـ/1535م منتصرا، ففرح سيبستيان بالهدية وأيقن أن النصر سيكون حليفه.(6)

---

(1) سورة الحج : الآية 40 .

(2) سورة محمد : الآية 07 .

(3) سورة التوبة : الآية 32 .

(4) شوقي أبو خليل : المرجع السابق ، ص63 .

(5) عبد الله العمراني : المقال السابق، ص 47. نقلا عن مانويل كاستيانوس في كتابه Description Historica Marruecos .

(6) نفسه ، ص45 .

10 ــ اندلاع المعركة :

في يوم الاثنين آخر جمادى الثانية 986هـ/ الرابع من أوت 1578م عند الظهر[1] ،أعطيت الإشارة لمقدمة الجيش البرتغالي بالهجوم ، وانقضت على الجناح الأيسر للمسلمين انقضاض الصاعقة، فظهر منهم ذهول ووهن ؛ وعند ذلك بادر عبد الملك وانطلق فاتحا الطريق أمام جيشه فألتحم الجيشان ، وتصادمت الجموع ،ودوّت المدافع واسودّ أفق السماء [2].

وقد وصف لنا الشاهد الأول الطبيب اليهودي الخاص لعبد الملك المعركة بقوله:

«.... أمر الملك بإطلاق نار المدافع التي كانت عدها أربعة وعشرين قطعة جيدة ولما أطلقت المدافع طلقاها مرتين ،ألحقت بالنصارى أضرارا ،كما ظهر لي ، وكما علمنا فيما بعد ،فأجاب عليها النصارى بمدافعهم ،قتل بها فرسان ورجل من حاملي علم الملك ... وفي هذه الأثناء اقترب الجمعان من بعضهما، واحتدم القتال من الجانبين، وجعل فرساننا يهجمون على النصارى المدرعين وتقدمت بعض الفيالق من النصارى على يميننا، وشمالنا، وأشتد هجومهم علينا بشراسة ،لدرجة تراجع رجالنا من المشاة والفرسان،وصاروا وراء علم الملك،يبحثون عن النجاة ... واعتقدت أننا سوف نهلك ... إن الملك لما رأى رجاله ينهزمون ... إستوى على جواده وامتشق سيفه ثم ارتعش ارتعاشا شديدا.... فوجدته قد لفظ أنفاسه ...

وصرت أسقيه الماء حتى لا يشعر الناس بموته ...وفي هذا الوقت كان على يميننا مولاي أحمد فحمل حملة قوية على النصارى، أنزل بهم خسائر فادحة، وفعل ذلك مرتين أو ثلاثة وبذلك ضيق عليهم الخناق... ولما شاهد النصارى هزيمتهم جعلوا يقيمون الحواجز، مستخدمين فيها العربات التي أتوا بها فقاتلوا وراءها حتى قتلوا ،أو وقعوا في الأسر،وكان عددهم ثلاثين ألفا ،لم ينج منهم إلا عشرون أو خمسة وعشرون من فرسان طنجة ....

وكان مولاي محمد قد فرّ مع شرة من الفرسان لما شاهد الهزيمة وكان من بينهم أولاد بن تودة وحمو بن معيزة فأرادوا اجتياز النهر[3] فغرق المتوكل وأفلت فرسه ، ومات ملك البرتغال متأثرا بجرحين أصيب بهما.....» [4].

---

(1) وهناك من ذكر أن المعركة اندلعت في حدود الساعة التاسعة أو العاشرة من صباح يوم الاثنين أنظر
Henry de Castries : Op. Ci t , France,T1,p 675.

(2) Fillas .M.A : Op. Ci t ,p124.

(3) لأن النهر كان في حالة جزرأي أن المياه فيه قليلة، مما جعل المرتمين فيه يفاجئون بالأوحال، فمات من مات وأسر من أسر.

(4) محمد بن تاويت: **وثيقتان هامتان عن معركة وادي المخازن** ،في مجلة دعوة الحق ، عدد 8 ، 1978م .ص50.

أما الشاهد الثاني فهو جندي إنجليزي كان في الحملة قال:

«...وفي اليوم التالي ،وكان رابع أغسطس لسنة 1578م، قسّم ملك البرتغال جيشه إلى أربعة كراديس ،وعين القائد "ضون دويرطي دى منيس"(don Duert de Mennesses)في قيادة المقدمة، أمّا الكردوس الثاني فإن ملك البرتغال ، تولّى بنفسه قيادته ، وكان على الميمنة "الشريف الأسود" (1) مع فرسانه وكان على الميسرة "دوق فيرو"(Duk Deverou) الابن الأكبر لدوق" برنكسي " مع أربعة فيالق ، وقد قام مولاي عبد الملك بنفس الترتيب في عسكره ... فوجه الملك مولاي عبد الملك أولا هجوما عنيفا على فرسان البرتغال المقاتلة ، ولكنهم دافعوا على أنفسهم بشجاعة ، وانتهوا أخيرا إلى اضطرار رجال مولاي عبد الملك إلى التأخر بعد فقدان الكثير منهم .ولكن مولاي "ملوك" مع هذا لم يهن أبدا .

وقد قذف برجاله ثانية في أحسن ترتيب لخوض المعركة من جديد، هاجما بعنف وشدّة على فرسان ملك البرتغال ، فجعلهم ينهزمون إلى قلب الميدان .ثمّ أن فرسان البرتغال ، وهم غير قادرين على جمع شتاتهم مرة أخرى ، في نظام أحسن ، هجموا على المسلمين نفس الهجوم العنيف ، بحيث أنهم قتلوا عددا عظيما منهم . فأعاد هؤلاء الكرة على فرسان البرتغال ، ولم يهنوا واكرهوهم على الاختلاط بمشاتهم .

ثم هجم فرسان البرتغال على المغاربة من جديد ، و لكن كانوا قد قتل أحسن رجالهم من قبل ، ولم يكن لهم غوث جديد ... فقد فروا عن زملائهم مرتاعين هلعين ، ضاربين في بلاد غريبة عليهم ، وهم بين أعدائهم يقاتلونهم ، وقواتهم تفوقهم(2). فما استطاعوا أن يفعلوا أحسن من هذا الفرار ، ... وظل أولئك المغاربة على ثباتهم في مراكزهم ، كاسرين لقوى أعدائهم ، مبددين لنظام فرسان البرتغال ، مشتتين شملهم ، قاهرين لصناديدهم ، ... يقتلونهم ويأسرونهم فلم ينج من ذلك إلا نحو ثمانين أو مئة رجل على الأكثر ، استطاعوا الفرار والنجاة بأنفسهم ، إلى الأسطول .وقتل في جميع رجال المعركة ثلاثة آلاف ألماني ، وسبعمائة طلياني وألفان من الأسبان كان منهم "ضون ألنسو دا كيلير"(Don AlonsoDogolar) فارس قرطبة ... » وقد ذكر هذا الإنجليزي، أن البرتغاليين فقدوا في المعركة اثنين وعشرين قطعة من المدفعية، وسبعمائة مركبة ،وقتل من المغاربة نحو أربعين ألفا، أو خمسين ألفا.

---

(1) المقصود بالأسود محمد المتوكل لسواد بشرته .

(2) محمد بن تاويت : المقال السابق ، ص 55 .

– وفاة قائد الجيش المغربي عبد الملك :

في هذه الساعة المحرجة والظرف الدقيق، شعر عبد الملك بتدهور صحته ، وقد أثّر الإجهاد على نفسه بسبب المرض؛ الذي أصابه وهو في طريقه من مراكش، فعاد إلى خيمته ليلفظ أنفاسه واضعا سبابته على فمه، وكأنه يشير إلى كتم سره وإخفاء موته، حتّى لا يؤثر ذلك على معنويات الجيش وسير المعركة.

وقد ذكر في هذا الصدد صاحب تاريخ الدولة السعدية ما نصه :

«...ولّما اشتدّ مرض السلطان جعلوه في جحفة على رؤوس الناس ،يصلح أحوال الصفوف ويحرض الناس ويشير إليهم بيده، وأمرهم أن يحذروا أفواه الأنفاض وأرسل أخاه مولاي أحمد إلى ملاقاة الخيل وقد كشف رأسه ،وترجل وأبدى وأعاد وأبلى بلاء حسنا مع المسلمين وطال القتال، وكان القائد الطائع[1] لّما اشتدّ الأمر بالسلطان وخرجت روحه ،والناس يقاتلون لم يظهر موته لأحد، خوف افتراق كلمة المسلمين ... ويطلب الماء يوهمهم أن السلطان أراد أن يشرب ثمّ يهرقه معه في الجحفة ويستدعي ماء آخر، يوهمهم بذلك والسلطان ميت ... » .[2]

علم أحمد المنصور بوفاة أخيه ، فأراد أن يجعل لهذا المأزق مخرجا ومنفذا ،والحرب مستعرة فمال بمقدمة جيشه على مؤخرة العدو،بينما اتجهت الميسرة ضد الرماة ،فتهالك المسيحيون صرعى من جراء هذه الصدمة العارمة وولوا الأدبار، ونيران المغاربة تحرقهم وحرارة الصيف الشديدة تلفحهم، فدارت عليهم الدائرة ،وعملت السيوف في رقابهم.

قال عبد العزيز الفشتالي:

« ... رجاله الأبطال إذ أحرقهم شرر البندق، ولفحت وجوههم نار البارود، تقهقروا يتدرف بعضهم ببعض ...المشركون جعلوا المنصور غرضا للرمي ،فأصابته أيده الله يومئذ جراحات بالبندق، مشطت إحداها ظاهر قدمه ،وغاصت في أحشاء فرسه ،من تحت ركابه فمات الفرس منها في المعترك ،وأصابته أخرى في صدره ،فكانت بردا وسلاما ،وخارقة أظهر الله بها عجائبه...»[3]. فوصف الفشتالي بذلك بطولة أحمد المنصور، والدور الذي قام به في المعركة عند وفاة أخيه في أول الاصطدام.

)1(رضوان العلج ، حاجب المولى عبد الملك ، أخفى مماته أثناء معركة وادي المخازن مخافة أن يؤثر ذلك على معنويات الجيش المغربي .أنظر عن ذلك : محمد الصغير بن الحاج الأفراني: المرجع السابق ، ص 75.

(2) المجهول : المصدر السابق ، ص 61.

(3) عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص 38.

– ساعة النصر :

في وقت الهاجرة والشمس تلفح الوجوه، تكبد العدو خسائر جسيمة في صفوفه؛التي تهلهلت،وتفككت ،وسقط الكثير من الجنود صرعى ولاذوا بالفرار قاصدين القنطرة ، معتقدين أنها مازالت قائمة فارتموا في الواد يسبحون ولكنه كان فوق ما يطيقون، فأبتلعتهم مياه النهر الذي كان في حالة جزر– أي أن المياه فيه قليلة – ولم ينج منهم إلا القليل، ووقع الكثير منهم ما بين قتيل أو غريق في النهر أو أسير.

وفي هذا الصدد ذكر عبد العزيز الفشتالي بقوله : « .... وناهيك بيوم أجلى عن ثلاثة ملوك موتى ،ما بين مجندل وغريق وفائض النفس حتف الأنف وعن ثمانين ألف من المشركين — ما بين قتل وأسر... » [1].ولم يستطع الفرار من المعركة إلا عشرون ، وقيل خمسة وعشرون، وعلى أكثر تقدير مئة من فرسان طنجة المحتلة [2].

– مصرع الملك سيبستيان :

لقد أضفى المؤرخون الأوربيون على الضون سيبستيان صفة البطولة والشجاعة النادرة ،إذ تفرق عليه الجيش البرتغالي الذي انهزم وولّى الأدبار، ليقع بين سيوف المغاربة ومياه نهر وادي المخازن ،فراح معظمه بين غريق يستنجد وقتيل مجندل وأسير ينتظر الفداء ، في هذه الظروف كان الملك يقاتل وبرفقته سبعة أو ثمانية فرسان من الذين عرفوا بالقوة والشدّة وزعموا أن الملك قتل تحته ثلاثة أحصنة ولم يقع قتيلا إلا بعد أن أحاط به حوالي ستون فارسا مغربيا ليردوه قتيلا[3].

– غرق محمد المتوكل :

بعد أن شاهد محمد المتوكل بأم عينيه جيش حليفه البرتغالي ينهار،وينفلت عقده ، تأكد أن الهزيمة واقعة لا محالة وأن حكمه للمغرب بات بعيد المنال ، فوكز فرسه هاربا على أمل النجاة بنفسه من سيوف المغاربة المتعطشة لدمه ليسقط في مياه نهر المخازن غريقا ، حيث انتشلت جثته، وسلخ جلده،وحشي تبنا،وطيف به في أزقة مراكش، ليكون عبرة لمن يعتبر[4].فخيانة الأوطان والدين، والتعاون مع العدو ،جريمة لا يمكن للشعوب أن تغفرها، مهما كانت الأسباب والمبررات.

---

(1) عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص39.

(2) Marc-André Nolet : **Les renégats : Leur contribution a la construction de l état marocaine du 16 siècle au 17 siècle** , Mémoire , Université du quebec à Montereal , Mai 2008 ,p 53 .

(3) يونس نكروف : المرجع السابق ، ص 192.

(4) سعيد أعراب : المقال السابق ، ص 93.

– زمن المعركة :

كان الوقت الذي استغرقته المعركة قصيرا جدا ،إذ حددت المصادر المحلية أن زمن المعركة كان 52درجة أي أربع ساعات[1]. وثلث الساعة، وفي هذه المدة القليلة استطاع الجيش المغربي أن يهزم الجيش البرتغالي ويشتت جموعه، وقد جرت العادة في هذا النوع من المعارك التي يتم فيها حشد الآلاف المؤلفة من المقاتلين قد تستغرق أياما، أو حتى شهورا ،ولعل الظروف الطبيعية والأجواء الدقيقة التي وقعت فيها المعركة ، والخطة المحكمة التي وضعها لها عبد الملك من هجوم مضاد وقطع الطريق على العدو جعلها تنتهي بهذه السرعة ،في حين ذهب بعض المؤرخين الأوربيين أن المعركة استمرت أربعا وعشرين ساعة أي يوما بكامله، وهذا ما لم تثبته المصادر المحلية [2].

6– دور العلماء في المعركة :

أدى العلماء والصلحاء دورا متميزا في معركة وادي المخازن بتعبئة القوات المغربية؛ومساندة نداء الجهاد الذي أطلقة المولى عبد الملك في أرجاء المغرب" أن أقصدوا وادي المخازن للجهاد " ومن العلماء المجاهدين، الذين شاركوا في موقعة وادي المخازن، الشيخ أبو المحاسن[3] الذي رويت له في الموقعة كرامات منها أنه قال لرجل من أصحابه :

« .... ناد في الناس أن : ألزموا بلادكم ودوركم فإن عظيم النصارى مسجون حيث هو حتّى يجيء السلطان من مراكش ، والنصارى غنيمة للمسلمين ، ومن شاء فليعط خمسين أوقية للنصراني...». وقد حضر الشيخ هذه الموقعة وأبلى فيها البلاء الحسن ، وتورع عن الغنيمة و لم يأخذ شيئا منها[4].

أما صاحب كتاب الاستقصا فذكر نقلا عن كتاب مرآة المحاسن ما نصه :

« ....كان الشيخ أبو المحاسن في ذلك اليوم في أحد الجناحين ، وأظنه الميسرة ، من عسكر المسلمين في مقابلة النصارى دمرهم الله ، قال : فوقع في ذلك انكسار تزحزح به المسلمون عن مصافهم، وحملت عليهم النصارى، دمرهم الله فثبت الشيخ، وثبت من كان معه إلى أن منح الله

---

(1) Ernest Mercier **: Histoire de l àfrique Septentrionale** , paris ,T3 , p 124.

2) M. A.Fillias (: Op. Ci t , p 125.

(3) الشيخ أبو المحاسن من العلماء المجاهدين ،حضر معركة وادي المخازن ؛وقد ذكرت له كرامات منها أنه قال للناس: أن النصر على النصارى أكيد، وأن الثمن الذي يباع به الأسير النصراني، هو خمسين أوقية من الذهب . للمزيد من الإطلاع أكثر أنظر أبو حامد محمد العربي الفهري : المرجع السابق ، ص 147 .

(4) نفسه.

المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون ، والشيخ لم يتزلزل ، ولم يلتفت لقتالهم منذ توجه إلى قتالهم حتّى فتح الله عليهم ....»[1].

وممن وجد صريعا بين القتلى – حسب ما رواه الناصري – يومئذ الفقيه "أبو عبد الله محمد بن عسكر السريفي الشفشاوني" صاحب كتاب "دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من أهل القرن العاشر" حيث قال:«... فإنه كان قد هرب مع المسلوخ حيث كان من بطانته ، فدخل معه بلاد العدو، ووجد بين جيف النصارى قتيلا وتكلم الناس في أمره ، حتّى قيل:أنه وجد على شماله مستدبر القبلة ... »[2] .

- دور المتطوعين الاستشهاديين :

كان الجيش المغربي النظامي في المعركة قليلا ، وأن المتطوعين الاستشهاديين، كانوا أضعاف الجيش النظامي، وهم الذين خاضوا المعركة . وللمتطوعين الاستشهاديين في تاريخ المغرب دور كبير ،كانت الدولة تعتمد عليهم ، وكانوا يقومون بالجهاد في غيبة الدولة ، وبدون مساعدتها،كما حدث في الدفاع عن سبتة عند احتلالها من البرتغاليين ، وكما حدث في تحرير كثير من الثغور التي احتلها البرتغاليون [3]. فلا غرابة أن يكون دورهم عظيما، في معركة مصيرية مثل معركة وادي المخازن، التي أججت المشاعر الدينية ، بعدما استنجد المتوكل بالبرتغاليين وحرضهم على المعركة مما أثار استنكارا كبيرا لدى الشعب المغربي،و زاد المتطوعين من تقوية معنوياتهم ، باعتبار أن الملك الذي كان بعضهم مازال يعتبره الملك الشرعي قد خان البلاد ،وتحالف مع العدو . وهذا العمل الذي قام به المتوكل ليس غريبا في بعض الدول وفي بعض العهود التي تصطدم فيها قوتان غير متكافئتين[4].

- دور الأتراك في المعركة :

بعدما علم السلطان العثماني بحشود البرتغال ، ونيتها في مهاجمة المغرب ،أوعز إلى محمد باشا صقللي بأن يأمر والي طرابلس ، بنجدة عبد الملك السعدي،فسارع هذا الأخير إلى توجيه فرقا

---

(1) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : المرجع السابق ،ج 5 ، ص 80 .

(2) نفسه ، ص 81 .

(3) عبد الكريم غلاب : **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي** ، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 2005، ج2، ص310.

(4) نفسه .

عسكرية لمواجهة البرتغاليين[1] في القصر الكبير. حيث ذكر محمد فريد بك في كتابه تاريخ الدولة العلية العثمانية ما نصه :

«... واستعان مدعي الملك بالبرتغاليين، فأوعزت الدولة أو بالأحرى محمد باشا صقللي لوالي طرابلس بإنجاد سلطانها الشرعي ،فأسرع إلى مساعدته، والتقى الترك والبرتغال بالقرب من محل يقال له القصر الكبير،وكان يوما مشهودا ،دارت فيه الدائرة على البرتغال،وبعد تمام النصر وإعادة الأمن والسكينة إلى ربوع مراكش ،عادت الجيوش العثمانية حاملة ما أغدق إليها ، من هدايا...»[2]. في حين أمر"حسن فنزيانو" البحرية الجزائرية بالتوجه نحو الشواطئ الإسبانية الجنوبية، وشواطئ المغرب الشمالية[3]، حيث كان حسن فنزيانو يراقب الوضع المغربي عن كثب، ويضع هذه القوات على أهبة الاستعداد للتدخل في المغرب،إذا ما طلب عبد الملك السعدي ذلك، و لم تعد هذه القوات إلى الجزائر، إلا بعد أن زال خطر البرتغاليين وتم الانتصار الباهر للمغاربة في معركة وادي المخازن، حيث شارك الأتراك بفرق عسكرية سواء كانت تنتمي للجيش النظامي أو كمرتزقة،استعملوا في سلاح المدفعية ،أو كحملة بنادق نارية، نظرا لخبرة هؤلاء في الدقة التصويب بالسلاح الناري[4].

وقد ذكر الجنابي في كتابه "البحر الزخار والعلم الطيار"، أن أتراك الجزائر قاموا بمهاجمة بعض القطع من أسطول سيبستيان، حيث كانت هناك وحدات عسكرية تركية يقودها أمير البحر "الرايس سنان"، تترقب في معسكرها "بجبل القنديل"- وهو جبل بالقرب من طنجة – القطع البحرية للضون سيبستيان على المحيط الأطلسي، والتي ترك عليها حوالي خمس عشرين ألف بحار، وأخذ معه ستين ألف مقاتل إلى أرض المعركة في القصر الكبير، فقام "الرايس سنان" بمهاجمة قطع الأسطول البرتغالي[5]، وأستطاع أن يأسر سفينتين كبيرتين، وعمارة صغيرة على متنها425 بحار، كما دمر الأتراك 35 سفينة من نوع كورفات corvettes[6].

---

(1) محمد فريد بك المحامي: المرجع سابق ، ص 114.

(2) نفسه ، ص 106.

(3) Fray Diego de Haédo : Op.Ci t, p 176.

(4) شوقي أبو خليل : المرجع السابق ، ص 75.

(5) وقد نفى الدكتور عبد الكريم غلاب في كتابه قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي ،ج2، ص 309، مشاركة أي طرف في المعركة سوى المغاربة ، لكن كيف نفسر الأمر الذي أصدره السلطان العثماني إلى باشا الجزائر بمساعدة عبد الملك، بأربعة آلاف أو خمسة آلاف، وقد غادروا الجزائر في ماي 1578م. للمزيد أنظر عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 205.

(6) مصطفى بن حسن الهاشمي الجنابي : المصدر السابق ، ص 352.

- عوامل النصر للمغاربة :

كان وراء النصر الذي أحرزه المغاربة في هذه المعركة عدّة عوامل أذكر منها :

1- الرغبة في الثأر لمأساة الأندلس، التي لم يندمل جرحها في قلوب المسلمين، والتي تمثلت فيها الصليبية الحاقدة في أبشع صورها. وصدق الشاعر حين قال:

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان[1].

2- الخطّة المحكمة التي وضعها عبد الملك لإستراتيجية المعركة ، فاستدرج خصمه قريبا من مكان قيادته ، وسدّ عليه المنافذ الأخرى في البر والبحر .

3- نسف القنطرة التي كانت المنفذ الوحيد للعدو إن أراد التراجع ليعيد الكرة ما أمكنه ذلك.

فوجد عند تراجعه مياه وادي المخازن التي أعاقت فراره، فدبّ الهلع في صفوفه، وتفرقت كتائبه وغرق من غرق في الوادي، وقتل بالرصاص والسيف من قتل.

4- الاستجابة الواسعة للنفير العام، الذي أعلنه عبد الملك في الجنوب، وأخوه أحمد المنصور .

5- الدعم الذي أعطاه عبد الملك لجيشه عند الصدمة الأولى ، وتولي احمد المنصور زمام المبادرة بعد وفاة أخيه[2].

6- كانت خيل المسلمين أكثر عددا من خيل النصارى ، وربما كانت حرب السهول مواتية للفرسان، أحسن من المشاة .

7- نهج عبد الملك في تسيير المعركة، وتنظيم القتال الطريقة العثمانية ،نظرا لفعاليتها ضد الأوروبيين ولخبرته بها ،حيث سبق له أن شارك في المعارك التي خاضها الأتراك في الجزائر وتونس، ولهذا أولى اهتماما خاصا بالمدفعية الثقيلة وفصائل المشاة ، وبذلك تفوق المغاربة في سلاح المدفعية رغم قلة قطعها أمام المدفعية البرتغالية ،وهذا لخبرة الأتراك في هذا السلاح ودقة تصويبهم. [3]

8- اشتراك خبراء من العثمانيين،تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية،ومشاركة مجموعة من الأندلسيين الذين عرفوا بدقة التصويب ،مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية[4].

9- الاختلاف بين القاعدة والقمّة في الجيش الصليبي، فرؤساء الجيش لم يكونوا مؤمنين بالخطّة التي وضعها سيبستيان ، فكان ذلك من دواعي الفشل .

---

(1) البيت الشعري لأبي البقاء الرندي من قصيدة طويلة في رثاء الأندلس .

(2) عبد المجيد قدوري : المرجع السابق ، ص 179 .

(3) عبد الرحمان القباج : المقال السابق ، ص 244.

(4) علي محمد محمد الصلابي:**صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي**،دار الفجر للتراث، القاهرة ، ج2، ص676.

10- المشاركة الشعبية الفعالة ،حيث جندت كل فئات الشعب المغربي، وراء هذه المعركة المصيرية حيث استجيب للنفير العام، الذي دعا إليه عبد الملك في الجنوب، وأخوه أحمد في الشمال[1] وهذا يبرز دور تماسك الجبهة الداخلية أمام الأعداء.

11- صدق الأخوة بين الأخوين (عبد الملك وأحمد) ،فلم ينافس أحمد أخاه على الملك ،رغم انه كان واليا على فاس، مطلق السلطة، بينما كان أخوه في مراكش يصارع المتوكل.فهذا مازاد في تماسك الصف يوم المعركة[2] .

- عوامل الهزيمة للبرتغاليين:

اجتمعت عدة عوامل وأسباب أدت بالجيش البرتغالي إلى الهزيمة، اذكر منها :

1- عدم استماع الملك البرتغالي إلى أراء من نصحوه بالتريث، إلى أن يتم الاستعداد للحملة بشكل أفضل ،حيث نصحوه أن يبقى بأصيلة، حتى تصل الجيوش المغربية ويبقى على اتصال بالقوى البحرية، تمده بالمؤن والعتاد وبالرجال، إن اقتضى الحال ذلك[3].

2- لم يكن من الملائم أن يتولى الملك مباشرة قيادة الجيش البرتغالي ، لأنه قليل الخبرة وليست لديه معلومات عن وسائل وإمكانيات الطرف الآخر[4].

3- نقص المعلومات لدى القيادة البرتغالية عن الجيش المغربي، ومدى استعداده للمعركة، مما جعل البرتغاليين يخفقون في تقديراتهم[5].

4- العوامل الطبيعية (شدة الحرارة) التي أثرت على قدرات الجيش الصليبي؛ الذي لم يتعود على هاجرة المغرب[6].

5- الاختلاف وعدم الانسجام في القيادة العسكرية للجيش البرتغالي.

---

(1) محمد حجي: **المغرب في عهد الدولة السعدية** ، في م د ح ، المغرب أوت ، سبتمبر 1980، عدد 5 ، ص 30.

(2) عبد الكريم غلاب : المرجع السابق ، ص 311.

(3) سعيد أعراب : المقال السابق ، ص 92.

(4) إبراهيم حركات : **السياسة و المجتمع في العهد السعدي** ، ص 74 .

(5) L.A. Rebello da silva : **Invasion et Occupation du royaume de Portugal en 1580**, Imprimerie renou et maulde ,Paris , 1864 , T1 , p 183 .

(6) فقد تكلم شاهد عيان عن المعركة فقال :«... إن النبلاء الأسبان والفرسان البرتغاليين تركوا خيولهم متعبين أذلاء وما التجئوا في ظل العربات إلا ليرتاحوا من حر المعركة ، بعد أن رأوا كل شيء يضيع ، ركنوا للفرار ، وحاولوا الهرب على الأقدام أو الخيول ، فأخذوا طريق أصيلا ، وتعرضوا لمذبحة كبيرة... ». أنظر زهر الدين صالح :**موسوعة معارك العرب منذ الفتح العربي حتّى 1968م** ، ط1، دار الندوة الجديدة ، بيروت 2000 ، ص 818.

المبحث الثالث:

– النتائج .

انتهت معركة وادي المخازن التي توفي فيها الملوك الثلاثة ، الأول ميتة طبيعية هو عبد الملك السعدي ،والثاني بالسيف هو الضون سيبستيان البرتغالي والثالث غريق الواد هو المتوكل السعدي وقد هلك الثلاثة وهم يتطلعون إلى عرش المغرب ،ولم يتمتع به أي منهم . وعند مغيب الشمس كان كل شيء قد انتهى، ودقّ الأمير أحمد بوق التجمع، وفي صمت عميق مليء بالحزن و الأسى أعلنت وفاة أخيه مولاي عبد الملك .

أسفرت معركة وادي المخازن الحاسمة عن نتائج بعيدة الأثر سياسيا، واجتماعيا واقتصاديا،فقد نقلت المغرب نقلة نوعية في تاريخه الحديث، وانعكست نتائجها على العلاقات الدولية في تلك الحقبة ،فأصبح المغرب ليس ذلك القطر التي تصارعت من أجله القوى الدولية المجاورة ،كمنطقة نفوذ حيوية،بل اكتسب من القوة السياسية، والعسكرية ،والاقتصادية، ما أهله إلى أن يلعب دورا بارزا مع القوى التي هيمنت على البحر الأبيض المتوسط في القرن السادس عشر. ويمكن إجمال نتائج هذه المعركة في النقاط التالية :

أولا: بالنسبة للمغرب :

أ- أعاد انتصار معركة وادي المخازن للشعب المغربي ثقته بنفسه ،ومقدرته على القضاء على المطامع الاستعمارية ،والمخططات التوسعية من القوة الأيبيرية، التي هيمنت عليه زمنا طويلا.

ب- أتاح هذا النصر للمغرب فرصة الاستقرار النسبي ،ليتفرغ إلى ضبط جهاته ، وترتيب أوضاعه الداخلية [1]وتحسين ظروفه الاقتصادية . وبعدها دخل المنصور فاس يوم الخميس العاشر من جمادى الآخر من سنه 986هـ /1578م ،حيث جددت البيعة له ، فهدأ الناس وسكنوا وباشر في تأدية مهام الحكم، لكن أبناء عمومته وأولاد إخوته فروا خوفا من شدته وبطشه[2] .

ث- من الناحية الاقتصادية تدفقت أموال كثيرة على المغرب من البرتغال؛ التي دفعت لافتداء الأسرى، فانتعشت الحركة الاقتصادية، واتسعت التجارة وعمّ الرخاء، وازدهرت الفنون والصناعات وشيّدت القصور، والمنشآت العمرانية. وما يجب ذكره أن السلطان أحمد المنصور لم يغنم كثيرا من أموال البرتغال ضمن غنائم المعركة، فقد ذكر ابن عيشوش أن الغنائم أخذها

(1) شوقي عطا الله الجمل : المرجع السابق ، ص 180.

(2) المجهول: المصدر السابق ، ص 64.

المسئولون عليها حيث قال مانصه :« ...إلا أن الغنيمة لم تقسم إنما انتهبها الناس كما اتفق لهم بحسب القوّة والبخت الدنيوي وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام، فظهر ذلك من غلاء ،وغيره وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ ... »(1).

ج – من الناحية السياسية فقد أعطت معركة وادي المخازن للمغرب زخما سياسيا قويا ،لدى دول العالم فتهاطلت عليه الهدايا ،ووجهوا له السفارات ،والبعثات وأخذ المغرب يقوم بدور بارز في السياسة العالمية(2)والتجارة الدولية وتسابقت الدول الأوروبية للفوز بالتعامل معه، والحصول منه على امتيازات تجارية .

ح – بعدما انكشف غبار المعركة وتبدد الجيش الصليبي ، تمّ إحصاء الأسرى ،والقتلى فقد ذكرت المصادر التاريخية أرقاما متضاربة في عدد الأسرى لكنها اتفقت على أنهم كانوا بالألوف(3).

وبهذا النصر المبين، ازدهرت الحركة الفكرية ،والأدبية، فبرز كتاب وأدباء أمثال عبد العزيز الفشتالي والمقري، وابن القاضي(4) وغيرهم، وقد ذاع صيت الانتصار، في أصقاع العالم الإسلامي حتّى شبهت معركة وادي المخازن بمعركة بدر الكبرى .ومما قاله الفشتالي في هذا المقام :

إذا جنّ ليل الحرب عنهم طلى العدا هدتهم إلى أوداجها شهب خرسان

من اللاّء جرعن العدا غصص الردى وعفرن في وجه الثرى وجه (بستان)(5) .

خ– توجيه أحمد المنصور عقب انتصاره ،عدة سفارات للعالم الإسلامي، يعلمهم بما حققه في وادي المخازن وبتوليته أمر المغرب ومن هذه السفارات سفارة احمد بن يحي الهزالي إلى إسطنبول يخبر فيها السلطان العثماني بما هيأه الله له من نصر مبين على أعدائه وحملت نفس البعثة رسالة إلى الجزائر مصحوبة بهدية للأمير إسماعيل(6) الموجود في الجزائر.

(1) أبو عبد الله بن عيشون الشراط : المرجع السابق ، ص 104 .

(2) سعيد أعراب : المقال السابق ، ص 96.

(3) عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص 36.

(4) هو أحمد بن محمد بن أبي العافية المعروف بابن القاضي كتب عدة تراجم عن المنصور الذهبي ويعتبر من المقربين له ، إفتاداه المنصور عندما تعرض للأسر من طرف القراصنة، للمزيد من التفصيل أنظر : أحمد بن محمد المقري : **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس** ، ط2 ، المطبعة الملكية ، الرباط 1983 ، ص239 .

(5) وهو يعني ببستان " سيبستيان" ملك البرتغال .

(6) هو الأمير إسماعيل ابن عبد الملك السعدي ، أمه تركية الأصل، تركه أبوه عند أتراك الجزائر عندما دخل المغرب لقتال ابن أخيه المتوكل ،رأى فيه الأتراك أحقيته بالملك من عمه المنصور، أستعمل كورقة ضغط مرارا ضد أحمد المنصور أنظر: عمار بن خروف، المرجع السابق ، ص ص 229- 234 .

ثانيا : بالنسبة للبرتغال :

أ– مقتل الملك :

لما نعي خبر وفاة الملك سيبستيان إلى البرتغاليين ،لم يصدقوا ذلك بسهولة ، فقالوا : لا إنه مأسور فقط في المغرب ،حيث أن المجتمع البرتغالي كان يؤمن بالخرافات ،فانتشرت الأساطير حول الملك الشاب وأنه سيعود لينتقم ممن أخذ ملكه . وقد تحدث المؤرخون عن مقتل الضون سيبستيان،وأضفوا عليه القداسة والبطولة، وذكروا أنه أصيب بضربة سيف في رأسه، وأخرى في يده اليمنى، ليسقط من فرسه مضرجا في دمائه[1].

ومن المؤرخين من ذهب أبعد من ذلك حيث ذكر: أن الملك الشاب قاتل ببطولة فائقة، وأنه أصيب بثلاث وثلاثين ضربة على رأسه[2]، حتى وقع على أرض المعركة قتيلا، وأن سلطان المغرب أحمد المنصور أمر بالبحث عن الجثة، والتأكد منها ليتم تحنيطها، وجعلها في التابوت وجهها لقصر كتامة[3].

ب – إعلان النكبة:

إذا كانت موقعة وادي المخازن قد حققت للمغرب نتائج باهرة عززت موقفه، وقوّت مركزه في العلاقات الدولية ،مع الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي ، فإنه على العكس من ذلك ،حيث كانت كارثة، ومأساة على البرتغال التي كانت دولة عظمى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

لقد فرّ من ساحة المعركة عدد ضئيل ، من الجيش البرتغالي الهائل ؛ وكان وصوله إلى أصيلا بأعجوبة ، فأقلعت السفن مسرعة وأوصلت الخبر إلى لشبونة ، فترل عليها نبأ الهزيمة كالصاعقة ، وأصابها ذهول شديد ؛ وما من بيت إلا دخله الحزن ، وعمه العويل ؛ من جراء ما فقدته من أبطالها ، وخيرة شبابها ، فجللت المدينة بالسواد ، ونكست الأعلام في سائر البلاد ، وكانت ضربة قاصمة لا للبرتغال وحسب ، ولكن للأمم المسيحية جميعها، التي تبخرت معها أحلام الصليبية والصليبيين في المغرب إلى الأبد[4] .

---

(1) Ferdinand Denis : **Chevalersque de l Espagne et du Portugal** , T2 , S , D, Paris , p197.

(2) Victoire de Heaulme : Op.Ci t , p 95 .

(3) أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني: المرجع السابق ،ص 71.

(4) سعيد أعراب : المقال السابق ، ص 94 .

حجم الكارثة كما وصفها المؤرخ البرتغالي (لويس مارية) حيث قال :

« ... وقد كان مخبوءا لنا في مستقبل الإعصار ، العصر ، الذي لو وصفته – كما وصفه غيري من المؤرخين – لقلت : هو العصر النحس البالغ في النحوسة ، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح ، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال ، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس ، وزال رونقهم ، وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل ، وانقطع الرجاء ، واضمحلّ إبان الغنى والربح ، وذلك هو العصر الذي هلك فيه "سيبستيان" في القصر الكبير من بلاد المغرب ... »[1].

فشهادة هذا المؤرخ[2]. تصف بجلاء حجم الكارثة التي حلت بالبرتغال في القصر الكبير، و التي وصف عصرها بعصر النحس "البالغ في النحوسة " كما عبّر. فزمن القوّة البرتغالية التي بنت لها إمبراطورية مترامية الأطراف ، قد ولّى إلى غير رجعة ، وتهاوت مكانتها بين الأمم المسيحية منها والإسلامية،وفقدت مكتسباتها على كل الأصعدة الاقتصادية ،والاجتماعية، والسياسية،والعسكرية، لتفقد كيانها (استقلالها)، وترابها ،وتاريخها ،وأفلست خزينتها من جراء مغامرتها في المغرب.إذ بلغت التكاليف المالية لهذه الحملة الكارثية على البرتغال وشعبها، حوالي مليون كروساضوس (عملة ذلك العصر) أي ما يقدر نصف ميزانية الدولة عن كلّ سنة .

– الظاهرة السيبستيانية وأبعادها :

كان الشعب البرتغالي يؤمن بالخرافات والأساطير ، و يعتقد في كرامات القديسين ، وللوازع الديني تأثير كبير عليه ؛ وقد خاض معركته ضد المغرب بمباركة البابوية ؛ ولذلك كان من السهل مع صدمة الهزيمة وهلاك الملك الشاب سيبستيان، أن تبرز إلى الوجود فكرة عودته بعد أن صعب على البرتغاليين تصديق خبر مقتله ، فكثرت الشائعات في الأوساط الشعبية حولها وتعددت الروايات في ذلك ؛ فمن قائل بأن الملك أسير بالمغرب أو إسبانيا ، إلى قائل آخر باختبائه في مكان مجهول خجلا من الهزيمة [3] ، هذا الأمر الذي وظفته شخصيات برتغالية راودها حلم التربع على عرش الملك الهالك ، مستغلة في ذلك تأثير الشائعات ونفوس ضعاف العقول ، لكن مساعيها باءت بالفشل، بعد تدخل "فيليب الثاني" الذي قطع على أحلامهم الطريق ، ووحد الجزيرة الإيبيرية تحت حكمه لمدة ستين سنة ، وإن اعتبر البرتغاليون هذه الحقبة استعمارا اسبانيا لبلدهم .

---

(1) شوقي أبو خليل : المرجع السابق ، ص 71.

(2) محمد قشطيليو : **مدى تأثير موقعة وادي المخازن في نفوس البرتغاليين** ، في م د ح ، المغرب جويلية 1980م ، العدد4،ص 98 .

(3)فالح حنظل : المرجع السابق ، ص 469.

وقد نشأت الظاهرة السيبستيانية من هالة القداسة الدينية؛ التي كانت تدعي أن سيبستيان اختفى إلى حين ، وسيعود لإقامة ملكه من جديد [1]، وظهر من ينتحل اسم سيبستيان لتأجيج المشاعر الوطنية وتخليص البلاد من السيطرة الإسبانية .

– كان ملك "بيناماكور" (نسبة إلى القرية التي أقام فيها قصره وحيث جرى إيقافه) أول من فتح الطريق للمنتحلين اللاحقين سنة 1584م ، وقد استطاع بلباس الرهبنة والتنسك أن يستميل البسطاء مدغدغا مشاعرهم الوطنية ، وتزايد عدد أتباعه المنخدعين به رغم الاختلاف الواضح بينه وبين ملامح الملك الحقيقي ، وسرعان ما افتضح ، وكشف أمره ؛ وأصبح مثار سخرية ، وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وأدين الأخوان المتواطئان معه ، ونفذ فيهما حكم الإعدام[2] .

– أما ثاني المنتحلين فهو "ماتيوس ألفاريس" المعروف بملك "إيريسيرا" (نسبة إلى البلدة التي أقام فيها ، والتي تقع قرب مصب نهر تاج) ، الذي كانت قصة خداعه أكثر خطورة ومأساوية ، فقد استغل سذاجة القرويين ،وتعاطفهم تحت ستار الرهبنة ،والظهور ليلا حاملا عصا الملك ، فكثر أتباعه، وشكل منهم قوة من ثمانمائة رجل، تحت قيادة أبرز مؤيديه "بيدرو ألفونسو"، وأعلن نفسه ملكا على بلدة إيريسيرا ، مدعيا أنه الملك دون سيبستيان .

وبعدما تعاظم نفوذه وكثر مؤيدوه، أخذ يطالب بالعرش والعمل على تخليص الوطن من الإسبان،ففضلت حكومة لشبونة التعامل معه بسرعة وحزم ، وحسم أمر المتمردين من أتباعه عسكريا وألقي القبض عليه، وحوكم في العاصمة ،وأعدم بالمقصلة ،وشهر بجثته ليكون عبرة[3].

– أما المزيف الثالث فيدعى "غبريال دوسبينوزا الحلواني" وهو من مادريغال بقشتالة القديمة وقد اكتشفت مؤامرته صدفة سنة 1594م من السلطات الإسبانية بعد وشاية امرأة، وشنق "بمدريغال" رغم إنكاره لما نسب إليه، وعلق رأسه على عمود التشهير لشهر كامل[4].

د– لم يلق المخادع الرابع المدعو "ماركو توليو كاتيزون" المشهور بالمشعوذ "الكالبري" أية متاعب لإقناع الوطنيين البرتغاليين في البندقية،بأنه الملك المزعوم سيبستيان سنة 1595م ،وتم توقيفه بإلحاح من سفير إسبانيا بالبندقية ، وأودع السجن لأكثر من سنة وغادره متنكرا في لباس راهب سنة 1600م،لكن أمره كشف من رجل إيطالي ؛كان يعرفه ، فسجن بنابولي، وحكم عليه بعد ذلك

(1)عبد المجيد قدوري : المرجع السابق ، ص 175 .

(2)يونس نكروف : المرجع السابق ، ص ص 206 –207.

3) Miguel dentas : Op.Ci t , p p111 - 113 . (

(4)يونس نكروف : المرجع السابق ،ص ص 212 -213.

بقطع يده ، ثم شنق في إحدى الساحات العامة سنة 1603م [1] و لم تتوقف الظاهرة السيبستيانية رغم النهايات المأساوية لأصحابها ، وشكل السيبستيانيون من دعوى الأمير المختفي على مر الأيام أسطورة تغذيها الإشاعات حتى ضعفت، ولكنها زالت من البرتغال لتظهر بالبرازيل .

ت – عرش البرتغال بعد وفاة الملك :

لما قتل الملك الشاب سيبستيان في المعركة دخلت البرتغال في صدمة عنيفة، إذ لم يترك الملك عقبا يرث ملكه ولو بالوصاية، فلم تجد الأسرة المالكة إلا الشيخ الكاردينال "هنري" (Henri) المريض بالسل[2]. الذي تولى حكم البرتغال بعدما كثر الطامعون فيه بحق، أو بغير حق،وقد بعث البعوث محملة بالهدايا لسلطان المغرب يلتمس منه تسليم جثة الملك القتيل سيبستيان ، ومما قاله عبد العزيز الفشتالي بهذا الصدد: « ... ثمّ تلته إرسال طاغية برتقال ألريك[3]. القائم بالدولة من بعد ولد أخيه بستيان، فريسة أمير المؤمنين المنصور، وإرسال طاغية قشتالة فليب وكان الطاغيتان قد أوفدا معا قبل ذلك على أمير المؤمنين رسلهم الأولين، يرغبونه في الامتنان عليهم "بشلو" [4] الطاغية بستيان المواري بالقصر في تابوته، ووافوه أيام مقامه ...متضرعين وخاضعين لعز الإسلام فرأى أيده الله ما في إسلام الشلو لهم والذهاب به إلى أرضهم من مزيد الفخر ... » [5]. ثم قام بفداء النبلاء والقادة وبعض الأسرى بأموال طائلة.

ومما قاله الناصري في الإستقصا نقلا عن نزهة الحادي: أن عم الملك القتيل سيبستيان الكاردينال هنري ،لما بلغته كارثة الهزيمة في وادي المخازن ،سأل بعض الناجين ممن كانوا في جيش سيبستيان لم لم تأخذوا تطاوين والعرايش والقصر قبل أن يصل جيش المغاربة ؟ أخبروه أن الملك سيبستيان رفض ذلك . فأمر الكاردينال بإحراق الجميع ، ثم ذكر الناصري نقلا عن صاحب

---

(1) Miguel dentas : Op.Ci t , p 344 .

(2) f ernand Braudel **: la méditerranée et le monde méditerranéen à l époque de Philippe** , T2 , Armand colui , Paris , 1966, p63 .

(3) حكم البرتغال بعد مقتل سيبستيان ، وكان يبلغ من العمر ستين سنة ، توفي سنة 1580م ، وترك صراعا على عرش البرتغال مع كل من فيليب الثاني ودوقة براغونتا ، ودوق سابويا ، ورئيس دير كراتو ، الذي ينتمي إلى أسرة أبيس الحاكمة وحسم الصراع في النهاية لفيليب الثاني.أنظر M . Ferdinand Denis : Op. cit, p 293.

(4) هي الجثة أو هو كل ما بقي من جلد وجسد ، للمزيد أنظر ابن منظور : **لسان العرب** ، تحقيق عامر أحمد حيدر ،دار الكتب ، بيروت ، د ، ت ، ص 2318 .

(5) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص 49 .

النزهة أن رجال دينهم من كهنة وقساوسة، سمحوا للناس بفاحشة الزنا، وهذا لإكثار النسل وتعويض الخسائر البشرية التي حدثت لهم في وادي المخازن(1).

ث- عجز الكاردينال هنري عن تسيير المملكة:

وجد الكاردينال العجوز والمريض نفسه يتولى إمبراطورية فقدت كل مقومات القوة والبقاء، في وسط سياسي متوتر، يطمع في أملاك هذه الإمبراطورية المتهاوية، فالرسالة التي بعث بها السفير الفرنسي السيد "فيريي" من إسطنبول بتاريخ 21أوت 1579م إلى الملك "هنري الثالث" تبين بوضوح مدى العجز الذي وصل إليه حاكم البرتغال الجديد حيث قال :

«... وصلتنا أنباء أخيرة من البرتغال، مفادها أن الملك غير قادر على تسيير المملكة، وأن الشعب بكل فئاته قدكره هذا الوضع، ويطالب بملك يشبه ملك قشتالة(يقصد الملك فيليب الثاني) يأتي لنجدتهم ، ويتزوج من أميرة برتغالية تابعة للعائلة الحاكمة... »(2).

ج- مصير الثغور المحتلة :

لقد جعلت هزيمة وادي المخازن الحصون البرتغالية في وضعية خطيرة، فصارت أقل قدرة على المقاومة ، وأصبح مصيرها عرضة لخطر عظيم، لأنها أخليت من المدافعين عنها لأن معظم الجنود أرسلوا للمشاركة في الحملة العسكرية . فالشرفاء ضيقوا الخناق على هذه الثغور، لكن الملك الإسباني نصب نفسه للدفاع عن المصالح البرتغالية بالمغرب، وهو موقف غايته تقديم النجدة إلى الجيوب البرتغالية، وبالتالي العمل على افتداء الأسرى(3). هذه السياسة من الملك الاسباني كان هدفها استمالة الكاردينال البرتغالي "هنري"، ليحتفظ لنفسه بسند هام من الشخصيات المؤثرة قي بلاط لشبونة ،دون أن يثير حساسية البرتغاليين .

ومما تقدم يمكن القول :

- إن معركة وادي المخازن في حقيقتها معركة صليبية ،كانت تستهدف استقلال المغرب وأمنه، شنت عليه بدافع الأحقاد الدينية والروح المسيحية المتأججة لدى البرتغاليين ،خاصة والأوروبيين عامة ،بعدما زال الإسلام من شبه الجزيرة الإيبيرية .

---

(1) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : المرجع السابق ،ج 5 ، ص 85 .

(2) Ernest Charrière : Op. cit,T4 , p 819.

(3) fa tima hajajjaj : **la bataille wad elmkhazen** , Cite I nternet , if rance . Com.

– كانت التعبئة الشعبية كبيرة لتكوّن في النهاية جيشا ذا معنويات عالية ، وذا تصميم أكيد على النصر، إضافة إلى القيادة العسكرية المتمرسة ، والمؤمنة بإمكانيات الشعب المغربي في المقاومة والصمود ، ثم الدعم العسكري ، و الخبرة القتالية التي منحها الأتراك لعبد الملك .

–الإيمان الراسخ بالدين والوطن كفيل برفع درجة تحدي الشعوب وصمودها أمام المخاطر المحيطة بمستقبلها، فالإرادة كانت عند الشعب المغربي، صلبة وقوية دفعته أن يلبي نداء الجهاد .

– التفاهم والتنسيق بين القيادة والقاعدة كان قويا ، فالسلطان المغربي كان في طليعة المقاتلين يعطي المثال الحي للناس في التضحية والجهاد ،بل كانت القيادة من أوائل الشهداء في المعركة .

– عدالة القضية المغربية والظلم الذي سلط على المغاربة زمنا طويلا من الهجمة الأيبيرية ،كانت كافية أن تصنع قيادة وشعبا مصمما على رد كرامته واعتباره .

– استعانة عبد الملك السعدي بخبرة الأتراك في القتال، وتمرسهم خاصة في الرمي بالمدفعية قلب موازين المعركة لصالح المغاربة ،إضافة إلى شجاعة الفرسان في المواجهة .

– خيانة المتوكل واستعانته بالنصارى ضد الوطن والدين جلب عليه الذل والمهانة والاحتقار من فئات الشعب المغربي وبخاصة العلماء، الذين لم يغفروا له فعلته هذه تحت أي ذريعة أو تبرير .

– كان البرتغال وملكه الشاب في الثلث الأخير من القرن السادس عشر يعاني من عقدة التفوق، وهي الإمبراطورية القوية والمهيمنة على الخليج العربي والطرق التجارية، حيث نظر للمغرب كمنطقة يجب التوغل داخلها ليتم ضرب الأتراك العثمانيين من الجهة الغربية ،بعد تولية محمد المتوكل الذي سيعمل جاهدا لترضية أولياء نعمته.

– لقد ارتكب البرتغاليون خطأ جسيما ، وبرهنوا على عدم فهمهم لقضايا البيعة عند المسلمين لما وقفوا سياسيا وعسكريا إلى جانب المتوكل، بعدما فقد أهليته لعرش المغرب، وعجز في الدفاع عنه بالطرق المشروعة ؛ ففضل أسلوب الخيانة ، ووافق على شروط العدو، في التنازل له عن الشواطئ المغربية مقابل الوقوف إلى جانبه ، وهذا ليس له إلا معنى واحد هو أن العرش أحب إليه من أرض الوطن.

الفصل الثالث

أثر معركة وادي المخازن في العلاقات المغربيّة مع دول غرب أوروبا
(البرتغال – إسبانيا – فرنسا)

المبحث الأول :

– أثر معركة وادي المخازن في علاقات المغرب مع المملكة البرتغالية.

المبحث الثاني :

– أثر معركة وادي المخازن في علاقات المغرب مع إسبانيا.

المبحث الثالث :

– أثر معركة وادي المخازن في علاقات المغرب مع فرنسا.

المبحث الأول:

أثر معركة وادي المخازن على العلاقات المغربية البرتغالية :

ألحقت معركة وادي المخازن بالبرتغاليين ضررا كبيرا، سواء على الصعيد السياسي، أو الاقتصادي أو الاجتماعي، فأصبحت المشكلة البرتغالية ميدانا للصراع الدولي ونتلمس ذلك من خلال النقاط الآتية:

*- فقدان البرتغال لاستقلالها.

*- لجوء الأميرين السعديين للبرتغال.

*- كثرة الأسرى.

*- مشروع الضون أونطونيو (المسألة البرتغالية).

*- الأمير كريستوف رهينة عند المنصور.

*- تقاعس المنصور عن افتداء الأسرى المسلمين بعد النصر.

*- ضياع فرصة استرجاع الثغور بعد الموقعة.

*- تماطل المنصور في دعم حملة لشبونة في جوان 1589م .

*- مكافأة فيليب الثاني لقتل الضون أنطونيو.

*- طمع القوى الأجنبية في ممتلكات البرتغال.

1- فقدان البرتغال لاستقلاله :

كانت معركة وادي المخازن على البرتغال كارثة عظيمة، ونكبة قاصمة، ووبالا كبيرا في تاريخها الحديث ، فلم تفقد ملكها سيبستيان ، والآلاف من القتلى والأسرى فحسب ؛ وإنما أضاعت استقلالها السياسي أيضا بعد ذلك ، فعندما مات الملك الكاردينال العجوز "هنري" في فيفري من عام 1580م ، دخلت البلاد في فوضى عارمة واستفحلت فيها أزمة جديدة ، ألا وهي وراثة العرش ، لأن الملك الراحل سيبستيان لم يترك عقبا يخلفه لعدم زواجه ، وقد ترك الملك "هنري" قبل وفاته وصية ، مفادها أن يتولى الملك الإسباني "فيليب الثاني" عرش البرتغال ، وقد لاقى من جراء ذلك معارضة من أفراد الأسرة الحاكمة ومنهم الأمير "ضون انطونيو"[1] .

---

(1) هو من أسرة "عما نويل" ملك البرتغال ، وقد أسر في معركة القصر الكبير ، وفكّ أسره بعد ذلك ، للمزيد ، أنظر هامش، شوقي عطا الله الجمل: **المغرب العربي في العصر الحديث** ، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1977، ص 182.

أقدم الملك فيليب الثاني على تجهيز جيش بقيادة "دون الفا"(Duke of alva) ،ودخل لشبونة فاتحا يوم 16مارس 1581م ،وأعلن انضمام عرش البرتغال لإسبانيا[1] قائلا للشعب البرتغالي أنه لم يأت محتلا بل موحدا للدولتين ، وأن البرتغال ستبقى محافظة على استقلالها.لكن المعارضة لهذا الضم ازدادت ، فقام الأمير "انطونيو" والقائد " دوق "أوف باركانزا " بمقاومة مسلحة ضد الجيش الإسباني ، خاصة بعد وصول الأسطول بقيادة "ماركوس دي سانتا كروز" وحاصر لشبونة من البحر ،كما احتل معظم الموانئ البرتغالية[2].

في هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بها البرتغال ،حشد الضون "أنطونيو" جيشه في منطقة الغرب في جنوب البرتغال ، متخذا من نهر التاج مانعا ؛ يتحصن خلفه ، فيما أعلنت مدن "شنترين و كامبيرا " العصيان ضد الاحتلال الإسباني لكن المقاومة البرتغالية فشلت ، وبهذا الاحتلال تمّ دق المسمار الثاني في نعش الإمبراطورية البرتغالية بعدما دق المسمار الأول في معركة وادي المخازن[3].

2- لجوء الأميرين السعديين إلى البرتغال :

عقب نهاية معركة وادي المخازن ،وتشتت الجيش البرتغالي ،ومقتل "محمد المتوكل"، استطاع "مولاي الناصر"[4]و "محمد الشيخ" النجاة والفرار إلى أصيلا، التي كانت تحت السيطرة البرتغالية ، فمكث هناك حوالي سنة وقد دخلا إلى البرتغال في أواخر 1579م / وبداية 1580م[5] حيث وضعا في مكان معزول ومراقب .

وفي سنة997هـ/جوان 1589م وصلت رسالة إلى مولاي الناصر من صاحب جبل الشمال بالمغرب "فارس الهنتاتي"، يطلب فيها من الأمير الناصر، العمل على ترتيب أموره في البرتغال والعودة إلى المغرب، لإعلان الثورة ضد المنصور، لأن ظروف المغرب مواتية، وأن الكثير من السكان ،باتوا يتحينون الفرصة للثورة ضده .

---

(1) فالح حنظل : المرجع السابق ، ص 477 .

(2) Robert Ricard et chantal de laveronne et autres: sources **inédites de l histoire du maroc ,1 serie dynastie saadienne** ,Archive et bibliothèque de Portugal , t6 ,1552-1580.Paris, 1953.p123.

(3) فالح حنظل : المرجع السابق : ص 478 .

(4) الناصر بن عبد الله الغالب كان أميرا على تادلا،اعتقله أخوه المتوكل ، وأطلق سراحه عبد الملك السعدي ،فرّ إلى أصيلا يوم موقعة وادي المخازن ومنها إلى إسبانيا ، قام بثورة ضد عمه المنصور أنظر الناصري : المرجع السابق ،ج 5 ،ص 145 .

(5) للمزيد من الإطلاع ينظر مقال : Chantal de la verrone: **Sejour en Andalousie de deux princes Sàdiens A prés la bataille del-qsarel-kebir 1589,1595 ,** in **,** R , LOccident musulman et de la Mediteranné , Aix – en – provence 1970 , N0 1 , Vol 7, pp 187 - 188

وفي جويلية من عام997هـ/ 1589 م أرسل مولاي" الناصر" وفدا لمقابلة الملك الإسباني "فيليب الثاني" يطلب منه العون والمدد ليسترجع ملك المغرب من "المنصور"، وقد باع كل ما يملك واستطاع أن يجمع مبلغا قدره ستمائة دوكا، إلا أن "الناصر" كان في أشد الحاجة إلى الدعم المادي من الملك الإسباني، الذي وجد في لجوء الأميرين إليه الفرصة المواتية للضغط على "أحمد المنصور" مستقبلا، وتوظيف ذلك في ابتزازه ليحقق "فيليب الثاني" مطامعه في المغرب.(1)

3- كثرة الأسرى :

أسفرت معركة وادي المخازن على الآلاف من الأسرى البرتغاليين و الإسبان والإيطاليين، ممن شاركوا في حملة سيبستيان العسكرية ، فقد قدرت بعض الدراسات الغربية ، أن الحملة كانت تضم أربع وعشرين ألف مقاتل،سقط منهم في أرض المعركة عشرة آلاف، منهم الملك "الضون سيبستيان" ، بينما وقع في الأسر ستة عشر ألف(2) ولم ينج منهم إلا حوالي مئة شخص استطاعوا الفرار والوصول إلى السفن على المحيط الأطلسي، إضافة إلى الأسرى الذين وقعوا في الأسر قبل المعركة نتيجة عمليات القرصنة المتبادلة بين المغرب الأقصى، والدول الأوروبية المعادية له، ليصل عددهم إلى حوالي عشرين ألف أسير. وأمام هذه الكارثة التي حلت بالبرتغال وجيشها عجز الكثير من الأسرى الضعفاء والفقراء وأصحاب المهن البسيطة من افتداء أنفسهم، وأقتصر الافتداء على بعض النبلاء والأغنياء؛ والذين يمثلون أقلية في الجيش المنهزم، وتركت الأغلبية الساحقة لمصيرها. (3)

تحدث طبيب يهودي حضر الموقعة عن ثمن الأسير بقوله : «... كان سعر الأسير الواحد يتراوح مابين ثلاثين ومائة وخمسين "موزونة"، أما قيمة الإفتكاك كانت تتراوح بين ثلاثمائة وخمسمائة "موزونة" لقد أصبحت مدينة فاس مثلا مليئة بالخدم من أسرى البرتغال وأمست هذه المدينة غنية بالذهب والفضة والأسلحة المختلفة الأنواع ...»(4) .

وقد ذُكِرَ أن" المنصور" دُفِعَ له من أجل الإفراج عن جثة "الضون سيبستيان" ستة وأربعين ألف(46000) قطعة ذهبية، وهذا ما لم تذكره المصادر التاريخية المحلية التي عايشت الحدث، وقد استعمل المنصور هذه الأعداد الهائلة من الأسرى في أعمال الزراعة، واستفاد من خبراتها في مجال صناعة الأسلحة، ودمج الآلاف منهم في جيشه ليستغلوا في فتوحاته القادمة(5).

---

1) Chantal de la verrone : Op.Ci t , p 188.
2) Marc-André Nollet : Op.Ci t , p 53.
3) Ibid.
(4) عن الرسالة التي بعث بها هذا الطبيب اليهودي. أنظر عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج8، ص 106.
(5) Marc-André Nollet : Op.Ci t , p57.

4- مشروع الضون أنطونيو (المسألة البرتغالية) :

كانت انكلترا في صراع مستمر مع إسبانيا، وكانت هذه الأخيرة تحاول أن تجد ميدانا للتفاهم مع "أحمد المنصور"؛ غير أن هذه المحاولة لم تسفر عن أي نتيجة تذكر، خاصة عندما أقدم "فيليب الثاني" على ضم البرتغال لمملكته ، ليضم أيضا الممتلكات البرتغالية على الساحل المغربي ؛ وهي سبته وطنجة ومازاغان، وبعد احتلال البرتغال وفشل المقاومة ، فرّ "الضون أنطونيو" إلى إنكلترا يطلب النجدة لاسترجاع ملكه ، فاستغلت "إيليزبيث" ملكة انكلترا التباعد المذكور بين "المنصور" و"فيليب الثاني" ، وأرسلت إلى الملك المغربي ، تعرض عليه مشروعا يهدف إلى تحرير البرتغال[1] ، ينص على أن تقدم إنكلترا "للضون أنطونيو" أسطولا كاملا ، في حين يتولى" المنصور" تحمل النفقات والمؤن ، وعندما يطرد الإسبان من البرتغال، يتنازل الأمير" أنطونيو" عن الجيوب الساحلية للمغرب، غير أنّ هذا المشروع فشل لأسباب أهمها: أنّ إنكلترا لم تكن جادة فيما تقول ، وإنما كانت تتخذ من المشروع وسيلة للمساومة فقط ، ومن جهة أخرى كان "فيليب الثاني" يأوي في قصره اثنين من أسرة "أحمد المنصور" ؛ كانا يطالبان بالعرش ،فلما علم فيليب الثاني أنّ" المنصور" مستعد للاستجابة لرغبة الإنجليز وتلبية مطالبهم ، هدد بأنّه يدعم هو أيضا المطالبين بالحكم المغربي، ويضع تحت تصرفهما جيشا يقاتلان به . وقد كان "المنصور" يتمنى إنقاذ البرتغال من الحكم الإسباني، والتخلص من "فيليب الثاني" ، لكنه كان يتعامل بحذر في ذلك نظرا لورقة الضغط التي يمتلكها فيليب والمتمثلة في وجود الناصر شقيق" المتوكل" و"محمد الشيخ" عنده[2] .

5- الأمير "كريستوف" رهينة عند أحمد المنصور :

كانت مسألة مساعدة "الضون أنطونيو" اللاجئ بانجلترا، والمطالب باستعادة عرش البرتغال من إسبانيا من القضايا الهامة التي برزت في علاقة المغرب مع البرتغال بعد هزيمة معركة وادي المخازن، وضياع استقلالها، علما أن بريطانيا كانت قد وعدت الأمير البرتغالي بإرسال قوات عسكرية ، وطلبت الملكة" إليزابيث"[3] من "أحمد المنصور" تقديم مساعدة مادية للأمير "أنطونيو" ؛ ليسترجع ملك البرتغال ، في مقابل أن تعينه بريطانيا ضد أي تهديد تتعرض له بلاده من الملك الإسباني" فيليب الثاني" ، وفي هذا الصدد أرسل "أحمد المنصور" في جانفي 1588م سفيره "الرايس

---

(1) محمد العربي الزبيري : المرجع السابق ، ص 41.

(2) محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 67 .

(3) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج8 ، ص 188.

مرزوق" إلى الملكة الإنجليزية يبدي لها استعداده لتلبية مطالبها في مساعدة "الضون أنطونيو ، و طالبها بدوره أن ترسل أسطولها إلى جبل طارق على أن يلتزم المغرب بتموين نفقاته،كما طلب أن يأخذ ابن "الضون أنطونيو" الأمير"كريستوف" (don cristophe) ، رهينة لضمان تنفيذ الاتفاق.

وفعلا وصل الأمير الرهينة إلى ميناء آسفي صحبة مبعوث الملكة، و من أجل عزل "المنصور" أو على الأقل تحييده من الصراع الإسباني الإنجليزي، قام "فيليب الثاني" بالجلاء عن مدينة أصيلا المحتلة عام997هـ /1589م،حيث أشيع حينذاك أن أحمد المنصور، يعتزم تسليم الأمير كريستوف إلى ملك إسبانيا مجاملة له وتقديرا للعمل الذي قام به ؛ الأمر الذي استدعى توسل الملكة "إليزابيث" بالباب العالي[1]، للتدخل عند "المنصور" لإطلاق سراح الأمير الشاب[2].

والملفت للنظر أن مواقف "المنصور" و استغلاله الجيد للصراع بين الإنجليز والأسبان أعاد عليه ببعض المكاسب منها تحرير أصيلا.

6- تقاعس المنصور في افتداء أسرى المسلمين بعد النصر:

كان للعلماء رؤية مجردة للأحداث في عصر الموقعة ، و هم قادة الرأي العام المغربي الذين ابتعدوا عن دوائر الحكم في دولة أحمد المنصور؛ فاستطاعوا أن يشاهدوا الوقائع على حقيقتها ، وأن يصدروا أحكاما منطقية على مجريات الأحداث بعد معركة وادي المخازن .

ومن هؤلاء الشيخ "رضوان بن عبد الله الجنوي الفاسي"[3] الذي كان يتميز بالصرامة والصدق؛ فلا يخاف في الله ، و قول الحق لومة لائم ، وقد راسل السلطان أحمد المنصور مرتين ؛ ففي الرسالة الأولى أثار انتباه المنصور الذهبي إلى بلبلة البرتغاليين ، وتضعضعهم بعد انهزامهم في معركة القصر الكبير ، وألح عليه لانتهاز الفرصة لاسترداد المدائن الساحلية التي استولى عليها المنهزمون ، كطنجة و أصيلا ، و سبتة حتى يساير الحكم تطلعات المغاربة ، ولذلك كتب مايلي:

الرسالة الأولى [4] :

---

(1) بعث هنري الثالث رسالة بتاريخ 18-10-1580م، إلى سفيره "دوجيرمقني" (de germigny)يدعو فيها الدولة العثمانية للتدخل في المسألة البرتغالية أنظر .Ernest Charrière : Op .Cit , T4 , P939

(2) عبد الكريم كريم : المرجع السابق ، ص131.

(3) الشيخ أبي الرضى رضوان بن عبد الله الجنوي الفاسي ولد عام 912هـ وتوفي عام 991هـ بفاس ، عاصر وقعة وادي المخازن ، للمزيد من الإطلاع أنظر عنه محمد بن محمد مخلوف : **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** ، المطبعة السلفية ، القاهرة 1349هـ ، ص 286.

(4) محمد المنوني : **وثيقتان جديدتان عن ذيول موقعة وادي المخازن** ، في م د ح ، المغرب أوت 1978م ، عدد 8 ، ص 30.

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

الحمد الله ، من عبد الله رضوان بن عبد الله إلى أمير المؤمنين السلطان أبي العباس بن موالينا وسادتنا الشرفاء ، .... وإلى هذا فالله ، الله في الحزم وإمضاء العزم ، وهو ما ظهر لرعيتكم من انتهاز هذه الفرصة الممكنة في هذا الوقت من الحركة لمدائن الكفار التي هي طنجة و سبتة وأصيلا؛ فإنّهم في هذه الساعة في دهش وخزي وخذلان بما أمكن الله منهم ، ولا أظن – نصركم الله – مثل هذا يخفى عليكم حتى نحتاج أن نذكركم به .... » [1].

الرسالة الثانية [2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

الحمد الله ، من عبد الله رضوان بن عبد الله إلى أمير المؤمنين السلطان أبي العباس بن موالينا وسادتنا الشرفاء ، .... وهي كيف يمشي هؤلاء الكفار كلهم إلى بلادهم ، وإخواننا المسلمون بأيديهم في غاية العذاب والإهانة ، ونحن قادرون على أن لا يبقى واحد منهم في أيديهم، وفداؤهم فرض علينا من بيت المال وأموال الناس كلهم حتى لا يبقى واحد ... وحصل في أيدي المسلمين رؤوس الكفر ، ألا وهم يمشون لبلادهم بالشيء التافه الذي لا حاجة للإسلام به ، ويبقى إخواننا وأخواتنا بأيديهم ... فالله ، الله في فك الأسرى بقدر الجهد ، ألم تعلم أن قسيس النصارى[3]، يشتري كبار النصارى بالشيء القليل ... »[4].

فنستشف من هذه الرسالة أن الشيخ عاتب السلطان أحمد المنصور ، وانتقد قبوله افتداء الأسرى المسيحيين بالمال ، في حين ظل المسلمون والمسلمات بأيدي النصارى يعانون العذاب و الإهانة، وكانت الفرصة مواتية للضغط على المنهزمين لتحرير الأسرى المسلمين أو استبدالهم بأسراهم ،كما ألح عليه غاية الإلحاح للعمل بكل جهد لتحقيق ذلك ، و تعد الرسالتان وثيقتان مهمتان في توضيح عدم استغلال أحمد المنصور انتصار معركة وادي المخازن للمطالبة بالإفراج عن الأسرى المسلمين، و تحرير المدن التي بقيت تحت أيديهم ، وهم في حالة من الضعف والتفكك .

---

(1) للمزيد من الإطلاع على الرسالة كاملة أنظر : م د ح ، المغرب أوت 1978، عدد 8، ص 30.

(2) نفسه ،ص ص 31 - 32.

(3) المقصود بقسيس النصارى، الكاردينال البرتغالي"هنري" الذي تولّى الحكم بعد مقتل الملك الدون سيبستيان حيث سعى في افتداء النبلاء البرتغاليين الذين وقعوا في الأسر عقب المعركة . أنظر عنه L.A. Rebello da silva : Op .Cit , p 398.

(4) الرسالتان نقلهما محمد المنوني ، عن مخطوط **تحفة الإخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان** ، الخزانة العامة تحت رقم 154.

7- ضياع فرصة استرجاع الثغور بعد الموقعة :

كان من المتوقع أن يقدم المغرب بعد هزيمة البرتغال في موقعة القصر الكبير، أن يحسن استثمار و استغلال انتصاره العسكري، بعدما تضعضعت قوات خصمه بالضربات المميتة التي تلقاها، وأن يوجه قواته العسكرية نحو تحرير الثغور المحتلة من الإيبيريين وبخاصة البرتغاليين المنهزمين، لكن شيء من هذا لم يحدث[1]. ويمكن تفسير ذلك بالعوامل التالية:

أ- كان المنصور مشغولا في الأشهر الأربعة الموالية والباقية من سنة 1578م بإرساء دعائم حكمه في المغرب ،مما لا يسمح له بتوجيه حملات عسكرية لاسترداد الثغور.[2] إذ تذكر المصادر التاريخية أنه لما أعلن وفاة عبد الملك، حاول بعض القادة الأندلسيين الموالين للأتراك كمحمد زرقون وغيره تولية المولى إسماعيل بن عبد الملك بدلا من عمه المنصور، لأحقيته بالملك والخلافة لكن جل المغاربة الحاضرين لم يرضوا بهذا، وجاؤوا بالمولى أحمد، الذي اختفى عن الأنظار خوفا من أن يقتلوه[3] .

ب- قلق المنصور من تعيين حسن فتريانو على رأس الحكومة الجزائرية، فلم يبعث هذا في نفس المنصور الارتياح ،وهو يعلم أن فتريانو على شاكلة العلج علي ؛الذي كان يحلم دوما بضم المغرب للدولة العثمانية. [4]

ت- كان جيش من أتراك الجزائر يتألف من 1800تركي بقيادة حاجي جد المولى إسماعيل بن عبد الملك، ينتظر في تلمسان منذ مطلع سنة 1578م ،يتحين الفرصة للتدخل في المغرب لاحتلاله .

ث- السفارة التي بعث بها السلطان العثماني يقودها"أبو الطيب البسكري" والتي تحمل معها رسالة للمنصور من مضامينها إعطاء القسم الشمالي من المغرب للمولى إسماعيل[5]. فهذه الأطماع العثمانية في المغرب ومحاولة إزاحة المنصور عن حكم المغرب بالدعوة للأمير الصغير إسماعيل ثم دعم ثورة داود بن عبد المؤمن[6] في أكتوبر1579م ،لم تتح الفرصة للمنصور من التوجه لتحرير الثغور بل دفعت به إلى التحالف السري مع الإسبان، ضد عدوهما المشترك وهم الأتراك.

---

(1) عبد الطيف فنيد : **معركة وادي المخازن ..الدروس والعبر** ، في جريدة العرب الثقافي ، الخميس 7/8/ 2008، ص8.

(2) عمار بن خروف : المرجع السابق ، ج1،ص 213.

(3) عبد العزيز الفشتالي: المصدر السابق،ص 41.

(4) عمار بن خروف : المرجع السابق ، ص 214.

(5) Chantal de laveronne:**les relations entre le Maroc et la Turquie du 16^{e}s au début du 17^{e} s(1554-11616)**, in R.O.M.M,N^{O}1, 1973,P395.

(6) هو أبو سليمان داود بن عبد المؤمن ، ابن أخي المنصور ،فرّ إلى جبل سكسيوة وتمرد عن المنصور للإطلاع أكثر على ثورته أنظر : أبو العباس أحمد **بن** خالد الناصري : المرجع السابق ،ج 5 ، ص 85 .

وإذا عدنا للصراع الإسباني البرتغالي ومحاولة ضم فيليب الثاني عرش البرتغال، نجد في هذه الأثناء الأمير البرتغالي "الضون أنطونيو"، قد لحقت به الهزيمة، لتتأزم المسألة البرتغالية من جديد.أمّا الظروف الصّعبة التي عاشها المغرب، والأحداث التي شهدها بداية حكم المنصور، وتوتر الجبهة الداخلية للمغرب، قد فوتت على المنصور الفرصة لتعزيز نصره ،واستغلال هزيمة أعدائه ؛ فضاع عليه انتهازه إمكانية استرجاع ما تبقى من القواعد البرتغالية على السواحل المغربية .[1]

8– تماطل المنصور في دعم حملة لشبونة في جوان 1589م :

أصبح أحمد المنصور بعد انتصاره بالقصر الكبير من الشّخصيات السّياسية المرموقة في السّاحة الدولية ؛ فراحت انجلترا تتودّد إليه ، طالبة مساعدته في تحرير البرتغال ودعمها في الحملة العسكرية التي تودّ الملكة "إليزابيث" توجيهها ضد الأسبان على الشواطئ البرتغالية .

فهل كان المنصور صادقا في دعم انجلترا في حربها ضد الإسبان ؟.

وهل كان فعلا ينوي تحرير البرتغال ؟. إن الأحداث التاريخية تثبت لنا بأنّ المنصور ظلّ حذرا يقظا ؛ رغم تعهده بتقديم القروض ، والمشاركة في الحملات العسكرية ضدّ إسبانيا، فإنّه لم يف بذلك عندما هاجمت القوات الإنجليزية الشواطئ البرتغالية بقيادة الضّابطين(drake) و(Norri) للاستيلاء على لشبونة ، فانهزمت الحملة أمام القوات الإسبانية في شهر جوان 1589م ؛ الأمر الذي جعل الإنجليز يلومون المنصور على عدم تعاونه معهم في حملتهم ضد الإسبان[2] ،والملفت للنظر من تنصل المنصور من وعوده للإنجليز ، هو أنّه دخل في مفاوضات سريّة مع فيليب الثاني استطاع من خلالها ،أن يفتكّ من الملك الإسباني وعدا بالتنازل له عن بعض المناطق المغربية التي تحتلها إسبانيا، إن تخلّى المنصور عن دعمه وتعاونه مع الحملة الإنجليزية على لشبونة. وقد كان للمنصور ما أراد حسب الاتفاق السّري ،فخرجت القوات الإسبانية من مدينة أصيلا في شهر ذي القعدة من عام 997هـ/ 13 سبتمبر 1589م[3] بعد أن عمل فيليب الثاني على تحييد المنصور وتأكده من أنه تخلى عن حلفائه الإنجليز ،وآثر مصالحه الداخلية.

ولإقناع الانجليز وتبرير فعلته وتوضيح موقفه، كتب المنصور رسالة من مراكش بتاريخ 29 شوال من عام997هـ/ 10 سبتمبر 1589م إلى قائد الحملة بعد فشلها، يخبره فيها أنه لا علم له

---

(1) عبد كريم كريم : المرجع السابق ، ص 110 .

(2) Henry de Castries : Op .Cit , Angleterre , T2 , P34.

(3) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص 114 .

بتاريخ انطلاق الحملة العسكرية ، وأنّه صادق كل الصّدق في الوعود التي قطعها على نفسه، محملا سفيره الرايس "مرزوق" مسؤولية عدم إبلاغه .

9– مكافأة فيليب الثاني لقتل الضون أنطونيو:

اشتدت المقاومة البرتغالية للغزو الإسباني بعد الكارثة التي حلت بها، وقد تزعم المقاومة كما هو معلوم الضون أونطونيو؛ الذي بات شخصا خطيرا بالنسبة للملك فيليب الثاني يجب التخلص منه، ولذلك جعل مكافأة مالية كبيرة لمن يقتله أو يأسره .

والرسالة التي بعث بها السفير الفرنسي دوفيريي (du ferrier)[1] إلى الملك "هنري الثالث" من البندقية بتاريخ 03مارس 1581م تبين ذلك ،وهذا فحوى ما جاء فيها[2]:

«... لقد بلغنا بأن الملك الاسباني قد نشر إعلانا حول البحث عن "الضون أنطونيو" بجائزة قدرها عشرون ألف أوقية لمن يقتله ، وفي الليلة الماضية نشرت منشورات أخرى تحمل توقيع الملك فيليب، برفع الجائزة إلى مائة ألف أوقية لمن يقتله ، حيث أن القليل من الناس يؤمنون بذلك ،حتى أولئك، الذين تصلهم الرسائل من إسبانيا، على أن الضون أنطونيو قد قتل في بيتو.ونجد من الاستغراب بأن البابا يشرف على دفع فدية الإيطاليين؛ الذين سقطوا أسرى في "إيبيرنيا"[3] من طرف ملكة إنكلترا ، مع القول أنه أقدم على هذا الفعل مع "لو نينس"[4] ووزراء آخرين للبابا في إسبانيا...».

10– طمع القوى الأجنبية في ممتلكات البرتغال:

كانت الكارثة التي حلت بالبرتغال عقب هزيمتها في القصر الكبير بمثابة بداية النهاية للدولة الإمبراطورية المترامية الأطراف في الشرق والغرب، فأدى ذلك إلى تنبيه القوى الأوروبية الأخرى مثل الهولنديين والإنجليز والفرنسيين إلى أهمية المستعمرات البرتغالية، ومناطق نفوذهم ومصادر ثروتهم، فراحت بريطانيا تضع الخطط لتحطيم إسبانيا ،والبرتغال ،عسكريا وسياسيا،بغرض الهيمنة على مستعمراتها.

---

(1) اسمه الكامل هو "Arnaud du ferrier" رجل قانون ، ودبلوماسي فرنسي،عاش مابين 1585/1508 ، عمل مستشارا ثم سفيرا في البندقية أنظر: Edouard fremy: **un ambassadeur libéral sous charle 2 et Henri 3 a Venise d Arnaud du ferrier** ,vol 01, Leroux, paris 1880,p08.

2) Ernest Charrière : (Op .Cit , T4 , P 33.

(3) اسم لاتيني قديم لأيرلندا للمزيد من الإطلاع أنظر Charle.g.de bochart: **mémoires critiques pour servir d eclairissements sur divers** points de l histoire ancienne,tome03, lausane ,1753,p405

(4) لقب لوظيفة في المجلس الكنسي بروما للمزيد أنظر: Louis josephde conde**: memoire de conde**, ,paris1743, vol 02, p178 .

ومن ثم إخضاع ممتلكاتها لنفوذ التاج البريطاني، سواء في أمريكا اللاتينية؛ أو الوجود البرتغالي في فارس، بعدما تحالفت الملكة "إليزابيث" مع الشاه "عباس الصفوي" وتمّ بذلك تصفية الوجود البرتغالي في هذه المناطق(1).

ومجمل القول:

كانت هزيمة البرتغال في معركة وادي المخازن كارثة حلت بها ،على الصعيد السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي ، وقد أوصلت الأمور المتردية عقب الهزيمة الكاردينال العجوز إلى أن يكون وصيا للعرش فلم يستطع أن يصارح الشعب البرتغالي بحقيقة مقتل الضون سيبستيان، و لم يعين كملك للبرتغال إلا في 29أوت 1578م(2).

وقد شهدت أيام هذا الملك البرتغالي العجوز بوادر الانهيار العسكري، والسياسي،والاقتصادي للبرتغال ،وهو الضعف الذي بدأ يدب فيها منذ أيام سيبستيان، فعندما مات الملك هنري عام 1580م، استفحلت بموته أزمة جديدة في البرتغال ألا وهي وراثة عرش البرتغال، ذلك أن الكاردينال "هنري" ترك وصية قبل وفاته ،مفادها أن يؤول عرش البرتغال إلى الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا، وقد لاقى ذلك الأمر معارضة من أفراد الأسرة الحاكمة ،فظهر ثائر منشق هو الضون أونطونيو لتبدأ المسألة البرتغالية ،كأهم أثر من آثار معركة وادي المخازن على البرتغال.

ومن جهة أخرى، نجد أن أحمد المنصور لم يستثمر انتصاره في وادي المخازن انتصارا حقيقيا، حيث أنه لم يوجه ولو حملة عسكرية واحدة تجاه الثغور المحتلة ،لغرض تحريرها في الوقت الذي كانت البرتغال تلتقط أنفاسها الأخيرة ،قبل أن تتعرض للاحتلال الإسباني سنة 989هـ/1581م. وبذلك تفقد استقلالها قرابة ستين سنة ،وقد فسر ذلك التقاعس من المنصور في عدم تحرير الثغور، بانهماك المنصور في تدعيم قواعد الملك وحمايته من مؤامرات الأتراك، الذين باتوا يسعون إلى الانقلاب عليه باستعمال ورقة الأمير الصغير المولى إسماعيل بن عبد الملك، والمناداة به وبأحقيته في ملك أبيه، ثم دعمهم لثورة داود بن عبد المؤمن ،فهذه الظروف وغيرها قد منعت المنصور من أن يوجه اهتمامه نحو تحرير الثغور، بل كان الضغط العثماني من وراء تقارب المنصور مع الإسبان.

---

(1) فالح حنظل : المرجع السابق ، ص 534.

(2) نفسه، ص 476.

المبحث الثاني :

أثر معركة وادي المخازن على علاقات المغرب الأقصى مع إسبانيا:

اتسمت العلاقات بين المغرب المنتصر في معركة وادي المخازن، والمملكة الإسبانية التي تربطها بالملك البرتغالي القتيل ،علاقة نسب وقرابة، بسيمات يمكن أن نتتبع ملامحها فيما يلي:

*– التماس فيليب الثاني تسليم جثة الضون سيبستيان.

*– هدايا فيليب الثاني لأحمد المنصور.

*– سياسة أحمد المنصور مع الإسبان .

*– التقارب المغربي الإسباني وحملة علج علي على المغرب عام 989هـ/1581م .

*– أطماع الإسبان في العرايش.

*– الجوسسة الإسبانية على المغرب .

*– الدعم الإسباني لثورة الناصر بن المولى عبد الله الغالب.

*– صدى كارثة الأسطول الإسباني في البلاط السعدي.

*– قلق فيليب الثاني من تنامي قوّة المنصور.

*– مظاهر قوة المنصور1603/1578م.

كان لانتصار المغرب في وادي المخازن أثر كبير في تقوية مكانته في نفوس خصومه التقليديين (الإسبان والبرتغاليين) والأتراك أيضا،وبهذا الانتصار أصبح المغرب فاعلا في السياسة الدولية في الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي . والمتمعن في علاقات المغرب الأقصى مع إسبانيا ابتداء من سنة 986هـ/1578م،فإنها تتحدد من خلال التعرض للنقاط الآتية:

1– التماس "فيليب الثاني" تسليم جثة الضون سيبستيان:

استقبل المولى أحمد المنصور بعد ثلاثة أشهر من الكارثة التي حلت بالجيش الصليبي بموقعة القصر الكبير بضواحي فاس خلال شهر شعبان 986هـ/ أكتوبر 1578م[1] ، وفدا إسبانيا، وبرتغاليا، حمل إليه خطابا من "فيليب الثاني" ملك إسبانيا، يتعلق بتسلم جثة ابن أخته (الضون سيبستيان) ،الذي سقط قتيلا في القصر الكبير ، وذلك لإتمام مراسيم دفنه بلشبونة[2].

---

(1) عبد الكريم كريم : **من الوثائق النادرة لمعركة وادي المخازن** ، في م د ح ، المغرب أوت 1978م ، عدد 8 ،ص 33.

(2) نفسه .

وفي اليوم الثاني من رمضان عام 986هـــ /1578م، ردّ المنصور على رسالة ملك إسبانيا ، برسالة [1] حدد فيها الملامح الجديدة للعلاقات المغربية الإسبانية بعد معركة وادي المخازن ، وذكر فيها بعد السلام والتعظيم أنه على استعداد لتسليم جثة الملك سيبستيان مبديا سعادته بتلبية هذا الطلب ، ووضح له أن ما جرى في وادي المخازن هو من تصريف القدر ، الذي لا يستطيع أحد دفعه أو تغييره ، متأسفا على المصير الذي آل إليه الملك الضون سيبستيان ، وبيّن له أنّه كلف من بحث عنه في أرض المعركة ، وقد وضع جثته في تابوت بعد التعرف عليه ، واستطرد قائلا للملك الإسباني : ... أنه لو طلب منه الملك فيليب الثاني تسليم الملك الضون سيبستيان و هو حي لسلمه إياه ، كما زفّ له نبأ إطلاق سراح خادمه "جوان ذي سيلفا" ، وأنّه عامله بالحسنى إكراما للملك فيليب الثاني .

2– هدايا فيليب الثاني لأحمد المنصور :

اتبع فيليب الثاني عقب انتصار المغرب في وادي المخازن سياسة التقارب الحذر؛ لعله يظفر بتعاون السلطان المنصور، أو على الأقل تحييده من الصراع بينه وبين الأتراك في شمال إفريقيا ، أو بينه وبين الإنجليز القوّة الصاعدة التي يخشى من تهديدها ومنافستها ، وفي هذا المجال بعث فيليب الثاني سفارة هامة في أواخر جمادى الأولى سنة 987هـــ/ جويلية 1579م إلى المنصور تتألف من حوالي ستين شخصا ؛كانوا في رفقة السفير الإسباني حاكم مليلة دون "بيدرو فينكاس"، الذي كان يرتدي بذلة رسمية فاخرة ، والذي يرافق الأب "دييغو مارين" (Diego marine) المتضلع في اللغة العربية ، والمطلع على التقاليد الإسلامية[2]. وفي هذا الصدد ذكر الفشتالي حجم الهدايا التي قدمها الوفد الإسباني إلى المنصور ؛ حيث كانت من العظمة والقيمة مما أدهشت الجميع ، فاحتوت على كل نفيس من حجر الياقوت الكبير الحصيات المخصص والمنتقى للملوك ؛ والذي جيء به من ذخائر ملوك إسبانيا العظام ، وأعظم ما تضمنته تلك الهدية آنية مملؤة من حصباء الدر الفاخر، وقصب الزمرد ؛ بها زمردة كبيرة فاخرة . واستضافهم المنصور، وخصهم باستقبال حار ، حرص فيه على إبراز أبهة الملك ، وعظمة السلطان، وعزّ المغرب، وهيبته بعد الانتصار، الذي أحرزه في موقعة القصر الكبير[3] .

---

(1) للمزيد من الإطلاع، أنظرنص الرسالة كاملة في الملحق التاسع ، وأصلها في المكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم 257 ، كما ذكر ناشرها.

(2) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج8، ص 142.

(3) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص 50 .

3– سياسة أحمد المنصور مع الإسبان:

تعامل المنصور في علاقاته مع الإسبان بعد انتصار معركة وادي المخازن وفق النقاط التالية :

*– المحافظة على استقلال المغرب.

*– السلام الحذر مع الإسبان.

*– إظهار أبهة الحكم وقوته.

*– المماطلة والتسويف.

– المحافظة على استقلال المغرب:

حرص أحمد المنصور غداة توليته بعد معركة وادي المخازن على الحفاظ على استقلالية المغرب ، مستثمرا النصر المادي والمعنوي والعسكري الذي أحرزه بعد تغلبه على البرتغال ، فحافظ على نوع من الصلات الودّية بينه وبين الأتراك و الإسبان فقد ذكر البوريني أن أحمد المنصور كان يسعى لمسالمة جيرانه حيث قال مانصه : « .... وهو موادع لسلاطين الزمان آل عثمان فيرسل إليهم الهدايا السنية في كل سنة وهم يرسلون إليه المكاتيب والخلع المستحسنة...كتب له السلطان مراد بن سليم ... ولك علي العهد أن لا أمد يدي لك إلا بالمصافحة.... »(1).

– السلام الحذر مع الإسبان:

كانت سياسة المنصور مع الإسبان يغلب على ظاهرها المجاملة، أما في الواقع فكانت مشوبة بالحذر المتبادل، فقد أخلت إسبانيا أصيلا سنة1000هـــ/1592م لأن فيليب الثاني كان يخشى أن يسارع الملك المغربي لمساعدة أحد مطالبي العرش البرتغالي (الضون أونطونيو) على الاستقلال.(2)

علم السلطان العثماني بهذا التقارب فعين رمضان باشا حاكما على الجزائر، خصيصا لإحباط ذاك التقارب باستعمال القوة إن لزم الأمر ضد المنصور، وأمام هذا التهديد العثماني ضد المنصور توجهت سفارة إسبانية إلى المغرب في سنة 989هـــ/1581م، للتفاوض مع المنصور في شأن المساعدة العسكرية ؛التي يحتاجها المنصور من إسبانيا في حالة تعرضه للهجوم. (3)

كما استقبل المنصور "القسيس مرين" بمعسكره "بتانسيفت"، ودخل معه في مفاوضات لوضع مشروع معاهدة عسكرية ضد الأتراك، على أساس التنازل للإسبان على مدينة العرايش

---

(1) الحسن بن محمد البوريني : **تراجم الأعيان من أبناء الزمان** ،تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق 1959، ج1 ، ص 221.

(2) إبراهيم حركات : **السياسة و المجتمع في العهد السعدي** ، ص 89 .

3) henry De Castries **: les sources inédites de L histoire du Maroc** ,1serie, dynaste saadienne , Archives bibliothèques de France , T2 , éditeur Ernest leroux , paris 1909.p99.

الإستراتيجية بالنسبة لهم ،قصد القيام بعمليات عسكرية، وملاحقة القراصنة؛ الذين كانوا يلحقون خسائر فادحة بالتجارة الإسبانية في عرض البحر، قرب الشواطئ المغربية الأطلسية[1].

وقد ذكر الأسير البرتغالي "شالدانيا" (Antonio de Saldanha)[2] .بما قيّده من معلومات هامّة حول سياسة أحمد المنصور، و إيضاح خبايا علاقاته الخارجية؛ خصوصا وأن هذا الأسير عاش في كنف السّعديين وتمتع بحرية الحركة ،وكان شاهد عيان على هذه الفترة ، أتاحت له ظروفه على الإطلاع على تحركات المنصور الدبلوماسية، حيث أفاد أن فيليب الثاني كان يضغط على أحمد المنصور بشتى الوسائل[3] لكي يسلمه مدينة العرايش أو يستبدلها إمّا بمدينة الجديدة أو مدينة أصيلا ، وبرر ذلك بكون مدينة أصيلا لا تصلح لرسو السفن ، بينما يوفر نهر اللوكوس الأمن للسفن الإسبانية التي تحتاج إلى الإصلاح في حالة العطب ، وأنّه قادر على استيعاب ثلاثمائة سفينة تستخدم لمواجهة الجهاد البحري المنطلق من الجزائر.كان المنصور قد اعترف في معاهداته مع باشاوات الجزائر بأنه تابع للأتراك ، وأكّد ذلك باتخاذ "ذيل الفرس" الأبيض (وهو رمز تركي كشعار لإرضاء علي باشا حاكم الجزائر) ، ونيل صداقته ، بل أدّى أتاوات التبعية للباب العالي[4].

أما بخصوص مدينة العرايش ، فقد أرسل السلطان بعثة إلى إسبانيا بقيادة الأب "مرين" (Marin)، الذي اقترح عليه خلال عودته قطع كل علاقاته مع القسطنطينية، ومع باشوية الجزائر كما بعث المنصور سفارة بقيادة "عنون" إلى القسطنطينية للتفاوض حول تسليم العرايش للأتراك ، خاصة بعد تهديدهم بانتزاع المدينة بالقوّة، وتعيين "إسماعيل بن عبد الملك" اللاجئ لدى العثمانيين كسلطان للمغرب ، لذا ردّ المنصور على هذه التهديدات العثمانية بتخليه عن شعار الأتراك "ذيل الفرس الأبيض" ، وتدشين سياسته بالقطيعة مع الأتراك،مقابل الحماية التي وعدته بها إسبانيا عن طريق سفيرها"بيدرو فينكاس" (pedroVengas)، غير أنّ والي الجزائر بدأ يستعد ، ويدق طبول

(1) عبد كريم كريم : المرجع السابق ، ص 113 .

(2) نبيل برتغالي عاش أسيرا في البلاط السعدي من1592م إلى 1606م ، تمتع بحرية الحركة عاش اتصالات المنصور وراقب دبلوماسيته مع الدول الأجنبية وأورد معلومات هامة عن هذه الفترة ، أنظر مجلة المؤرخ ، عدد 4 ، جوان ،جويلية ،أوت 2009م ، ص 4.

(3) محمد جادور : **ديبلوماسية أحمد المنصور السعدي من خلال تقاييد أسير برتغالي** ، في مجلة المؤرخ ، والتقارب الثقافي ، الرباط جوان ، جويلية ، أوت 2009 م ، عدد 4 ،ص ص 4 - 5 .

(4) نفسه .

الحرب ،مما أجبر المنصور على التعجيل بإرسال الأب مرين(Marin) إلى لشبونة للقاء فيليب الثاني بهدف الحصول على ضمانات عسكرية لحمايته من أي هجوم تركي يسعى إلى احتلال العرايش[1].

- إظهار أبهة الحكم وقوته:

أكّد الأسير"شالدانيا" (Antonio de Saldanha) أن أحمد المنصور كان يستهدف من وراء سياسته الدبلوماسية مع الدول المجاورة له، تأكيد قوّة قبائل المخزن[2] وعظمة ولائها له ، وإبراز انتصاراته، سواء في موقعة وادي المخازن أو الثورات والقلاقل التي صحبت بداية عهد حكمه للمغرب الأقصى ، وعمل على تنمية تجارته ، وتحسين مداخيل خزينته .وأولى الدبلوماسية في عهده اهتماما كبيرا ، وحرص من خلالها على إظهار أبهة الحكم ، حيث اعتبر إرسال البعثات الدبلوماسية ونجاحها وسيلة من وسائل إدارته ، و راهن عليها لضرب خصومه .

- المماطلة والتسويف:

أوضح شالدانيا (Antonio de Saldanha) أن دبلوماسية المنصور كان يغلب عليها طابع القلق والتردد والحيطة والحذر على مشاريع الملك المغربي ، مما يفسر مخاوفه من الخطرين الإسباني والعثماني ، لكنه نجح في ربح كل الجولات التفاوضية بمهارة عالية ، استهدف من ورائها ربح الوقت ،بتسويفه الدائم لمطالب فيليب الثاني بخصوص العرايش، التي سنتطرق إليها لاحقا، كما ارتكزت على الاستفادة من الصراع العثماني الإسباني في حوض البحر الأبيض المتوسط ، فلا عجب إذا وجدناه يحتفظ بالسفارة البريطانية ، وبالأمير البرتغالي"كريستوف" إلى غاية انتهائه من الاستعدادات لغزو السودان ، ويماطل فيما تعهد به لحملة(Drake) الإنجليزي[3] على البرتغال .

4- حملة علج علي على المغرب عام 989هـ/1581م و التقارب المغربي الإسباني :

أقدم أحمد المنصور على تجاهل الوفد التركي والتثاقل عليه بعدما جاء لتهنئته ، الأمر الذي أغضب السلطان العثماني "مراد الثالث" ، وخاصة عندما تماطل في الرد على الرسالتين اللتين بعث بهما السلطان العثماني في رجب عام 988هـ /سبتمبر 1580م ، يطلب فيهما من المنصور عقد تحالف عسكري ضد الإسبان، على أساس إمداده بأسطول وقوّات ،حيث جاء في الرسالة ما نصه:

---

(1) نفسه .

(2) هي عبارة عن تجمعات سكانية متمايزة في وصولها مختلفة في أعرا قها ، جندت لتكون سندا للدولة للمزيد من الإطلاع أنظر ناصر الدين سعيدوني : **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر** ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984م ، ص 98.

(3) هو فرانسيس دراك ، عاش مابين-1542م/1596م- قرصان إنكليزي ومكتشف أنظر عنه.
Nicholson :**The life of Sir francis Drake,**London , 1828, p 3.

« ... نوجه لكم ثلاثمائة غرابا[1] سلطانية، وجيش عزّ ونصر ، وكماة عثمانية تستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس ... »[2].

وكان المنصور قد اتخذ موقفه هذا ، وعامل الوفد العثماني ببرودة لتصفية حسابات قديمة بسبب العوامل التالية:

أ – ردّ بذلك على موقف الأتراك المتآمر عليه، مع بعض قادة جيشه،بغرض الإطاحة به بعد الشهر الأوّل من مبايعته في أرض المعركة [3].

ب– الاتصالات التي كانت بين الأتراك والمتمرد الأمير "داود بن عبد المؤمن" ، والدعم الذي لقيه في ثورته ضد المنصور[4].

ج– إيواؤهم للأمير إسماعيل "ابن المعتصم عبد الملك"،الذي كان من الممكن أن يستعمل ورقة ضغط ضد المنصور وينازعه ملكه [5].

في هذه الظروف السياسية المشحونة والتوتر الشديد بين البلدين، ظهرت بوادر الحرب في الأفق ، فأعطى السلطان العثماني أوامره "للعلج علي" بغزو المغرب ، الذي وصل إلى الجزائر في جمادى الثانية عام 989هـ/1581م ، حيث وجد في المهمة التي كلف بها مبتغاه ،الذي طالما تمناه في ضم المغرب للدولة العثمانية ، والقضاء على دولة الأشراف السّعديين ؛ فتحرك على رأس خمسين غاليرة في ربيع سنة989هـ/ 1581م .

علم المنصور بتأهب العلج علي لغزوه، فحشد عساكره على شط نهر "تانسيفت" خارج مراكش مند صفر 989هـ /18 /03 /1581م[6] ، مدعيا أخذ البيعة مصافحة لابنه "المولى محمد المأمون" ، وفي هذه الأثناء توصل أحمد المنصور إلى اتفاق شبه عسكري مع الملك الإسباني ، الذي كان قد أنهى بدوره المشكلة البرتغالية ؛ بدخوله العاصمة لشبونة فاتحا يوم : 31 جويلية 1581م على أساس تقديم مساعدة عسكرية للمغرب لمواجهة التدخل التركي ، مقابل التنازل عن مدينة

---

(1) نوع من المراكب البحرية ،أول من استعمله القرطاجيون والرومان، وعنهم أخذه العرب واستعملوه للأغراض الحربية والتجارية، سمي بذلك لأن مقدمته تشبه رأس الغراب، للمزيد أنظر مصطفى عبد الكريم : المرجع السابق ، ص 330.

(2) رسالة السلطان العثماني مراد الثالث إلى السلطان أحمد المنصور، التي يعرض فيها التحالف ضد الإسبان منشورة . أنظر عمّار بن خروف : المرجع السابق ، ج1 ، ص 249 .

(3) عد الهادي التازي : المرجع السابق ، ص 50.

(4) عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص 61 .

(5) نفسه .

(6) نفسه ، ص 62 .

العرايش ، وامتيازات أخرى ، وإلى جانب هذه الاستعدادات العسكرية وجه أحمد المنصور سفارة إلى إسطنبول ؛ تضم القائد "أبا العباس أحمد بن ودّة" والكاتب "أحمد بن يحي الهزالي" لاسترضاء السّلطان(1) ، وأمام هذه التّطورات لم يجد السلطان العثماني بدّا من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب ، خوفا من خطورة تحالف المنصور مع الإسبان ضد الوجود التركي في المنطقة (2).

5- أطماع الإسبان في مدينة العرايش:

كانت معركة وادي المخازن اختبارا جديا لإمكانات نجاح التوغل الإسباني داخل الأراضي المغربية ، فملك إسبانيا "فيليب الثاني" كان على بينة تامّة من كافة العناصر التي تسمح له بتقييم القوات المغربية تقييما موضوعيا ؛ سواء تعلق الأمر بالقوات النظامية ، أو تلك التي تستنفر عند الحاجة ، وفي حالات الأزمة ؛ ومن هنا نفهم الهواجس الكبيرة التي انتابته في نيته للاستيلاء على مدينة العرايش المغربية ، إضافة إلى تحفظاته السّابقة التي حذر منها ابن أخته "الضون سيبستيان" قبل معركة وادي المخازن ، وبعد هزيمة البرتغال ازدادت مخاوفه من الإقدام على أي مواجهة عسكرية ضد جيرانه المغاربة في الجنوب ، و لكنّه لم يكن يشعر بالاطمئنان و الأمن نتيجة القرصنة (الموريسكيون ، القراصنة ، وغيرهم) التي كانت تهاجم سواحله وسفنه من القواعد المغربية ؛ و لهذا كانت مدينة العرايش تعتبر موقعا استراتيجيا مهما للملك الإسباني فيليب الثاني تساوي إفريقيا برمتها (3).

والحصول على مدينة العرايش بالنسبة للملك هاجسا ، لا يفارقه ، و يسعى جاهدا لتحقيقه بكل السبل ، و لهذا كان يتحمل بصبر مماطلة أحمد المنصور ، و مناوراته ؛ في الوقت الذي كان الملك المغربي يتعمد سياسة التسويف والتأجيل ، والازدواجية ربحا للوقت ، واستغلالا للطرفين التركي والإسباني لتحقيق مراميه.

استمر فيليب الثاني في التغاضي عن تلاعبات المنصور، وإخلافه لوعوده، مؤثرا العمل بالقنوات الدبلوماسية،حيث أرسل القس مرين" (padre marin) و"بييرو بنيغاش"(vengeas pero)لإبلاغ

---

(1) محمد خير فارس : **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي**، ط1، مكتبة دار الشرق ، بيروت 1969 ، ص53 .

(2) عبد كريم كريم : المرجع السابق ، ص 112 .

(3) Jehanne Marie gandin **: La remise de Larache aux Espagnols en 1610** , R. o .m .m. 1970 , vol 7, n° 1 , p 71.

المنصور بكل تطلعاته [1]، ومتجنبا الدخول في مواجهة سافرة مع المغرب ، لاسيما وأن نتائج معركة وادي المخازن ماثلة في الأذهان.

وبحلول سنة 1586م أصر الملك "فيليب الثاني"، وألح بشكل كبير على المطالبة بتسليمه العرايش ؛ الأمر الذي كان يقابله الشريف السعدي بدهائه المعهود ، فتسليم مدينة العرايش من قبله انتحار سياسي ومخالفة شرعية ، له انعكاساته الداخلية والخارجية التي تضعف من موقفه ، و نفوذه و تسيء إلى سمعته بعد انتصاره البطولي الأخير في وادي المخازن ، كما تؤثر على أمن بلده، وتهدد مصالح دولته ، و لذلك فضل الاستمرار في سياسة كسب الوقت من وراء هذه المسألة ؛ لكي لا يثير حفيظة الأتراك و الإسبان على حد سواء ، هذا دون أن ننسى أهمية الموقع الاستراتيجي للعرايش ، والذي يصلح أن يستعمل كقاعدة خلفية لحماية السفن ، و إصلاحها ؛ ولهذا كان من الطبيعي أن يعود مبعوث الملك فليب الثاني "الأب مرين" من مراكش مصطحبا معه الوعود المزعومة والاتفاقات المتكررة لتسليم العرايش ، و لكنه مرض في الطريق ، ومات [2].

6- الجوسسة الإسبانية على المغرب :

ذكر الأسير البرتغالي (Saldanha) أن الإسبان كانوا يتجسسون على المنصور[3] ، حيث أكد الدور الذي لعبه الأب مرين(Marin)،ثم ابن أخيه(Diego Marin)من بعده في نقل الأخبار عن مشاريع التحالف السعدي سواء مع الأتراك أو الإنجليز ، مستغلين في ذلك الثقة الكبيرة التي كانا يحظيان بها لدى السلطان السعدي ، بل إن وظيفة تقصي الأخبار امتدت لتشمل كل المسيحيين أو الأعلاج الذين كانوا يتعاملون من قريب أو بعيد مع المبعوثين الإسبان ؛مما اضطر المنصور إلى استعمال الشيفرة في مراسلاته الدبلوماسية ، بل وحتى الداخلية لإنجاز مهامه في سرية وكتمان،أوهم المنصور الإسبان أن بعثة"عبد الواحد عنون"[4] قصدت بلاد الشام لجلب المجوهرات، ولم تكن للتحالف مع الأتراك ضدّهم ، وضدّ ممتلكاتهم ، فروّج سلطان المغرب أمام الجواسيس الإسبان أخبارا منتقاة حتى يجني من ورائها مكاسب سياسية ؛ مثلما أشاع أنّ الإنجليز تقدموا

(1) حسين بوزينب : **من العرايش إلى فضالة أربعة عقود ونصف من الإستراتيجية الإسبانية في احتلال مراسي مغربية 1578م/1624م**، في مجلة التاريخ العربي ، جمعية المؤرخين المغاربة ، المغرب شتاء 2000 ، عدد 13 ،ص ص1- 2 .

(2) نفسه .

(3) محمد جادور : المقال السابق ، ص 06 .

(4) السكرتير الأول للسلطان أحمد المنصور من مواليد 1558م ، ويعرف كذلك بالمسعودي، يجهل تاريخ وفاته، سفير المنصور للملكة البريطانية "إليزابيث الأولى" عام 1600م، للترويج لإقامة حلف انجليزي مغربي أنظر: الموسوعة الحرة .

بطلب إليه، من أجل الحصول على ميناء مدينة المعمورة ، حيث أراد من تسريب هذا الخبر (استنفاذ كل المبررات) لقطع الطريق على إمكانية تسليم مدينة العرايش للإسبان[1] ،إن أهم ما نستشفه من كل ما سبق أن معظم تحركات المنصور الدبلوماسية كان يخطط لها بكل عناية وتنفذ بكل مهارة، الشيء الذي يؤكد أن المنصور كان فاعلا سياسيا في الأحداث الدولية.

7– الدعم الإسباني لثورة الناصر بن المولى عبد الله الغالب :

انتقل المولى "الناصر بن عبد الله الغالب" صبيحة معركة وادي المخازن، إلى معسكر البرتغال للانضمام إلى أخيه المولى محمد المتوكل.ولما قام فيليب الثاني ملك إسبانيا بضم البرتغال سنة 1581م ،وجد الناصر الفرصة مناسبة ، وتقدم بطلب النجدة ضد عمه المنصور، إلا أن الملك الإسباني لم يلتفت إليه ،بسبب مشاغله الداخلية والخارجية ،والعلاقات الوديّة ،التي كانت تربطه بالمنصور ، ولما انتهت معركة "الأرمادا" [2] ،بالغ المنصور في الإعراب عن تأييده للأمير الضون "أنطونيو" (Antonio)، وغالى في التعامل مع المعسكر البروتستانتي وإليزابيث ملكة الإنجليز خاصة؛ حيث أشار الفشتالي إلى ذلك بقوله : « ... بما أمدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار وإطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وإمدادها بالمعادن التي أعوزتها ببلادها ... »[3].

ولما حاول المنصور استغلال ظروف إسبانيا الحرجة بأوربا الغربية، للضغط على فيليب الثاني، ومساومته ،للتنازل له عن أصيلا ،لجأ الملك الإسباني إلى المعاملة بالمثل ؛ ونقل الأميران السّعديان "الناصر" و"الشيخ" من لشبونة إلى مدينة "كرمونا" "Carmona" [4] في شهر ماي 1589م ، وأخذ يلوح للمنصور بإمكانية مساعدتهما للثورة ضده ؛ الأمر الذي أجبر المنصور على عدم الوفاء بما وعد به الإنجليز ، وأبحر الناصر من "مالقا"يوم :7 ماي 1595م ، ومعه قوات جرارة ؛ معظمها من الموريسكيين، الذين كانوا يعانون الاضطهاد في إسبانيا ، ووجدوا في ذلك فرصة للفرار من هذا الجحيم ، كما وجد فيليب الثاني في ذلك مناسبة للتخلص منهم ، فأغرى الناصر وزين له الأمر.

---

(1) محمد جادور : المقال السابق ، ص 06 .

(2) تعني الجيش الكثير ، وهي اسم معركة بين الإنجليز و الإسبان دارت رحاها في أوروبا، وانتهت في 10 أوت 1588م، انهزم فيها أسطول فيليب الثاني للمزيد من الإطلاع والتوسع في المعركة أنظر جفري براون : **تاريخ أوروبا الحديث** ، تعريب علي المرزوقي ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن ، د ، ت ، ص202.

(3) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص 193.

(4) مدينة إسبانية في مقاطعة بروفانس إحدى حضائر الأندلس للمزيد من الإطلاع أنظر: Alexendre-louis –joseph :**Itinéraire descriptif de L éspagne** ,imprimerie de firmin dido ,S, D, p240 .

وقد أورد الفشتالي مانصه: « ... شمر للاعتمال في المكايد التي هي جنده الأقوى،وحصنه الذي يلوذ به عند الشدائد ؛ فأملى للناصر لتفريق الكلمة ، وتحريك حوار الفتنة ... »[1].

نزلت القوّات في مدينة "مليلة" المحتلة من الإسبان يوم : 28 شعبان 1003هـ/ 09 ماي 1595م ،وأعلن منها الثورة ضد عمه المنصور[2] فزحف على مدينة "تازا" ؛ واستولى عليها بسبب انضمام عدد من قوات المنصور للناصر ، فأصبح الطريق مفتوحا للثوار نحو فاس ،فزاد هذا النصر الأولي من حماس الناصر لمواصلة قتاله، ودفع ببعض زعماء القبائل للانضمام إليه ، وقد أختار الناصر جبال الريف الشرقي من المغرب كمركز لقواته، نظرا لأن المنطقة قريبة من مليلة قاعدة الاحتلال الإسباني ؛ وحتى يسهل عليهم مد الناصر بمختلف المساعدات العسكرية إن استلزم الأمر ،كما اتصل هذا الأخير بأتراك الجزائر لطلب العون منهم ، أو الالتجاء إليهم في حالة الانهزام. قال الفشتالي مؤكدا ذلك: «... وليجد وليجة إلى المروق من هناك لجهة الشرق، إن بدا له من أمره ما يكره...» [3].

بعث المنصور بعد شهرين من قيام ثورة الناصر، رسالة إلى فيليب الثاني مؤرخة بيوم : الخميس 6 ذو القعدة عام 1003م/ 13 جويلية 1595م أعرب له فيها عن بقاء حبل الودّ والمجاملة موصولا بينهما، آملا في ردّ فيليب الثاني وحمله على العدول عن دعم ثورة الناصر ، وحمّله مسؤولية ما سيقع ، فالمنصور كان على يقين ، ولم يشك أن الإسبان هم المحركون الأساسيون لثورة ابن أخيه، فأقدم على إلقاء القبض على السفير الإسباني بمراكش "بيلهزاربولو" (Balhzarpolo) يوم الجمعة 4 أوت 1595م ووضعه رهن الاعتقال، وملاحقة الأسبان الموجودين بالمغرب ،وذلك كتدابير وقائية احتراسا من أن يقوم هؤلاء بالشغب والفوضى لصالح ثورة الناصر بشمال البلاد[4] .

وفي شوال كلّف أحمد المنصور ابنه محمد الشيخ، ونائبه على فاس بتوجيه حملات عسكرية على الناصر، وظلّ هو معسكرا في نهر "تانسيفت" على أهبة الاستعداد للتدخل .

(1) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص171.
(2) عبد الكريم كريم : المرجع السابق ، ص 195.
(3) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق، ص171.
(4) عبد الكريم كريم : المرجع السابق ، ص 197.

التقى الجمعان على مقربة من فاس ، قرب جبل "مدغرة" في معركة عظيمة ، دامت ساعة ونصف(1) انهزم فيها الناصر وفرّ ،بعد أن أصيب برصاصة في ركبته ، و فقد حوالي خمسة آلاف قتيل من جيشه ، بينما خسر محمد الشيخ المأمون ألفين من رجاله .

وبعد مطاردة للناصر تمّ اعتقاله وأعدم سنة 1004هـــ/ 1596م، وبذلك انتهت ثورته؛ التي هددت المنصور تهديدا جديا ،كادت أن تقضي على حكمه .

8– صدى كارثة الأسطول الإسباني في البلاط السعدي:

تتبع المغرب الأقصى عن كثب تطورات العلاقات بين الدول المجاورة له تتبعا كاملا، وأبدى المنصور اهتماما بخبر تعرض الأسطول الإسباني "لارمادا" (Làrmada) للعاصفة الهوجاء، التي أودت به سنة 996هـــ /1588م وهو في طريقه بقيادة "مدينةسيدونيا" (Médina Sidonia) للثأر من إليزابيث ملكة إنجلترا، فأستبشر المنصور وفرح بهذا الخبر السّار، وكتب رسالة بعث بها إلى قاضي الجماعة بالسّوس "أبي عثمان سعيد بن علي" قال له فيها:(2).

« ... تعين أن نساهمكم من كل بشرى ترد علينا وبشارة ... وذلك أن عدو الدين جدد الله حزنه، وقوّض ركنه ، وهو طاغية قشتالة ... كان من أمره من سلطان بلاد إنجلترا ،التي قيض الله له منها عدوا من جنسه وضدّا شغله عن نفسه ،بسبب عداوة نشأت عن نزوعها هي وقومها عن دين النصارى وشرعتها والخروج عن ملتهم،فكانت لذلك تغري الطاغية منذ سنين بأسطولها في عقر داره ، وتستأصل المرة بعد المرة بسيوفها جماهير حماته وأنصاره وتقيم كل يوم في أرضه مآتم وتهجم على أساطيله مع البحر غربانها هجوم الليل ... » (3).

9– قلق فيليب الثاني من تنامي قوّة المنصور:

كان الملك الإسباني "فيليب الثاني" يسعى أن يبقي "أحمد المنصور" ضعيفا ومحايدا ، لكن التطورات التي حصلت في المغرب بعد هزيمة البرتغال ، واعتلاء أحمد المنصور سدّة الحكم ، وخروج هذا الأخير منتصرا من كل المشاكل التي صادفته في حكمه ؛ وآخرها ثورة ابن أخيه الناصر التي كادت أن تعصف به و بانجازاته .

دخل المغرب الأقصى عهدا جديدا من القوة والمنعة ؛ فاستطاع أن يحقق في المجال الاقتصادي قفزة نوعية كبيرة ،ازدهرت بها الزراعة ، وتطورت صناعة السّكر ، المادة الحيوية التي

---

(1) Henry de Castries : Op .Cit , T2 , France , p 224 .

(2) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ص150.

(3) نفسه.

يكثر الطلب عليها من التجار الأوروبيين و توسعت التجارة الخارجية والداخلية ، وشهدت مراكز عديدة توسعا بالغ الأهمية في نشاطها الاقتصادي ، لم تشهده قط من قبل ، مثل آزمور ، وآسفي ، وتارودانت ، و توات ، و شيشاون ، ومراكز أخرى عديدة (1) .

علاوة على الأسطول المغربي الذي أخذت وحداته تتزايد في عرض البحار ؛ فلم يعد فيليب الثاني يأمن جانب المنصور لما كان يتمتع به المغرب من موقع إستراتيجي، يمكّن خصوم إسبانيا متى ما نجحوا في استمالة المنصور، من تهديد المواصلات الإسبانية ، وتصفية قواعد الاحتلال الإسباني بالمغرب ، بالإضافة إلى المساعدة التي يمكن أن يقدمها المغرب للموريسكيين؛ الذين لا يزالون قوة خطيرة بإسبانيا (2) .كما اهتم المنصور بصناعة المدافع التي وصف الفشتالي ترسانتها وصفا دقيقا ، وسماها "دار العدّة" ، واستفاد المنصور من التحصينات؛ التي تركها البرتغال في آسفي ، وأصيلا ، و بنى برجين بفاس على شكل نجمة رباعية ، كان الغرض منهما مراقبة تحركات الأعداء .

جرّب المنصور استعمال القوّة ضد الإسبان ؛ إذ أمر" أحمد النقسيس" حاكم تطوان بالهجوم على سبتة يوم 22محرم 997هـ/11ديسمبر 1588م ، حيث فاجأت القوات المغربية ضواحي هذه المدينة التي كان معظم أهاليها الأسبان قد خرجوا منها للنزهة ، فقتلوا ، وأسروا عددا عظيما منهم.وذكر الفشتالي هذه الحادثة بقوله:(3) « ... وكادوا أن يستولوا على سبتة ، بما أتيح لهم من الظهور باستئصال عامة أهلها ، وانتهاز الفرصة في حاميتها ...» ، وعندما علم المنصور بهذا النصر سرّ به كثيرا ، وكان القصد منه اغتنام وضعية الإسبان الحرجة ، عقب الانهزام في الأرمادا ؛ لتحرير مراكز احتلالهم في المغرب الأقصى ، والضغط على فيليب الثاني ، و إشعاره بمدى قوته العسكرية .

10- مظاهر قوة المنصور بعد معركة وادي المخازن 1578م/1603م.

اهتم المنصور بعد انتصاره الساحق في وادي المخازن، على إنشاء جهاز إداري وسياسي قوي، وكانت حكومته تضم وزراء من مستوى ثقافي عال ،كأبي فارس عبد العزيز الفشتالي،وعبد العزيز المزوار، وإبراهيم السفياني(4) .

---

(1) إبراهيم حركات : **أحمد المنصور الذهبي كرجل دولة** ، في م د ح ، المغرب أوت 1978م ، عدد 8 ، ص 57 .

(2) عبد الكريم كريم : المرجع السابق ، ص 195.

(3) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص96.

(4) Brahim Harkat : **le Makhzen Saàdien** , in R. o .m .m. 1973 , vol 15-16 , P 49.

و استطاع أن يكون دولة قوية ،بمقاييس القرن السادس عشر، رغم السنوات القليلة نسبيا التي قضاها في الحكم ،والتي تقدر بثلاثة وعشرين سنة ومنها :

– بناء جيش سعدي قوي:

تمكن المنصور من إنشاء جيش مغربي قوي ،تكونت نواته الأولى منذ عهد محمد الشيخ، واكتملت هيكلته في عهد قائد معركة وادي المخازن عبد الملك السعدي ،وقد ضمّ هذا الجيش عناصر من المرتزقة الأتراك والعلوج، بالإضافة إلى وحدات أندلسية، وعناصر من وطنية ، البربر والقبائل العربية(1).

جعل أحمد المنصور من الأتراك وحدة مستقلة ، بعد أن كانوا أيام سلفه ضمن فرقة تجمع صعاليك و أعلاجا من أجناس مختلفة . وأستطاع المنصور أن يدمج الوحدات الأندلسية والعلوج –وهم على العموم مسيحيون من أوروبا يدخلون غالبا في دين الإسلام– في فريق واحد مع سائر الوحدات الوطنية، التي تساهم في العمليات الحربية . ويزودنا أبو فارس الفشتالي بمعلومات دقيقة عن الحرس الخاص الذي كونه المنصور من الأتراك ، ولذلك يمكن الرجوع إليه في هذا المضمار .

حظي الجيش المغربي في عهد أحمد المنصور بقادة ذوي كفاءة عسكرية عالية ، تتميز بالوطنية ومنهم "إبراهيم بن محمد السفياني" الذي قاد الجبهة الأمامية في معركة وادي المخازن، كما قام بدور كبير في ردع القبائل الثائرة وقطاع الطرق(2). اهتم المنصور بصناعة المدافع كما بلغ في عهده الأسطول تطورا كبيرا،بعدما كانت قطع الأسطول في عهدي السلطانين "الغالب" و"عبد الملك" المعتصم أربعين قطعة (3).

– القضاء على الحركات المناوئة للحكم :

تمكن المنصور من تكوين قوة عسكرية كبيرة، إلا أن هذه القوة لم تمنعه من قيام حركات تمردية مسلحة ضد حكمه ،كادت أن تأخذ الدولة إلى ما لا تحمد عقباه ،حيث كانت هذه التمردات في غالبها من أفراد أسرته ونذكر منها:

أ- ثورة داود بن عبد المؤمن وأهل السوس 987هـ-988هـ/1579م-1581م:

في أعقاب تعيين أحمد المنصور ولده "محمد الشيخ وليا للعهد، ثار داود ضدّ عمه المنصور في السوس جنوب المغرب، حيث كان داود يمنّي نفسه بولاية العهد،وقد وجد في أهل السوس أنصارا

---

(1) إبراهيم حركات : المقال السابق، ص 64.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

لثورته ،فأسرع المنصور بتوجيه حملة استطاعت سنة 988هـ/1580م من محاصرة داود في "واد هرغة"، لكن داود استطاع الفرار إلى عرب "الودايا" ليموت هناك(1).

ب- ثورة الحاج قرقوش997هـ/1588م:

بدأت ثورة المرابط "الحاج قرقوش"في شمال المغرب بمقاطعة الهبط، حيث دعا لنفسه بالملك، وعبر عن ذلك الفشتالي بقول:

«....ولبس شارة الملك واتخذ الآلة وتسمى في كتابه بأمير المؤمنين....»(2) وأدّعى أنه من الأشراف، وجمع حوله خلقا كثيرا واشتعل لهيب ثورته في 16صفرسنة996هـ/15جانفي1588م فحرك له المنصور قوات من حملة البنادق ،قوامها 6000 مقاتل ،فهزمه وتوارى "قراقوش" على الأنظار، ثم ألقي عليه القبض، وأعدم في فاس في28رجب997هـ/1596/6/12م.(3)

ت – ثورة الناصر بن عبد الله :1003هـ-1004هـ/ 1595م-1596م والتي وجدت دعما قويا من إسبانيا.(4)

ث- تمرد محمد الشيخ :

بعدما استطاع المنصور أن يقضي على ثورة الناصر؛ التي كانت قوية جدا،عاش المغرب وباء الطاعون؛ الذي فتك بالكثير من الناس ،واستمر سائدا فيه سبع سنين .

لكن ما أثر كثيرا في نفسية المنصور، هو تمرد ابنه محمد الشيخ عليه، وسؤ سيرته وقد قال المجهول في هذا الصدد ما نصه :

« ... قبيح الذات والأفعال غدارا لمن خدمه، ونصحه، مسرعا إلى الفساد في القينات ... مصرا على الخمر والحشيش... »(5).

وقد جمع حوله أعداء أبيه كعرب أولاد حسين، وبعض الموالين للأتراك ،كعرب أولاد طلحة. وفي أكتوبر وجه المنصور حملة قوامها 8000 مقاتل، لتعقب ابنه "محمد الشيخ"، فلم يكن أمام ابنه المتمرد إلا اللجؤ إلى إحدى الزوايا ليتم القبض عليه بعد معركة عنيفة(6).

---

(1) عبد العزيز الفشتالي: المصدر السابق، ص ص 56-58.

(2) نفسه ، ص 94.

(3) عمار بن خروف : المرجع السابق ،ص 129.

(4) للإطلاع أكثر عن تفاصيل هذه الثورة، يمكن الرجوع إليها في الفصل الثالث من هذه الدراسة .ص110.

(5) المجهول: المصدر السابق ، ص69.

(6) نفسه ، ص 74.

- غزو المنصور للصحراء 991 هـ /992هـ :

كانت ناحيتا "توات"(1) و "تيكورارين"(2) الواقعتان في الأراضي الصحراوية الجزائرية تتمتعان بحكم ذاتي ، وتخضعان للملوك المغاربة الذين مدوا نفوذهم إلى تلك الجهات ، وقد قرر المنصور بعد ثلاث سنوات من توليته، وبعد أن اكتسب زمام القوة العسكرية ،ارتأى أن يدخل المنطقتين المذكورتين ،اللتين لم يكن الأتراك يعيرونهما اهتماما ، غير أن بعدهما لم يساعد على التعجيل بدخولهما ، ولم يتم ذلك إلا في سنة 990هـ /1583م ، حيث أسندت قيادة الحملة إلى القائد "أحمد بن بركة" ، و"أحمد الحداد العمري" ، وقد تطلب الوصول إلى هذه الجهات شهرين ونصف من السير انطلاقا من مراكش ، على أن الأتراك لم يقوموا بأي ردّ فعل ضد هذه الحملة ؛ التي كانت لها نتائج إيجابية من الناحية الاقتصادية ؛ أتاحت للمنصور الذهبي أن يتهيأ ويستعد لفتوحات أوسع نطاقا من الجهات المجاورة (3) .

- غزو السودان :

أطلق الجغرافيون القدامى مصطلح السودان على مجموع أراضي إفريقيا الغربية ، الواقعة من جنوب الصحراء إلى النيجر ، و مع مطلع القرن الخامس عشر بدأ الأوربيون من إسبان وبرتغاليين و فرنسيين وإنجليز في استغلال سواحل إفريقيا الغربية، بحثا عن الذهب والرقيق.يعتبر غزو السودان من طرف المغرب الأقصى أثرا من آثار موقعة وادي المخازن، إذ وفرت هذه الأخيرة للمنصور سبل القوّة والمكانة ، وحوّلت المغرب من بلد كان بالأمس القريب مطمعا لأعدائه ، تهاجم أراضيه وتحتل ثغوره من البرتغاليين والإسبان والأتراك ،إلى بلد يجيش الجيوش ، ويبعث الحملات العسكرية للتوسع جنوبا ، ومضايقة أعدائه الأوروبيين .ففي سنة 989هـ/1582م استنجد "أسكية بن داود" ملك "بورما" بالمنصور لإخضاع بعض القبائل الثائرة عليه (4) ، بعد أن يئس من الأتراك في الجزائر ، فأشترط عليه المنصور الدخول في بيعته ، وبعد وفاة " أسكية بن داود "خلفه في الحكم ابنه "الحاج محمد" ، لكن المنصور أعلن الحرب على السودان ، فجرد حملة عام 990هـ/1583م

---

(1) واحة كبيرة بالجنوب الجزائري ،تضم عدة قرى وقصور ، من أشهر مدنها تيميمون و قراره. أنظر هامش مولاي بلحميسي: **الجزائر خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني** ، الشركة والوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1981، ص 67 .

(2) معناها بالبربرية المعسكرات للمزيد من الإطلاع أنظر الوزان : المصدر السابق ، ج2، ص 133.

(3) أحمد بن القاضي: **درة الحجال في أسماءالرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور،دار التراث،ط1،القاهرة 1970،ج1،ص 119.

(4) إبراهيم حركات : المقال السابق ، ص70 .

من عشرين ألف مقاتل بقيادة "محمد بن سالم" "وعبد المولى بن عيسى" ؛ لكن الحملة فشلت وهلك معظم الجيش عطشا وجوعا ، وقد عارض العلماء هذه الحملة ، واعتبروها ليست بفتح ؛ لأنّ بلدان المسلمين لا تفتح .تهيأ المنصور لحملة ثانية سنة 998هـ/ 1590م بقيادة "جؤذر باشا" (ذي الأصل الأندلسي من نواحي غرناطة ، انضم إلى الجيش مع أخيه محمود في عهد المنصور)(1)

و قد جلب معظم الأسلحة من إنجلترا التي زوّدت المغرب أيضا بمقادير كبيرة من القماش الصالح للخيام ، و لاشك من أن إنجلترا لم تكن خاسرة بهذه الصفقة ما دام المغرب يواجه بلدا غير مسيحي ، فضلا أن هناك صفقة بين البلدين ناتجة في الواقع عن عداء مشترك لإسبانيا ، وبلغ عدد الجيش المغربي اثنين وعشرين ألفا ، و وجه المنصور خطابا إلى قاضي تومبوكتو "أبي حفص عمر بن محمود"، ليستعمل نفوذه لدى سكان السودان، من أجل الدخول في طاعة ملك المغرب .

كان الجيش السوداني ما بين ثمانين ألف ومائة ألف مسلح بالأسنة والسّيوف ،وتم اللقاء قرب مدينة "كاغو"(2) شمال "تونديبي" سنة 999هـ / 1591،حيث انتهى بهزيمة الجيش السوداني بقيادة "إسحاق سكية" (3) وتمّت سيطرة العاهل السّعدي على السودان، وقد ذكر صاحب كتاب "تأريخ الدولة السعدية" مستنكرا ما قام به المنصور من تنكيل بأهل السّودان بقوله : « ... فأمر بالمفرحات غدوة وعشيا ثلاثة أيام فرحا بقتل عباد الله المسلمين، والكل يلتقي عند الله ... وأخذ أموالهم وتمليك عيالهم وأولادهم ،وفرح بذلك فرحا عظيما وسرّ به سرورا جسيما ... »(4).

بينما قال الفشتالي عن المناسبة مانصه :

« ... التهنئة لتمام هذا الفتح الكريم ،والمن الجسيم وجلس للتهنئة وأنشد الشعراء بين يديه وكنت أول من رفع إليه كلمته ... »(5) .

فالملاحظ أن غزو المنصور للسودان لم يكن عليه إجماع كبير من العامة والعلماء، فهناك من اعتبره تعديا على شعب مسلم لا يرقى للفتح، لأن المسلم لا تفتح بلاده ، وهو الرأي الذي عبر

---

(1) شارل أندري جوليان : **تاريخ إفريقيا الشمالية** ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر ، أوت 1985، ج2 ، ص275 .

(2) عاصمة مملكة صنغاي تقع على الضفة اليسرى من نهر النيجر أنظر أحمد شلبي: **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، ط1 ،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1972، ص 269.

(3) ذكر المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعيدي بالتفصيل حوادث غزو السودان، ومقاومة أهله وللمزيد من الإطلاع أنظر كتابه **تاريخ السودان** : ص ص 149 - 161 .

(4) المجهول : المصدر السابق ، ص ص 67-68.

(5) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص156.

عنه المجهول صاحب كتاب تأريخ الدولة السعدية الدرعية التّاكمادرتية ،بينما مؤرخ المنصور عبد العزيز الفشتالي فقد هلل للفتح ورحب، وهو موقف طبيعي لأنه محسوب على رجال البلاط السعدي .

وقد أورد القاضي محمود كعت[1] صاحب كتاب "الفتاش في أخبار البلدان والجيوش، وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور[2]وعظائم الأمور" ،احتلال المغاربة لقسم من السودان الغربي بالقوة يعود إلى فساد أخلاق السكان، واستهتار المتأخرين من ملوكهم بالقيّم. ويمكن حصر الأسباب التي أدت بالمنصور إلى غزو السودان فيما يلي[3].

أ- عامل التوسع السياسي :

فالمنصور السعدي كان يعتبر نفسه خليفة ، ويستمد سلطة خلافته من نسبه ، وشجعه فتح تيكورارين وتوات على التمادي في غزوه جنوبا ،لأنه أمن كل مضايقة من الخارج، بسبب الهيبة التي اكتسبها بنصره في القصر الكبير.

ب – العامل الاقتصادي :

كانت موارد المغرب، أقل من أن تتسع لسد حاجيات الدولة من نفقات عسكرية، ومنشآت عمرانية واجتماعية ، وكان معروفا عن السودان ،أنها تتوفر على كميات معتبرة من الملح، الذي كان يباع بالذهب ، ويستعمل كعملة صعبة في تجارة الصحراء[4] ، لذلك طمع المنصور في استغلال خيرات السودان.

بالرغم من أن بلدان السودان لم تكن معروفة معرفة جيدة لدى البلاط السعدي، وذلك أن التجارة مع السودان كان يقوم بها أشخاص لحسابهم الخاص ، ويتحملون وراءها المشاق الكثيرة وهذا ما يفسر فشل حملة المنصور العسكرية الأولى على السودان[5].

---

(1) توفي حوالي سنة 1002هـ/1593 ، حضر احتلال السودان ، يعتبر كتابه تاريخ الفتاش مصدر من مصادر القرن السادس عشر ، أنظر عنه ، عبد القادر زبادية : **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية وجنوب الصحراء** ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1989، ص 56 .

(2) شعب زنجي يسكن الجزء الأكبر من بلاد السنغال ، ومدينة تكرور تعرف عند ابن خلدون بمدينة زغاية ، وأهل التكرور يعيشون على الزراعة ،كما عرفوا بالشجاعة في العصور الحديثة أنظر عن هذا الشعب الإفريقي إسماعيل العربي: **الصحراء الكبرى وشواطئها** ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1983 ، ص 171 .

(3) إبراهيم حركات : **المغرب عبر التاريخ** ، ج2 ، ص 298 .

(4) إسماعيل العربي:المرجع السابق ، ص 329.

(5) عبد القادر زبادية : المرجع السابق ، ص 43 .

ج- العامل العسكري:

لم تكن السودان تتوفر على قوّة عسكرية حديثة التنظيم والتسليح ،فليست للجيش مدافع ولا بنادق ،وعلى العكس من ذلك، فإنّ الجيش المغربي كان مجهزا على أحدث طراز بالنسبة للقرن السادس عشر الميلادي /العاشر الهجري(1).

- الرفاهية الاقتصادية :

أصبح المغرب بعد معركة وادي المخازن وتوجه المنصور لغزو بلدان الصحراء، يعيش في انتعاش اقتصادي كبير، ورفاهية اجتماعية حسنة ،بسبب ما تحصل عليه المنصور من ذهب السودان وتبره وعبيده (2)، وما نتج من أموال نتيجة مفاداة الأسرى المسيحيين والهدايا، التي قدمت له من الملوك والقناصل، وقد استغل المنصور هذه الإمكانات في تقوية وتطوير قوته العسكرية البرية والبحرية ،بصناعة السفن ،والأسلحة ،مستعملا بعض الأسرى ،ممن لهم معرفة وخبرة علمية واقتصادية، وقام بتطوير صناعة السكر ؛التي أصبحت من الصناعات الأولى في المغرب(3).

فهذا الثراء الكبير للمغرب، دفع بالكثير من الدول أن تتقرب إليه وترغب في التعاون معه، فسيطرته على التجارة، ومناجم الذهب، رفع من قيمة إمبراطوريته الدولية ، وجعل له وزنا خاصا في العالم الخارجي،حتى بدأت إسبانيا تخشى من سطوته، وتخاف من قوته المتنامية، التي قد يستعملها ضدها(4).

- تحكم المنصور في طرق التجارة الصحراوية :

أصبح المنصور إمبراطورا تدين لطاعته بلاد واسعة من شمال غربي إفريقيا ،نظرا للسواحل التي سيطر عليها ،وتمتد مئات الكيلومترات على ضفاف المحيط ، الأمر الذي جعل المنصور يشرف على أعظم طرق المواصلات البرية بين السودان والمغرب من جهة، وبين إفريقيا الشرقية ومصر من جهة أخرى، وقد شجعه على التمادي في فتوحاته في الصحراء الإفريقية وبلاد السودان ، ضعف الطريق

---

(1) نفسه ، ص 48 .

(2) كان الملح يباع بالذهب ، ويستعمل عملة صعبة في الصحراء، لمبادلته بكل ما يباع ويشترى. أنظر إسماعيل العربي: المرجع السابق ،ص 329.

(3) عبد الكريم كريم : المرجع السابق ، ص 176.

(4 Paul Berthier: **la canne à Sucre richesse de l ancient Maroc** , in R.O .M .M ,1964 , N^{O}2 , P 386.

البحرية المتوسطية، غداة التوسع التركي في الشمال الإفريقي،وإعلانهم الجهاد البحري ضد الدول الأوروبية ،التي لم يمضوا معها معاهدات واتفاقات[1].

– المنصور وحلم استرداد الأندلس :

كانت السنوات الأخيرة من حكم "فيليب الثاني" ملك إسبانيا قلقة جدا ،إذ الفشل والخيبة وتوالي الهزائم بعد أن تكبد خسائر جسيمة في معركة الأرمادا في 10 أوت 1588م ،قد دفع بأحمد المنصور إلى التعاون مع المعسكر "البروتستانتي" ،تحدوه رغبة العمل ضد فيليب الثاني، كرد فعل لما قام به من تأييده لثورة الناصر ،ولأن احتلال الإنجليز لمدينة قادس سنة 1596م، أبطل أسطورة إسبانيا القوية المنيعة، وأظهر حقيقة أوضاعها المضطربة، فحرك ذلك في نفس المنصور،حلم استرداد الأندلس ،حظيرة المسلمين المفقودة ،حيث ذكر الفشتالي ما نصه :

« ... إن يريدنا على عدو الدين بفضله ،وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دين الحق كله، ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندلس، وتجديد رسوم الإيمان بها ،وإحياء أطلاله الدرس حتى ينطلق لسان الدين فيها بكلمة الله التي طالما سكت عنها بدائه وخرس وشرق بريقه فغصّ و احتبس... »[2].

وقد ظهر هذا العزم في توجيه المنصور ثلاث سفن مسلحة، ومحملة بالمؤن انضمت يوم 25 جوان 1596م إلى الأسطول الإنجليزي والهولندي، الذي كان يحاصر مدينة قادس الإسبانية تحت قيادة(Charles Haward)، ليؤكد للإنجليز والهولنديين ،مدى حرصه على محاربة الإسبان.

أعرب المنصور عن أمله في فتح الأندلس، إذ أن احتلال قادس قد أعطى الدليل على إمكانية فتح إسبانيا متى توحدت الجهود، واتخذت كل الإمكانات، وفي شهرمارس1597م، وصلت للمنصور رسالة من الملكة ايليزابيت ،تطلب فيها من المولى أحمد أن يقوم بتخريب المناطق الزراعية الموجودة حول مراكز الاحتلال الإسباني بالمغرب، وأن يفرض حصارا اقتصاديا شديدا[3].

وأمام هذه الأوضاع الخطيرة التي تمر بها إسبانيا، رأى فيليب الثاني، أن يمنح عفوا شاملا عن الساسة البرتغاليين ؛الذين كانوا يتعاونون مع الإنجليز والمغرب الأقصى ،حتى لا تسخرهم "إليزابيث" في المشكلة البرتغالية ،وتستخدمهم لخدمة أغراضها، ومشاريعها ضد إسبانيا، وتأجيج المعارضة المسلحة ضد الوجود الإسباني على أرض البرتغال.

---

(1) عبد الكريم كريم : المرجع السابق ، ص 174.

(2) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص 191.

3) Henry de Castries : Op. .Ci t , D’angleterre, T2 (, p 121.

– علاقات المنصور التجارية مع الإنجليز :

بعثت الملكة إليزابيث خطابا للمنصور في أبريل 1585م ،تقدم فيه شكرها لما أبداه من رعاية الإنجليز، الذين وصلوا للمغرب للتجارة وفي 05 جويلية من نفس السنة، و أصدرت الملكة مرسوما بتأسيس شركة "بلاد البربر" لاحتكار التجارة المغربية لمدة اثني عشر عاما، وتدين هذه الشركة بوجودها للجهود، التي بذلها لدى البلاط الإنجليزي كل من "إيرل أوف ليستر" وأخوه "إيرل أوف أرويك" ،حيث كانا يسيطران تماما على تجار لندن الأربعين ؛الذين كونوا هذه الشركة (1).

وقد استهدف تأسيس شركة بلاد البربر تحقيق غرض آخر، وهو أن يقف تجار لندن حائلا في مواجهة من أسموهم بالمتطفلين، الذين قاموا بالاتجار في السلاح، والذخيرة ،والأقمشة الرخيصة بكميات كبيرة ،مما أدى إلى تدمير السوق ،و وقوع أضرار بالتجارة، والتجار الشرعيين(2).

كان أول قرارات الشركة الجديدة ، هو إرسال وكيل لها في البلاط السعدي ، ليحافظ على العلاقات الودية بين البلدين، وقد وصل هذا الوكيل المدعو "هنري روبرتس" إلى آسفي في 04 سبتمبر 1585م، واستقبله المنصور بحفاوة عظيمة ،ومنحه دارا في الحي اليهودي ،حيث أقام هناك ثلاثة سنوات، وقد انعكس تحسين العلاقات بين المملكتين في المرسوم ؛الذي أصدره أحمد المنصور في 03 ربيع الآخر عام 996هـــ/ أول مارس 1588م، والذي قدم فيه الحماية والرعاية الخاصة للتجار الإنجليز(3).

مجمل القول:

أن المغرب الأقصى بعد معركة وادي المخازن، قد دخل في علاقاته مع إسبانيا مرحلة جديدة تتمثل في التعامل بالمثل والندية ،فقد فهمت إسبانيا أن المنصور اكتسب من القوة العسكرية والمكانة الدولية، ما يمكنه أن يهدد الوجود الإسباني في المغرب، وخاصة لو توجه صوب أعداء إسبانيا التقليديين، الإنجليز، والدولة العثمانية، وقد يستعمل المغرب كقاعدة لمحاصرة الإسبان من الجهة الجنوبية،في الوقت الذي كانت فيه المسألة البرتغالية على أشدها، كان فيليب الثاني يخشى أن يمد أحمد المنصور العون للثائر "الضون أونطونيو" ويدعم ثورته بالمال والسلاح، فقد بات أحمد المنصور في المغرب على درجة كبيرة من القوة واستطاع ،أن يتغلب على كل الصعوبات الداخلية والخارجية ؛التي واجهته في بداية عهده على الخصوص؛ وصارت الدول الفاعلة في القرن السادس

---

(1) ف ج روجرز : المرجع السابق، ص 46.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص 47.

عشر تحسب له ألف حساب، فلم يعد يخشى الانتقام من جيرانه العثمانيين، و الإسبان ،ويشهد على ذلك إقدامه على شن هجوم على "توات" "وتيكورارين" في سنة 991هـ/ 1583م(1)، وفرض الحصار على طنجة في سنة 992هـ/1584م(2) ،ثم على سبتة سنة 996هـ/1588م(3)، وإرسال حملة في مطلع سنة 998هـ/ 1590م لاحتلال بلاد السودان الغربي(4).

ومن القضايا التي استطاع فيها احمد المنصور ربح الوقت ومماطلة فيليب الثاني، هي مسالة العرايش(5)؛التي كان فيليب الثاني يسعى بكل السبل، ويضغط على المنصور بقوة، من أجل الحصول عليها ،باعتبارها ميناء إستراتيجي لإسبانيا ،لكن حنكة أحمد المنصور الدبلوماسية وإتقانه تبديل الأدوار بينه، وبين الأتراك، و الإسبان ،لم تحقق لفيليب الثاني أمنيته في الحصول على ميناء العرايش في حياته.

---

(1) عبد العزيز الفشتالي:المصدر السابق ، ص 75.

(2) Henry de Castries : Op .Cit , T2 , France , p 114.

(3) عبد العزيز الفشتالي: المصدر السابق ، ص 96.

(4) عبد الرحمن السعدي: المصدر السابق ، ص 137.

(5) Henry de Castries : Op .Cit , T2 , France , p 115.

المبحث الثالث :

أثر معركة وادي المخازن(1578م) في العلاقات المغربية الفرنسية:

كانت فرنسا عقب معركة وادي المخازن،مازالت تعاني من الحروب الدينية ، ومن التدخل الإسباني في شؤونها،و لم يكن بإمكانها أن تباشر صلات سياسية نشطة خارج القارة، حيث كانت علاقاتها مع المغرب الأقصى محدودة، يمكن أن نبرزها وفق النقاط التالية.

*- الملك الفرنسي هنري الثالث يهنئ أحمد المنصور.

*- دور فرنسا في المسألة البرتغالية عقب معركة وادي المخازن.

*- هزيمة فرنسا في معركة جزر الأزور(Açore) جويلية 1582م.

*- مشرع هنري الرابع مع أحمد المنصور.

*- البحرية المغربية والفرنسيين.

*- رحلة أفوقاي إلى فرنسا.

*- وفاة أحمد المنصور1012هـ/1603م.

دخلت فرنسا أتون الحرب الدينية التي استمرت أربعين سنة، والتي مزقتها اجتماعيا واقتصاديا ،وبقيت منغلقة على نفسها نوعا ما ،حتى تضمد جراحها .ولا يعني هذا أن الفرنسيين كانوا بعيدين عن معركة وادي المخازن بل شاركوا فيها، إما أفرادا مرتزقة ،أو بإيعاز من الحكومة الفرنسية ،لأن معركة القصر الكبير، كانت معركة صليبية بامتياز، دعمتها البابوية، وشاركت فيها الشعوب المسيحية، ومنهم الفرنسيين(1).

وبالرغم من كل ذلك، فإن الحكومة الفرنسية ،كانت على إطلاع على أحوال المغرب، وعلاقاته الخارجية،وكان أول قناصلها(2)في المغرب الطبيب "غليوم بيرار" المقرب من "عبد الملك" وأخيه "المنصور"، وكان قد تعرف على عبد الملك السعدي في اسطنبول وتوثقت بينهما الصلة إثر سهره عليه حين مرض في اسطنبول ، وفي معركة وادي المخازن سنة 1578م كان هذا الطبيب،

---

1) Bartolomé (Benassar et Lucile Benassar **: Les chrétiens d' allah** l histoire extraordinaire des Renégats 16 siècle et 17 siècle , paris ,perin 1989 , p 279 .

(2) محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق ، ص70.

متواجدا بالمغرب ،حضر المعركة ،وكان من الذين عالجوا عبد الملك السعدي في مرض موته ،وقام هذا الطبيب بدور متميز لصالح بلاده في السياسة الفرنسية مع المغرب في القرن السادس عشر(1).

1- الملك الفرنسي هنري الثالث يهنئ أحمد المنصور :

عقب تولي أحمد المنصور عرش المغرب ،أوفد ملك فرنسا "هنري الثالث"(1551م/1589م) سفارة إلى المغرب، يقودها القنصل "كيوم بيرار" بتاريخ 21جمادي الأولى 987هـــ /16 جويلية 1579م يهنئه بالملك، وبانتصاراته عن أعدائه ،مذكرا إياه بالعلاقات الطيبة؛ التي كانت بين فرنسا وأخيه المولى عبد الملك ... مضيفا إلى هذه العواطف، رجاء فرنسا في أن يأذن لمراكبها بدخول الموانئ المغربية، وبان يعمل على تحرير ما يوجد من أسرى فرنسيين بالمملكة،وأن يسمح لها بتصدير أربعين ألف قنطار من الزرينة "rosette "لاستعمالها في الأصباغ، وبتصدير خمسة وعشرين ألف قنطار من ملح البارود، وتقدم السفير الفرنسي بطلب للمولى أحمد المنصور، يلتمس منه إقراض الملك الفرنسي"هنري الثالث"مبلغا وقدره مائة وخمسين ألف"ecus"(2).مما يدل على المكانة السياسية ،والاقتصادية ؛التي وصل إليها المغرب، بعد الرخاء الذي شهده بعد غزوة وادي المخازن، وتوجهه جنوبا نحو السودان(3).

قال الفشتالي حول هذه السفارة :

« ... وكان ممن وصل أيضا عن فئة ذلك يومئذ ،إرسال طاغية الإفرنجة ويقال أفرنصة وبه يعرفون اليوم فقضوا فرض التهنئة، واقتفوا سنن غيرهم ،من إرسال ملوك الأرض...»(4).

2- دور فرنسا في المسألة البرتغالية عقب معركة وادي المخازن:

بالرغم من أحوال فرنسا الداخلية نتيجة الحروب الدينية التي عصفت بأوروبا كاملة، وفرنسا خاصة ،إلا أن تداعيات الأزمة البرتغالية الناتجة عن هزيمة البرتغاليين في القصر الكبير، ألقت بظلالها على البلاط الفرنسي،وقد أججتها العداوة التقليدية بينها وبين إسبانيا؛ التي تسعى للهيمنة على منطقة البحر الأبيض المتوسط، والمصالح الإستراتيجية لفرنسا، فاستثمرت سفراءها المعتمدين في مختلف الدوّل، وخاصة الدولة العثمانية؛ التي تربطها معها علاقات دبلوماسية وفق معاهدة الامتياز التي عقدت سنة 1536م،فقام هؤلاء القناصل والمبعوثين بدور بارز في إعلام البلاط الفرنسي بكل

---

(1)عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ص 173.

2) Henry de Castries : Op .Cit , T2 , France , p 22 .)

(3) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ص 174.

(4) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص 51.

التطورات على الساحة الدولية، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال السفير "جير يميني"[1] و السفير" دي فريبي" لدى البندقية ،وقد دعت فرنسا مرارا إلى التدخل العثماني في القضية من خلال مفاوضيها؛الذين بذلوا جهودا لطلب العون من الباب العالي، ففي يوم5سبتمبر 1581م بعث السلطان العثماني سفيره "علي آغا" لباريس لمقابلة الملك "هنري الثالث" ،وهذا من أجل تدارس[2] المسالة البرتغالية وإيجاد السبل الكفيلة من أجل تقديم العون لفرنسا، في مواجهتها مع إسبانيا في معركة جزر "الأزور" البرتغالية، وكيفية تدخل البحرية العثمانية في ذلك .

3- هزيمة فرنسا في معركة جزر الأزور(Açore) جويلية 1582م:

أدت الأزمة البرتغالية التي كانت من الآثار الكبيرة لمعركة وادي المخازن، بالقوى الدولية المؤثرة في منطقة شمال إفريقيا، إلى الصدام والمواجهة، نتيجة تشابك المصالح وتعدد الرؤى الإستراتيجية لمختلف الدول، وتصفية الحسابات العالقة بينها في كثير من الأحيان.

كانت فرنسا باعتبارها من الدول المنافسة لمشروع إسبانيا في المنطقة، قد أقحمت نفسها في الصراع من أجل دعم حق البرتغال في استرجاع سيادته، ومد يد العون لمقاومة "الضون أونطونيو" فأرسلت الملكة الفرنسية "كاترين دوميسي" (Catherine de medicis)[3] حملة عسكرية قوامها ستون سفينة، على متنها ستة آلاف رجل، وأسندت قيادتها للضابط "فيليب ستروزي" لتحرير جزر الازور[4] التابعة للبرتغال ، مقابل تنازل "الدون أنطونيو" لها عن البرازيل وبعض المناطق التابعة لها .

فنشبت المعركة بتاريخ 26جويلية 1582م، وتعرضت فرنسا إلى هزيمة كبيرة نظرا للتدخل الاسباني القوي[5].

---

(1) هو السفير الفرنسي جاك جير يميني لدى الدولة العثمانية، من قبل الملك الفرنسي هنري الثالث ، أنظر Ernest Charrière : Op .Cit , T1 , P 814.

(2 Ibid , T4 , P 78.

(3) هي ابنة لورون دي ميديسي دوق إيربانو ، عاشت مابين 1519-1589 . زوجة الملك الفرنسي هنري الثاني، وأم لعدد من الملوك الفرنسيين أنظر: **Vie de Catherine de Médicis** : Traduit, Deugene Alberi,Paris 1844, p3

(4) هي مجموعة من الجزر التابعة لجمهورية البرتغال ، والموجودة في المحيط الأطلسي بعيدة حوالي 1500كلم غرب مدينة لشبونة ، وشمال غرب المغرب بحوالي 3900كلم ، أكتشفها البرتغالي "Diego de Silva"عام 1427م ، جرت فيها معركة الأزر بتاريخ 26جويلية 1582م بين الأسبان بقيادة" Alvaro de bazan " و" Philippe Strozzi" القائد الفرنسي ، وانتهت بهزيمة للبحرية الفرنسية ومقتل قائدها وعدد كبير من جنوده للمزيد أنظر -Nicolas desmarest : **encyclopédie méthodique, géographie , physiqu**e ,tome 02, imp, h.agasse, paris1803.

(5 L éon Guérin **: Histoire Maritime de France** , Chez Abel ledoux , éditeur , Paris , p 252.

وما يجدر قوله في هذا الصدد، هوأن فرنسا في صراعها مع إسبانيا ودعمها للمقاومة البرتغالية، كانت تسعى من وراء ذلك إلى تحقيق أطماعها للفوز ببعض المكاسب في ميراث الإمبراطورية البرتغالية، والاستحواذ على بعض مستعمراتها في أمريكا اللاتينية، كالبرازيل، لكن هزيمة جزر الأزور قد قلّص حظوظها في ذلك.

4– مشروع هنري الرابع مع أحمد المنصور :

اشتدت وطأة الحروب الدينية بأوروبا الغربية بين المعسكرين الكاثوليكي والبروتستانتي،وازدادت حدة الصراع في فرنسا والأراضي المنخفضة ،كما أمعنت بريطانيا في مضايقة المستعمرات الإسبانية في الهند وأمريكا والشرق الأقصى، وأمام التهديدات الإسبانية لفرنسا، بعد ما اعتنقت هذه الأخيرة المذهب البروتستانتي، رأت من مصلحتها الإستراتيجية، أن تتقرب من رجل المغرب القوي المولى أحمد المنصور،و تعمل معه من أجل إنشاء تعاون عسكري استراتيجي، تقف فيه القوتان جنبا إلى جنب،أمام التهديد الإسباني العدو المشترك للدولتين، فالتعاون بين الفرنسيين،والإنجليز وأحمد المنصور في المجال العسكري، والاقتصادي، بات في نظر الفرنسيين أكثر من ضرورة.

وفي هذا الإطار بعث الملك الفرنسي "هنري الرابع" 1589م/1610م[1] سفارة إلى المغرب يوم 13 ديسمبر 1596م بقصد تهيئة الأجواء السياسية، لبناء مشروع تحالف عسكري ضد إسبانيا[2]الراغبة بجدية لضم فرنسا ،وما تملكه بحجة توحيد القوى المسيحية، والقصد من ذلك مقاومة إسبانيا ،وإفشال خطط فيليب الثاني، وتوحيد القوى الدولية المناهضة لاحتلال البرتغال.

وعبر عن ذلك الفشتالي بقوله :

«... واتصل أهل أفرانصة وانضم بعض إلى بعض فقويت شوكتهم، واستفحل أمرهم وتعاظمت صولتهم فسمت همتهم، إلى استرجاع ملكهم، ومعاودة سلطانهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة،على ما يليهم من ممالكه فصمدت عساكرهم إلى باريز فنازلوها ،واجلبوا على أعماله وممالكه وزاحموه بالمناكب ولاحت لهم بوارق الظهور عليه... »[3]. وإذا عدنا إلى فترة الملك "هنري الثالث" فنجد أن هذا الأخير ، يبعث برسالة بتاريخ 21 فيفري 1588م إلى أحمد المنصور، يطلب فيها إطلاق سراح البحارة الفرنسيين؛الذين كانوا على متن السفينة "لالوف"(la lauve)، وقد وقعوا في الأسر

---

(1) كان حاكما لمقاطعة نفا ريا ، ملك فرنسا من سنة 1589م إلى سنة 1610م، ابن "أنطوان دو بوربون.أنظر L éon Guérin : Op. Ci t,p 263.

(2) Henry de Castries : Op. Ci t , D'angleterre ,T2 , p 106 .

(3)أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : المصدر السابق ، ص 195.

من طرف البحارة المغاربة على مقربة من مدينة أصيلا ،وأرسلوا للاسترقاق في مراكش، ويذكّره بالصداقة القديمة بين البلدين[1]، وقد استجاب المنصور لطلب الملك "هنري" عندما حصل بالمقابل على تحرير بعض الأسرى المغاربة في فرنسا.

وفي سنة1009هــ /1600م ،بعث الملك الفرنسي "هنري الرابع"مبعوثا لمقابلة احمد المنصور وهو "جيربيربالم"(Gilbert palme)،ليطلب من المنصور إطلاق سراح القبطان "جيل جيرار"(gilles gerard)؛الذي وقع في الأسر من طرف البحرية المغربية ،التي تراقب التحركات المشبوهة.

5- البحرية المغربية والفرنسيين:

توجهت فرنسا في عهد الملك "هنري الرابع" إلى تكثيف العلاقات الاقتصادية مع الإيالات العثمانية، ومع المغرب الأقصى، ولذلك حرصت على حرية الملاحة في البحر الأبيض المتوسط وعلى سلامة سفنها التجارية ،التي كثيرا ما كانت تتعرض للقرصنة المغربية، فاستغلت فرنسا علاقاتها التاريخية الحسنة مع الدولة العثمانية، فكتب الملك الفرنسي "هنري الرابع" رسالة إلى السلطان العثماني "محمد الثالث" يشكو فيها أمر القرصنة المغربية، ويدعوه لمراسلة السلطان المغربي أحمد المنصور لينظر في الأمر، وقد كان بالفعل ،ما أراد الملك الفرنسي حيث وجه السلطان العثماني الرسالة إلى السلطان المغربي بتاريخ 23 أوت 1603م[2].

ويتضح من كل هذا، أنّ علاقات فرنسا بالمغرب في أواخر القرن السادس عشر الميلادي/ العاشر الهجري كانت علاقات في مجملها تدور حول الأسرى الفرنسيين في المغرب الأقصى، ومحاولة تحريرهم، أو طلبات السماح للسفن التجارية الفرنسية باستعمال الموانئ المغربية .

6- رحلة أفوقاي لفرنسا:

قام بعض المغاربة بسفارات إلى فرنسا، ووصفوا مدنها وأوضاعها، ومن هؤلاء" أحمد بن قاسم الحجري" الملقب بأفوقاي؛ الذي أدرك من حياة أحمد المنصور،الخمس سنوات الأخيرة، وعمل عنده بالترجمة ،وأعجب أفوقاي بالسلطان المنصور، وبعلمه وثقافته ،حيث ذكر أن لديه مكتبة تحتوي على اثنان وثلاثون ألف كتاب في مختلف صنوف العلم [3] .

وقد وصف أفوقاي ملك المنصور، وقوة جيشه، والوباء الذي حلّ بالمغرب بقوله :

---

(1) Henry de Castries : Op. Cit. , T 2 , France , p141.

(2) Ibid , p324.

(3) أحمد بن قاسم الحجري أفوقاي : **رحلة أفوقاي (مختصر رحلة الشهاب إلى لقــاء الأحبــاب) 1611م/1613م** ، تحقيق محمد رزوق ، ط1 ، السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، د ت ، ص 106 .

« ... ولما بلغنا إلى محلة السلطان مولانا أحمد ابن مولاي محمد الشيخ لشريف الحسني وكان يقرب المدينة بنحو الستة أميال بسبب الوباء العظيم الذي نزل بتلك البلاد ، وكان عيد الأضحى في اليوم الآتي من بلوغنا ، وخرج السلطان في جنود – لم نظن ذلك – وعجبني حال الرماة فحزامهم هو أفضل وأحسن وأزين من حزام النصارى بكثير .أما العرب الذين جاؤوا وحضروا مع قوادهم فكانوا تسعا وعشرين ألف فارس، وكذا مائة ما عدا الصبايحية[1]،وفرسان المدينة ، والفرادة ، والجند كثير ... »[2].

وتحدث عن باريس بقوله :

« ... هي دار سلطنة الفرنج ،وبينها وبين مدينة روان نحو ثلاثة أيام ... بيوتها عالية ... وكلها عامرة بالناس ، وديار الأكابر مبنية بالحجر المنجور ... وتقول النصارى أن أعظم مدن الدنيا القسطنطينية ثم مدينة بريش... »[3]. فرحلة أفوقاي تعتبر مصدر تاريخي هام لمعرفة أوضاع فرنسا وإسبانيا خلال القرن السابع عشر الميلادي.

– وفاة أحمد المنصور :

كانت السنوات الأخيرة من حكم المنصور ثقيلة مربكة، فقد انتشر الطاعون واستمر يعصف بالبلاد سبع سنوات، فهلك الكثير من السكان ، وأقفرت المدن والريف ، ولجأ معظمهم إلى الجبال، وتعطلت الزراعة ورافق الطاعون القحط الذي استمر ثلاث سنوات، جفت خلالها الأنهار ونضبت الينابيع ،وتلا ذلك مجاعة مخيفة ،وكان أكثر ما حزّ في نفس المنصور هو عصيان وتمرد ابنه وولي عهده محمد الشيخ المأمون ، الذي كان حاكما على فاس حيث وصف أنه كان مدمنا للخمر لا يكترث بأمور الدين، ثار على والده رغم النصائح التي وجهت إليه ، فقرر والده التوجه لفاس لتأديبه ،فسمع "محمد الشيخ" بذلك الأمر، فجمع عساكره التي قدرت بحوالي اثنين و عشرين ألف مقاتل ، وقد عزم أن يتوجه إلى تلمسان لطلب العون من الأتراك العثمانيين[4] .

---

(1) فرقة الخيالة والفرسان في الجيش العثماني ، ينظر سهيل الصباغ :**المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**،مراجعة عبد الرزاق ومحمد حسن بركات ، مطبوعات الملك فهد الوطنية ، السلسلة الثالثة ، الرياض 2000 ، ص 132.

(2) أحمد بن قاسم الحجري أفوقاي : المصدر السابق ، ص 47 .

(3) نفسه ، ص 52 .

(4) للمزيد من الإطلاع على هذه الثورة والتمرد ، أنظر **الاستقصا** : المرجع السابق ، ج5 ، ص169.

والجدير بالذكر أن اختيار المنصور لأبنه محمد الشيخ المأمون وليا للعهد، لم يكن اختيارا موفقا إذ لم يلق أي ارتياح من السكان، ولا من إخوته أو أسرته ، فكان يدبر المكائد ويحيك المؤامرات ليستأثر بالحكم على حساب أبيه ، لكن مؤامرة الانقلاب فشلت، وتم اعتقاله وسجن بضريح "أبي الشتاء الخمار"[1] في المنطقة الشمالية ، ثم نقل إلى مكناس فمراكش[2] .

عزم المنصور بعدما انتهى من تمرد ابنه محمد الشيخ المأمون، بالرجوع إلى مراكش ، فلما بلغه ظهور الوباء بتلك النواحي، تريث في الرجوع إلى أن دخلت سنة 1012هــ/1603م ، لكن الوباء كان قد انتشر في كل المناطق الغربية، وقد أصيب المنصور بهذا الوباء بمدينة فاس الجديدة يوم الأربعاء الحادي عشر من ربيع الأول سنة اثني عشر وألف، وتوفي ليلة الاثنين من سنة 1012هــ/1603م.

مجمل القول:

أن فرنسا كانت تعاني آنذاك من الحروب الدينية، ومن التدخل الإسباني في شؤونها، و لم يكن بإمكانها أن تباشر علاقات سياسية نشطة خارج القارة الأوروبية ،لكن الحكومة الفرنسية كانت على علم بما يجري في المغرب من تطورات ، وكان أول قناصلها في المغرب هو "غليوم بيرار" الذي كلف من ملك فرنسا بتهنئة أحمد المنصور على انتصاره .وبعد مجيء الملك هنري الرابع إلى السلطة والذي أنهى الحروب الدينية، وأمّن الاستقرار في فرنسا، وحسن الأوضاع الداخلية ، بدأ يهتم بالمغرب الأقصى فحاول عقد حلف عسكري مع المنصور، وتنشيط العلاقات التجارية مع المغرب[3]. أمابالنسبة للمسألة البرتغالية و تداعياتها الدولية، فإن فرنسا كانت طرفا فاعلا في الصراع بينها وبين إسبانيا، وإنجلترا وهولندا، لعلها تفوز ببعض ممتلكات الإمبراطورية البرتغالية المنتهية،سواء في أمريكا اللاتينية، أو الخليج العربي، أو الهند، وقد أشتد الصراع بين هذه الدول في عهد الملكة الفرنسية كاترين دي ميديسي، التي قامت من أجل تحقيق تلك الأطماع ، بحرب جزر الأزور[4] سنة1582م ضد إسبانيا وتكبدت فيها خسائر كبيرة.

---

(1) محمد بن موسى ، صوفي يعرف بالخمار ، شاوي النسب يكنى بأبي الشتاء توفي عام 997 هــ ودفن بجبل أمركو من بلاد فشتالة أنظر هامش ابن عيشون الشراط : المصدر السابق ، ص 128 .

(2) إبراهيم حركات : **السياسة والمجتمع في العهد السعدي** ، ص 87 .

(3) دخلت فرنسا عهد العظمة بعد أن تولى هنري الرابع الحكم ،الذي يعتبر مؤسس ملكية آل بوربون بفرنسا، وأسس جيشا قويا ليدخل في حرب ضد الإمبراطور الألماني رودولف الثاني، ليتم اغتياله على يد أحد المتعصبين من الكاثوليك .أنظر عبد الفتاح حسن بوعلية وإسماعيل ياغي: المرجع السابق ، ص 194.

(4) Miguel dentas : Op.Ci t , p90 .

الخاتمة

في خـــتام هذه الدراسة لموضوع : " معركة وادي المخازن ، و أثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا (البرتغال و إسبانيا و فرنسا) (**986هـ– 1578م/ 1012هـ– 1603 م**) " توصلت إلى جملة من الملاحظات والنتائج يمكن حصرها فيما يلي :

1- إنّ دولة البرتغال كانت تعـــد إحدى أخطر القوى الصليبية المعادية للإسلام؛ فقد كانت تمتلك أسطولا بحريا ضخما، قامت بواسطته من احتلال مدينة سبته المغربية سنة 1415م .

2- إن النصر الذي حققه المغاربة على أعدائهم في وادي المخازن، لم يكن وليد الصدفة ،بل جاء بعد تخطيط محكم ،وتنظيم جيّد، وقيادة عسكرية ممتازة ،ومعنويات عالية.

3- انجلت الموقعة على نصرخالد في تاريخ الإسلام ، وعن موت ثلاثة ملوك : صليبي مجندل هو سبستيان ملك أعظم إمبراطورية على الأرض آنذاك، وخائن غريق مسلوخ هو محمد المتوكل، وشهيد هو عبد الملك المعتصم بالله ، وما زال التاريخ يذكره ،ويفخر بإخلاصه،وحكمته وشجاعته وفروسيته.

4- معركة وادي المخازن كانت جامعة للفرقاء ،بين المغرب،والأتراك العثمانيين في الجزائر، فوقفوا صفا واحدا في مجابهة القوى المسيحية .

5 - أوقفت موقعة وادي المخازن على المنطقة ، موجات الزحف الصليبي على ديار الإسلام ، وزادت من تقويّة ورفع معنويات المسلمين ، في مقاومة مشاريع الكنيسة ، وكسّرت حاجز الخوف بعد النكسات؛ التي أصيب بها المسلمون. ودقّت المسمار الأخير في نعش البرتغال، فتهاوت هذه الإمبراطورية وفقدت قوتها، واستقلالها ، قرابة ستين سنة من الاحتلال الإسباني؛ الذي دخل لشبونة في 16مارس 1581م .

6 – أدت معركة وادي المخازن إلى بروز "المسألة البرتغالية" على مسرح الأحداث ،والصراعات الدولية التي صاحبتها .

7- أحدثت الموقعة تغيّرات دولية بدخول الإنجليز، والفرنسيين، والهولنديين ،كمنافسين أشداء للسياسة الإسبانية في المغرب الأقصى ، واستعمال المشكلة البرتغالية كورقة ضغط، ووسيلة تدخل في الصراع الإسباني، الإنجليزي المغربي.

8- أفرزت المعركة فراغا في المجال الحيوي لهذه الدولة المنهارة ،والمتمثل في مستعمراتها، في كل من أمريكا الجنوبية (البرازيل)، وإفريقيا، وجزر المحيط الأطلسي ،وسواحل الخليج العربي، أدّى إلى الأطماع الدولية في ممتلكاتها.

9- تسببت معركة القصر الكبير في إحداث قطيعة، وجراح بين الشعبين البرتغالي والإسباني، عمّقت الخلافات وأحدثت آثارا جذرية، وهامة لمدة طويلة من الزمن .

10- رغم النصر الكبير الذي حصل عليه المغرب في معركة الملوك الثلاثة، إلا أنه لم يستثمر ويستفيد كثيرا من هذه الواقعة، في سياسته الداخلية، إذ أن المنصور في عزّ قوته بقي مترددا في توجيه ،ولو حملة واحدة لاسترداد الثغور المحتلة ،في حين يوجه حملة عسكرية ضخمة لجنوب الصحراء والسودان، يفقد فيها الآلاف من رجاله عطشا في الصحراء دون طائل، حبذا كما قال العلماء لو استعملها في مجابهة أعداء المغرب في السواحل.

11- عزز النصر مكانة المغرب الدولية ، حيث سارعت القوى الأوروبية لكسب ودّه، والتعامل معه بندية ،كأحد القوى المؤثرة في منطقة الشمال الإفريقي في الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

12- جنب الانتصار المغرب محاولة الضّم، التي سعت الدولة العثمانية لتحقيقها ،في محاولة منها لإلحاق الجناح الغربي لشمال إفريقيا بممتلكاتها .

13- أفرز النصر شخصية سياسية قويّة،هي شخصية أحمد المنصور الذهبي ؛الذي استطاع أن يتعامل مع الأحداث السياسية في عصره، بكل ذكاء، وفطنة ،ودهاء ، وأثبت قدرة دبلوماسية فائقة .

14- أعادت للمغرب نسبيا الرفاهية الاقتصادية ، والاستقرار السياسي، في فترة حرجة من أحداث القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

15- استطاع المنصور أن يحافظ على استقلال المغرب،ويجنبه مواجهة عسكرية، مع الإسبان في الشمال والأتراك العثمانيين في الغرب ،في فترة بالغة الحساسية في الصراع الدولي .

16- إذا التفت الشّعوب حول القيادة ، وآمنت بعدالة قضيتها، وأعطت هذه القيادة المثال الحسن في الدفاع عن كيانها ،وأمنها ودينها ،فإنّ الشّعوب ستنتصر على أعدائها،وتكسب التحدي ، وهذا ما قامت به قيادة عبد الملك السعدي ومن ورائه العلماء (قادة الرأي المغربي) في أرض المعركة.

16- كانت النهاية الفعلية للدولة السعدية سنة 1012هـ/1603م ،أي بوفاة أحمد المنصور الذهبي ،وإن ظلت تقاوم وتغالب الزوال ،لأكثر من خمسين سنة .

وأعتقد أنّ هناك جوانب أخرى في الموضوع، تحتاج إلى استكمال ودراسة، وتعمق خاصة في جوانب علاقات المغرب الخارجية، فلا ريب أن الباحثين والدارسين، سيتصدون لإظهار جوانب، ربما مازالت غامضة في فترات معينة من تاريخ هذا البلد .

الملاحق

الملحق الأول:

رسالة أحمد المنصور إلى الملك الإسباني فيليب الثاني غداة معركة وادي المخازن في الثاني من رمضان عام 986هـ / 1578م تحدد الملامح الجديدة للعلاقات المغربية الإسبانية

إستعاب كتاب بعثه أمير المسلمين أبي العباس أحمد الحسني الشريف إلى مقام سلطاننا دون فيليب نصره الله جوابا لكتابه العزيز الذي بعثه في تصريح جثة السلطان المرحوم ضون سيبستيان نصه :

بعد التسمية و التصلية

من عبد الله المتوكل على الله المعتمد في جميع أموره على كبير حوله أمير المؤمنين أبي العباس أحمد المنصور ابن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ الحسني، أحسن الله إليه، وأفاض نعمه ظاهرة وباطنه عليه ، إلى السلطان المعظم القدر والشأن ذي الأصالة العريقة والمناقب الحسان ملك ملة المسيح ، وكبيرها ومجيل ومجل قداح سياستها ومدبرها قطب تلك الدائرة، والمختص بمزاياها الفاخرة ،السلطان "ضون فيليب" ابن السلاطين الكبار المعروفين بجلالة المقدار، أدام الله لك الخيرات ووجه إليك وفود السعادة ،وركائب المسرات .أما بعد

حمدا لله مستحق الحمد ومستوجبه مولى الفضل ومكسبه، والصلاة والسلام على نبينا محمد وكافة الرسل والأنبياء بدور الهدى وصفوة الخلق في الأرض والسماء، فإنا كتبناه إليكم كتب الله لنا ولكم خيرا يتجدد ، وتوفيقا يشتد إبرامه ويتأكد من محلتنا السعيدة ومناخ رجال عساكرنا العديدة ولا ناشئ بفضل الله إلا التيسير والإقبال والسعد الصافي السر بال، وأنه وصل إلينا خطابك الجليل وكتابك المنطوي على كل جميل فتناولنا بيد الاعتناء بوصوله وحبسنا ركائبنا للتعليم والاستقصاء على أبوابه وفصوله من بدائع المعاني ونفائسها،ما عبر عن نباهة ذلك المقام السلطاني أي تعبير وعطر بطيب شداه أنفاس العنبر والعبير، وفي ضمن توجيهكم الرغبة في تصريح جثة السلطان "الضون سيبستيان" واقتنائنا بذلك عندكم من صروح الخير ما يفوق كل بنيان.

فأهلا بها من عرض ما أوسع له عندنا ساعة الإسعاف والإسعاد وأسرع العوارض في لتتميمه في طريق الإقصاء والإبعاد فلرغبتكم بهذا المقام العلوي محل الرحب والإكرام، وأغراضكم فيه محمولة من الاهتبال على الغريب والسنام ولو توجهت فيما هو أكثر للقيت وجه القبول مشرق الجبين والتيسير بعد إليها اليد المطلوب باليمين وقد جرت الأقدار على وفق مشيئة الله وإرادته بذلك الواقع وليس لما بقدره سبحانه ويقضيه من مدافع، وكان المبتغى أن يتخلص إلينا من تلك

الأزمات، وأن لا يعدو علينا فيها عوادي المحلات، ليظهر حسن صنيعنا فيه ويتعرف من تحفينا به ما نرجو أن يعطيه بقوادم الذكر الجميل وخوافيه ، لكنّ صدمته أمواج الفتنة مجهولا وجدلته حملتها بين حصى الموت مقتولا، وبعد حين رفع إلينا من طاف على صرعى المعركة خبره، وأنه أوقع علينا من تلك الجثاث نظره ، فأمرنا في الساعة بحمله وإيداعه صون مستودع ووكلنا به من يحبو في رعيه وحفظه ويضع أخذا بالفضل التي لا تحيد الملوك على الأخذ به والسعي على مذهبه .

وإذا وصل كتابك فيه فها نحن سرحناه مكرما، ورفعنا لإتمام غرضك فيه علما ولو بعثت فيه وهو حي لنشرنا لك من حسن الصنع إسعادا وإسعافا ما لا يعتذره بحول الله طي لعملنا على تلك الشاكلة، فككنا عن خديمكم "جوان دي سيلفا" قيود الأسر، وعاملناه مراعة لمقامكم بالتسهيل واليسر، للأغراض كل حجة فلا يمنعكم من أغراض بهذا المقام العلوي، مانع فتور الاعتناء بها في أفق التكرمة ساطع والله يديم لكم الخير ويعرفكم اليمن والسعادة في الثامن. من رمضان المعظم عام ستة وثمانين من الهجرة عرفنا الله خيره وخير ما بعده وكتب في التاريخ للسلطان المعظم القدر "دون فلب" عرفه الله عوارف الخيرات [1].

(1) عبد الكريم كريم : **من الوثائق النادرة لمعركة وادي المخازن** ،في مجلة دعوة الحق ، المغرب 1978م ، عدد 8، ص 36.

الملحق الثاني:

وثيقة عثمانية حول معركة وادي المخازن

الوثيقة تبين الاستعدادات العسكرية التي باشرها الجزائر، عندما علم السلطان العثماني نية البرتغال لغزو المغرب في صيف986هـ/ 1578م ، حتى تكون على جهوزية كاملة للتدخل إن اقتضى الأمر.

إلى حسن باشا أمير أمراء جزاير المغرب :

وردت رسالة إلى دار السعادة جاء فيها: أنّ ملك البرتغال يستعد منذ ثلاثة أشهر لجمع عساكره ،وأنّ البابا ودوق فرنسا قاما بإرسال أربع أو خمس بوارج محملة بالمحاربين والذخيرة لمعاونة البرتغال، كما وصل ملك البرتغال إلى حدوده واجتمع مع ملك إسبانيا ،ولم يعلم ما دار بينهما من مشاورات ، وقد سمع أنه تقرر أن يزوج ملك إسبانيا ابنته لملك البرتغال، وأن يقوم على وجه السرعة بإعداد عشرة آلاف محارب لمساعدته، كما يقدم ستين قادرغة لمساعدته في العبور إلى شاطئ المغرب ،لأنّ ما لدى ملك البرتغال من السفن لا يتجاوز ثمانية ، أما عن أفكارهم الفاسدة فلا تعرف توجهاتها ،ويبدو أنّ ملك إسبانيا سوف يسير في الشتاء إلى فلاندرة لأنها شقت عصا الطاعة عليه مند السنة الماضية، ولكنه إذا توجه إلى فلاندرة فسوف يترك ولايته خالية وسوف يضطر إلى عقد صلح مع سدتنا .

ومن المحتمل أن يسير ملك البرتغال إلى مولاي عبد الملك؛ لأن ابن أخيه محمد التجأ إلى قلعة سبتة، التي تحت يد الكفار وتخابر مع ملك البرتغال وحمل رجاله عدة رسائل إليه ، وبعد وصولهم إلى تلك القلعة، اتصلوا بملك البرتغال وحلفائهم من أمراء الحدود وذلك بغية نشر أفكارهم الفاسدة، وقد صادفتهم أثناء سيرهم في البحر جند مولاي عبد الملك ،والقوا القبض عليهم وبعد الوقوف على أمرهم تم قتل اثنين منهم وسجن الثالث.

أمّا مولاي عبد الملك فيستعد للحرب ،وقد قام بإرسال أخيه مولاي أحمد بصحبة ما يقرب عن عشرة آلاف جندي، وتوجه هو بصحبة أربعين أو خمسين ألف جندي، واتخذت إجراءات الحيطة في أنحاء الولاية وعليك حاليا (حسن باشا) القيام بتعيين ألف وخمسمائة من عسكر الجزائر واثني عشر أميرا وإرسالهم إلى مناطق الحدود، وتجهيز عشرين قطعة بحرية كل منها على أهبة الاستعداد للغزو والجهاد ، وقد ذكرت أنهم على استعداد لتقديم أرواحهم فداء للدين والدولة فلتبيض وجوههم ، ومولانا هذا واحد منهم .

وعساكرنا في دار الجهاد ولاية جزاير الغرب، هم عبيد الغازي وعلى استعداد دائم لتقديم أنفسهم وأرواحهم في سبيل العزة، و الهمايونية وهم غزاة شجعان.

وقد أمرت:

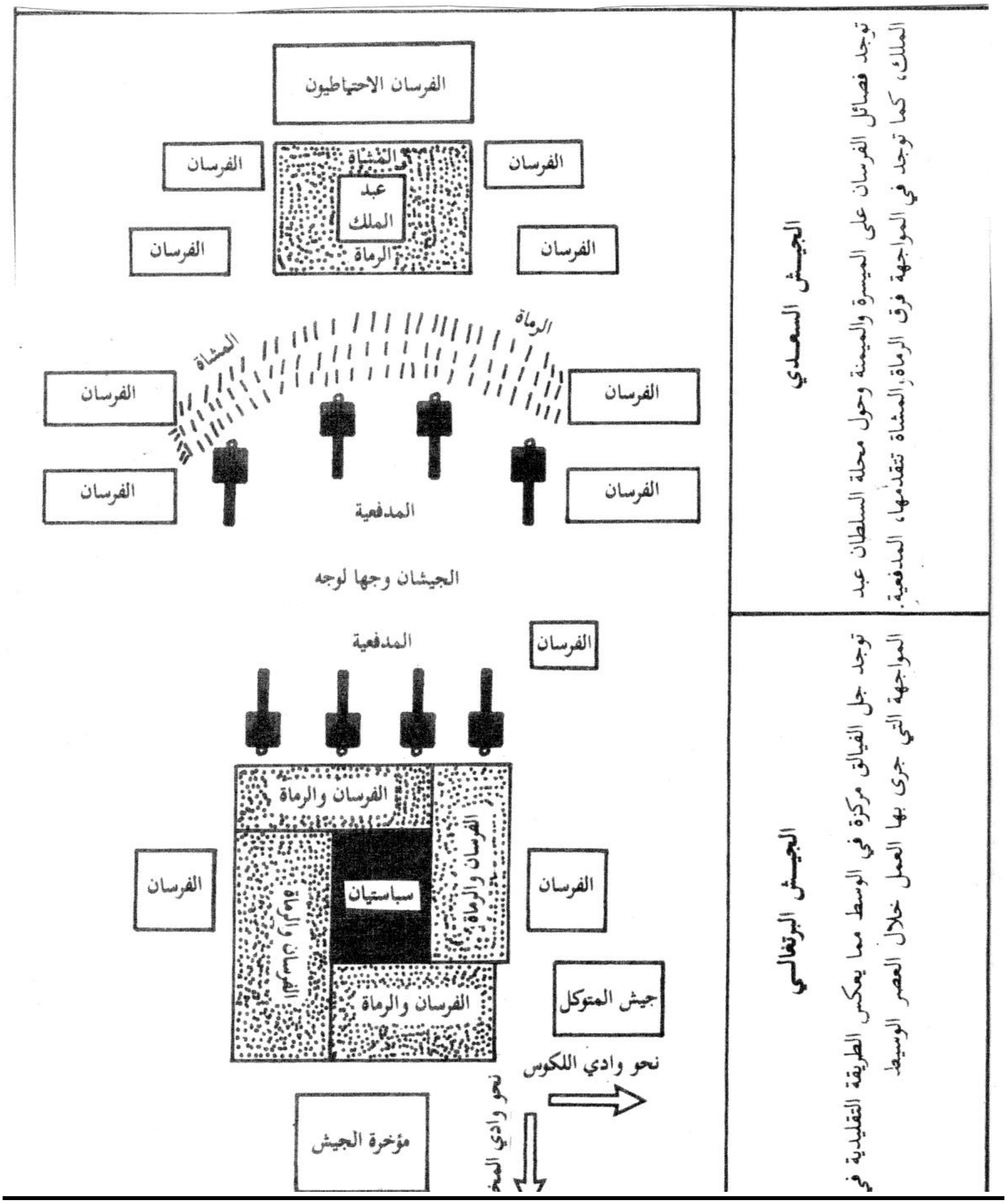
حين تسلمكم أوامرنا أن تقوم بجمعهم وإرضائهم، كما يجب وأن يكون كل منهم كما كان من قبل مجهزا ومعدا لقتال العدو، ولترغبهم في الجهاد والغزو وأن لا تغفل لحظة أن ترسل العيون إلى كل ناحية لتتبع أحوال العدو ، وان تبدل ما عليك في سبيل الدين والدولة(1).

---

(1) دلندة الأرقش و عبد الحميد الأرقش وآخرون : **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر** ، تعريب إبراهيم بن حدة،أرشيف إسطنبول ، مركز النشر الجامعي ، ميدياكوم ،ص ص 76-77.

الملحق الثالث :

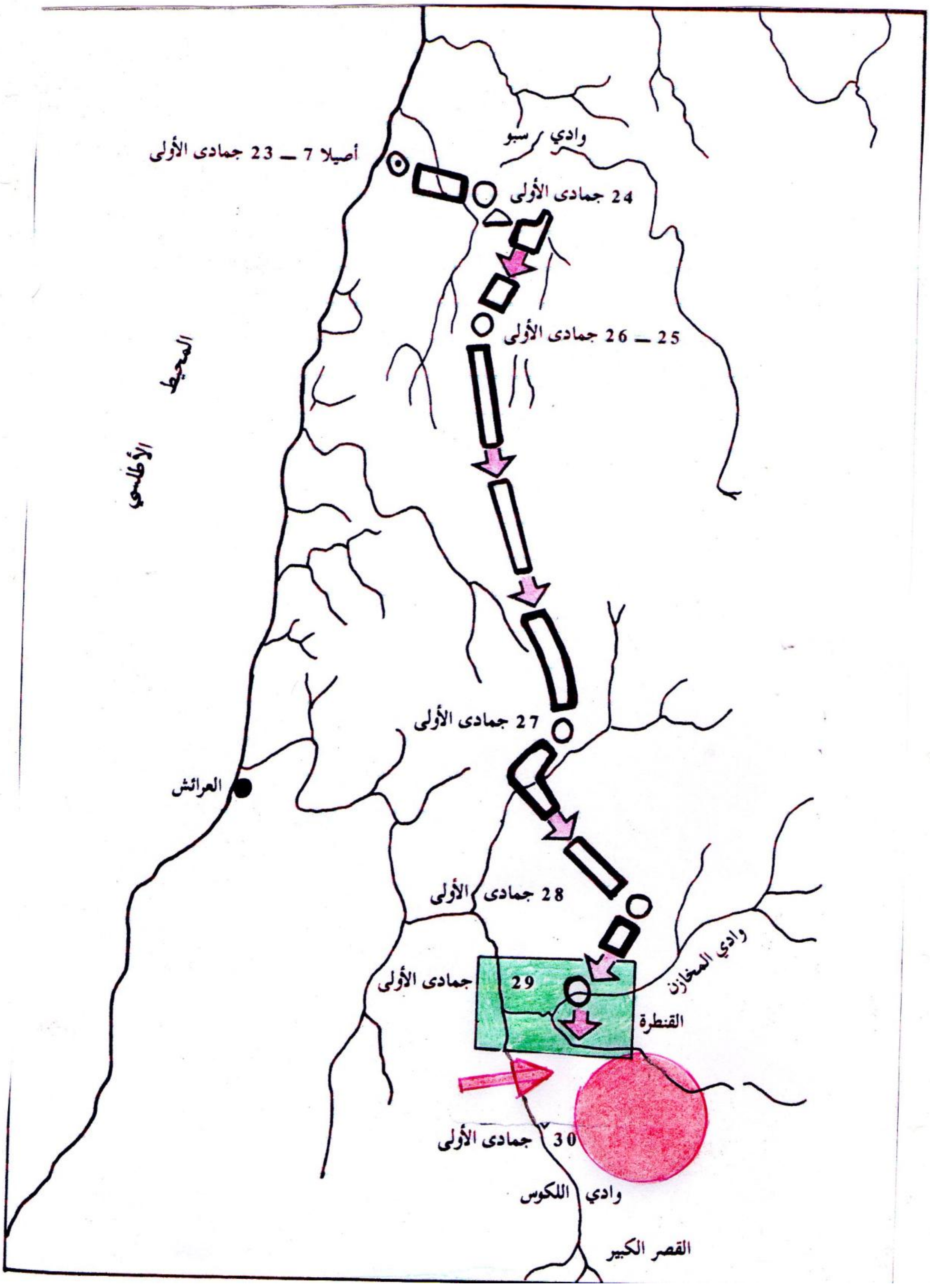
وضعية الجيشين المغربي والبرتغالي على ميدان المعركة[1]



(1) المرجع مجلة الإحياء ، تصدرها رابطة علماء المغرب ، المغرب 1981، عدد1، ص 251.

الملحق الرابع

خريطة تبين تنقلات الجيش البرتغالي ومكان حدوث المعركة: [1].



(1) المرجع : **مجلة الإحياء** ، تصدرها رابطة علماء المغرب ، المغرب 1981 ،عدد 1 ،ص250.

الملحق الخامس : كشف بتعداد القوات البرتغالية والمغربية

1 – القوات البرتغالية: بقيادة الملك سيبستيان(1) .

تسعة آلاف جندي برتغالي (9000)

ثلاثة آلاف ألماني (3000)

ألفان قشتالي (2000)

أربعة آلاف فارس (4000)

عشرة آلاف جندي إسباني (10000)

ستمائة من العبيد (600)

ثمانية بوارج برتغالية (8) بوارج برتغاية

ستون غاليرة إسبانية (60) غاليرة إسبانية

ست بوارج فرنسية (6) بوارج فرنسية

ألف عربجي (1000) يجرون العربات

مائتين مدفع : (200مدفع)

المجموع : ثمانية عشر ألف وستمائة مقاتل (29600) حسب رواية هنري دوكاستري بينما المؤرخ الفرنسي شاريار فقد أشار إلى ثمانين ألف مقاتل) 80000) وأجمعت المصادر العربية أن تعداده كان ما بين مئة ألف ومائة وعشرين ألف مقاتل .

2 – القوات المغربية : بقيادة عبد الملك السعدي(2)

ثلاثة آلاف من جند الأندلس (3000) بقيادة الدغالي .

ثلاثة آلاف من المشاة (3000) .

خمسة وعشرون ألف فارس (25000) .

ألف رام بالبنادق (أعلاج) (1000)

ألف وخمسمائة من عساكر الجزائر (1500)

ألف فارس متطوع وعدد كبير من المغَامرين (1000)

يَدعمهم أربع وثلاثين مدفع (34) . المجموع : قيل أربعين ألف مقاتل وقيل ثمانين ألف مقاتل.

---

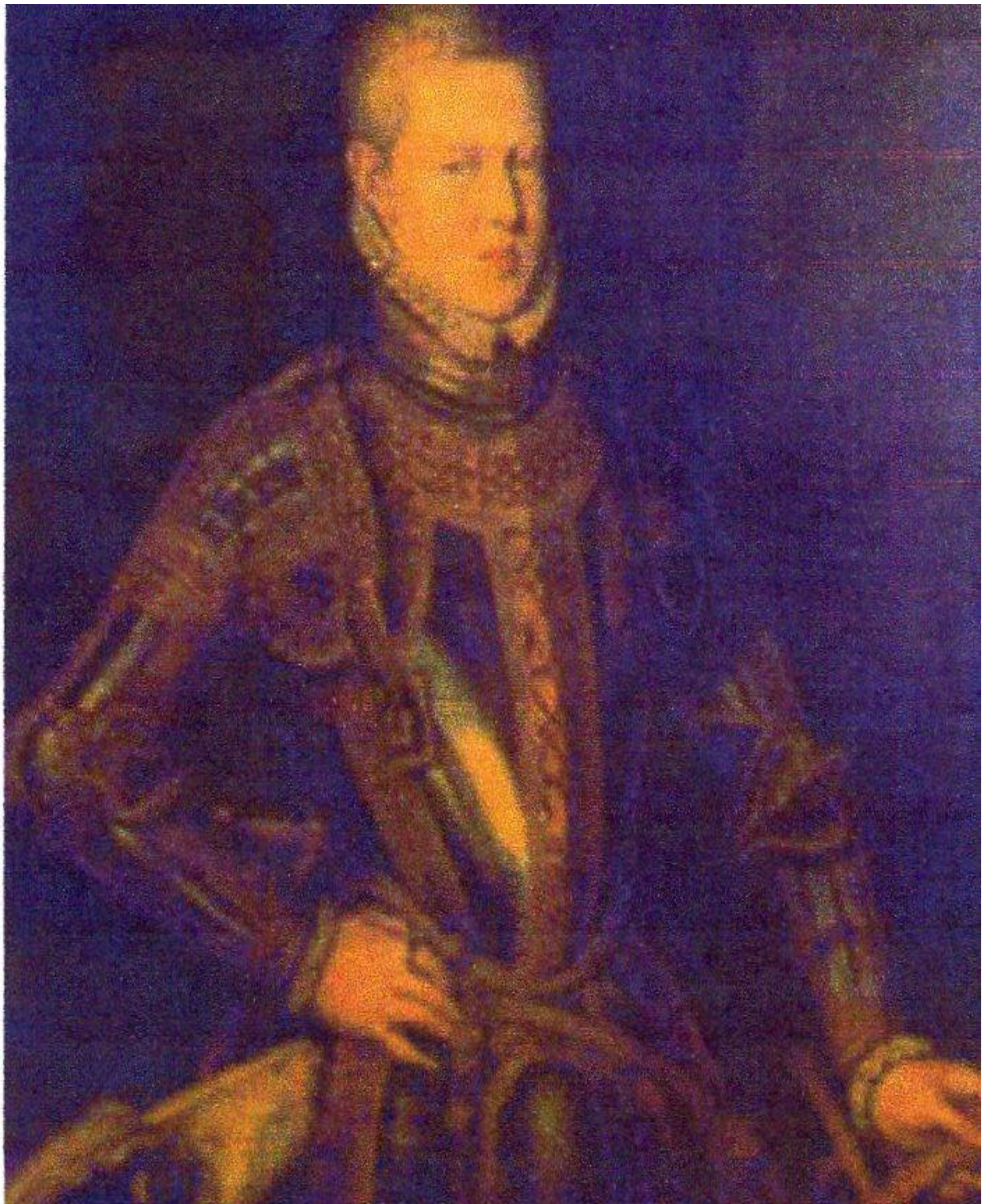
(1) M . Ferdinand Denis : **Portugal** , Imprimeur De Institut De France , S,D, p 268

(2) إبراهيم حركات : **السياسة و المجتمع في العهد السعدي** ، ص 71 .

-

الملحق السادس:

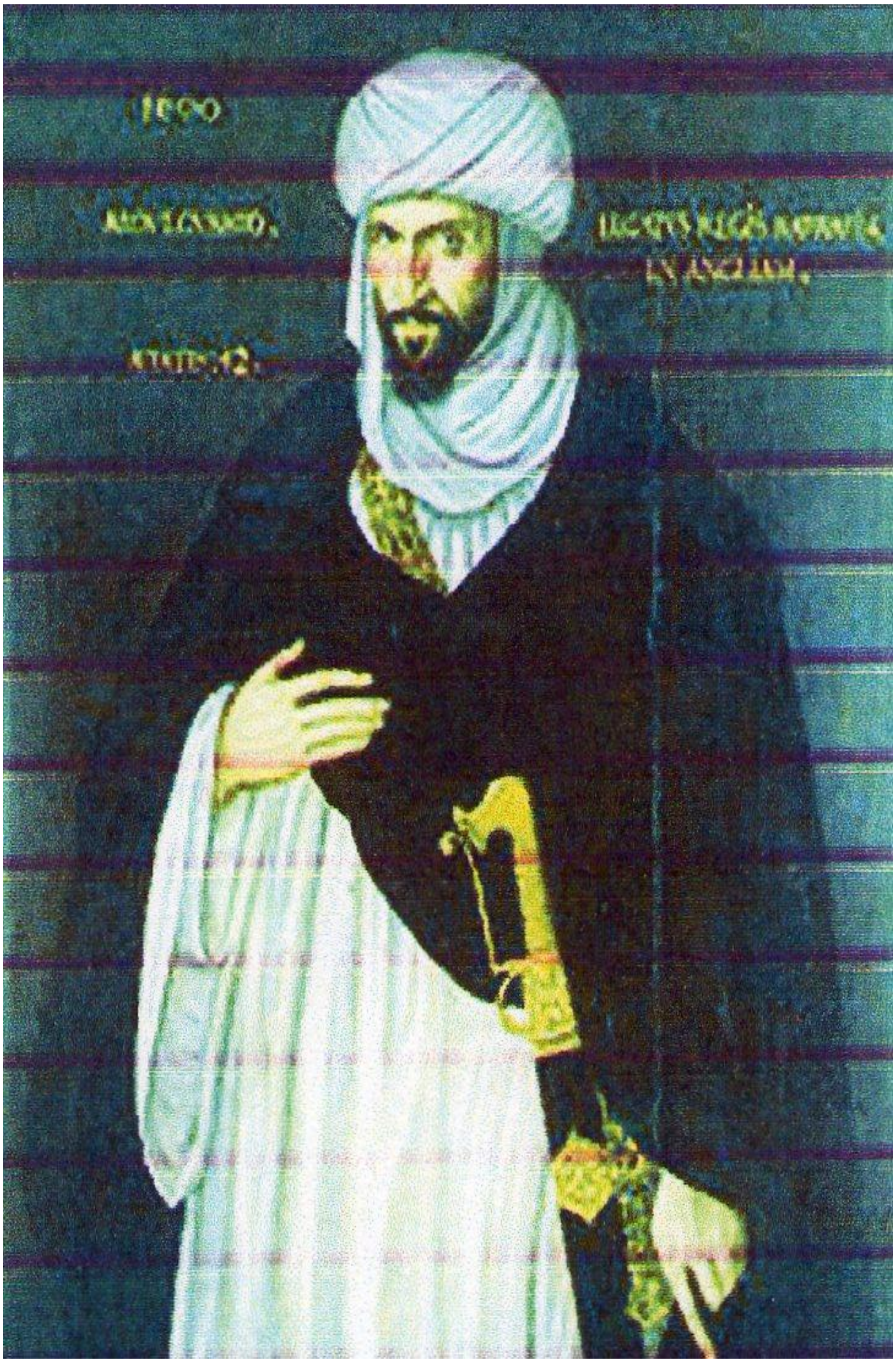
صورة للضون سيبستيان ملك البرتغال "قتيل وادي المخازن" [1].



(1) أنظر موقع ويكيبديا (الموسوعة الحرة) ، يوم 12-07-2010م على الساعة 19:00.

الملحق السابع :

صورة لعبد الواحد "المسعودي" سفير أحمد المنصورالذهبي(1).



(1) أنظر **منتدى الأندلس** ، يوم 13-07-2010م على الساعة 17:00.

الملحق الثامن :

الملوك والخلفاء الذين عاصروا أحمد المنصور (حسب الدراسة)

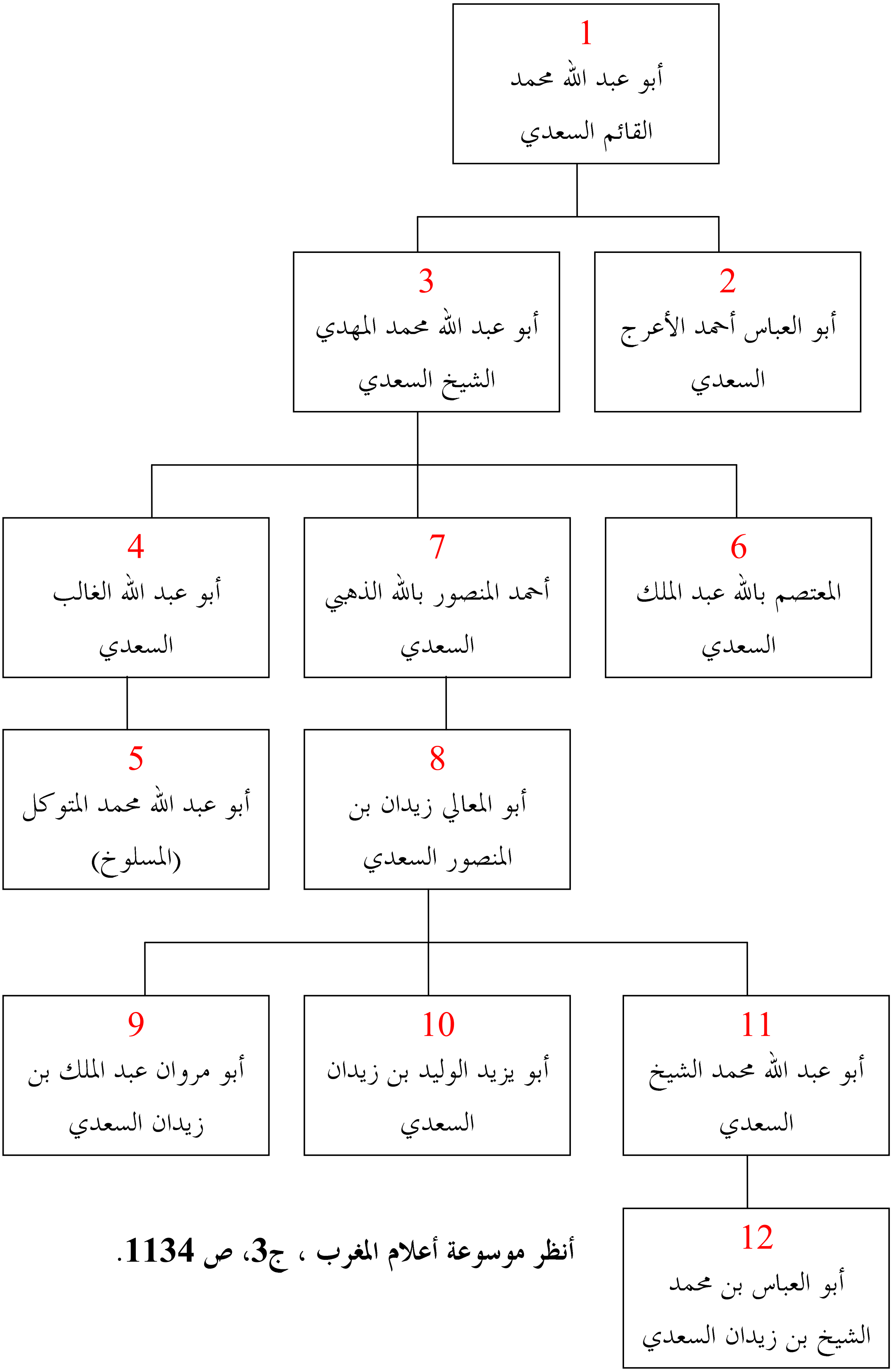
الدولة	الحاكم	فترة حكمه
الدولة العثمانية	مرادالثالث محمد خان الثالث	1574 م / 1594م[1] 1594م / 1603م
إسبانيا	فيليب الثاني فيليب الثالث	1556 / 1598 1598 / 1621
البرتغال	الكاردينال هنري فيليب الثاني فيليب الثالث	1578م / 1580م[2] 1581م / 1598 1598 / 1621
إنجلترا	إليزابيث الأولى	1558 / 1603
فرنسا	هنري الثالث هنري الرابع	1574 / 1589 1589 / 1610
السودان	إسحاق بن داود سكية	1588 / 1591

(1) إبراهيم بك حليم : **تاريخ الدولة العثمانية العلية** ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط1، بيروت 1988،ص ص 103-108.

(2) أنظر موقع ويكيبديا (الموسوعة الحرة) ، يوم 13-07-2010م على الساعة 15:00.

الملحق التاسع :

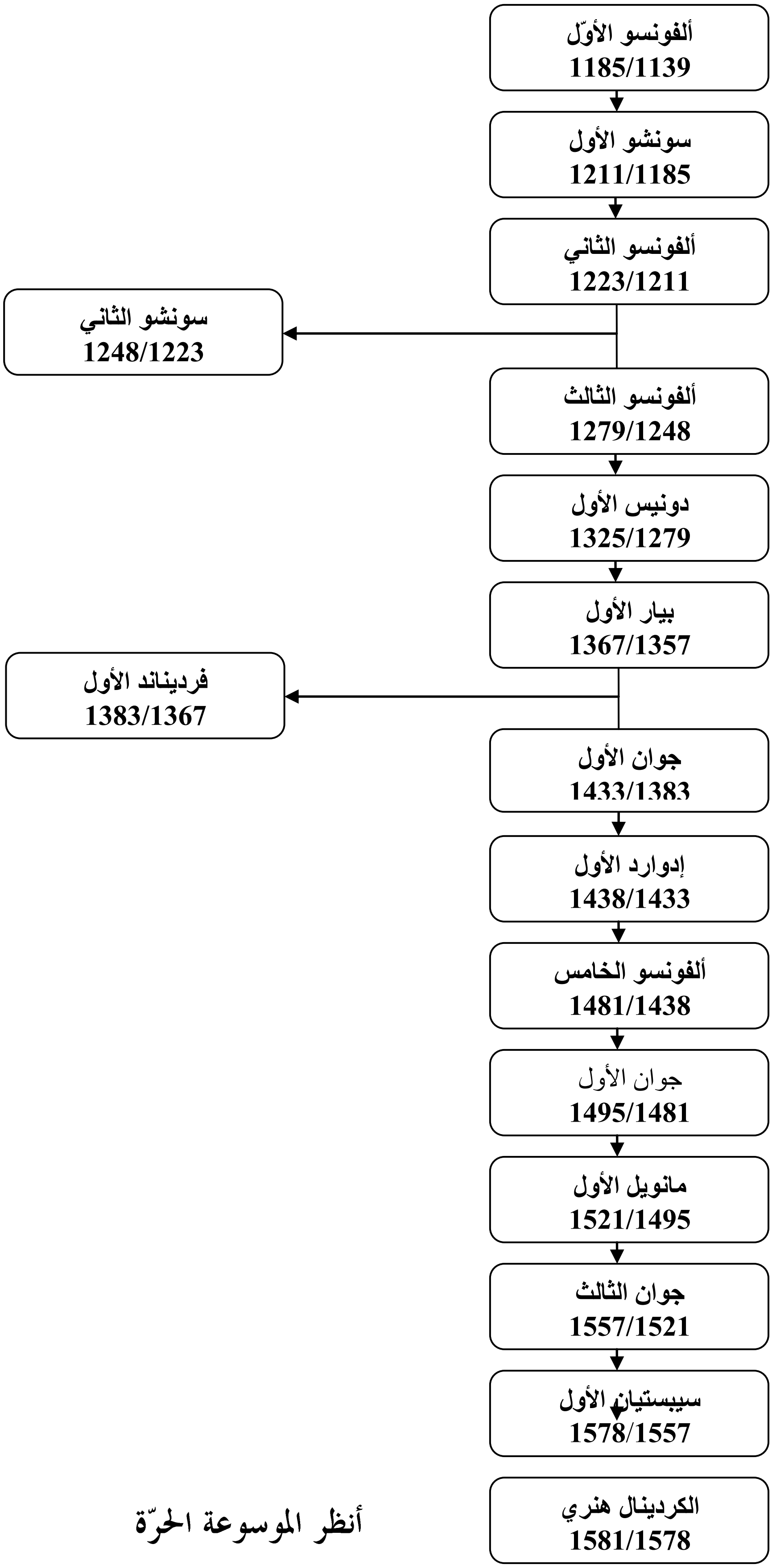
ملوك الدولة السعديّة



أنظر موسوعة أعلام المغرب ، ج3، ص 1134.

الملحق العاشر :

شجرة ملوك البرتغال إلى الاحتلال الاسباني سنة 1581م



أنظر الموسوعة الحرّة

بيبليوغرافية الدراسة

فهرس المصادر والمراجع

01- **القرآن الكريم** : برواية ورش عن نافع .

أولا – المصادر العربية :

2- أفوقاي أحمد بن قاسم الحجري :**رحلة أفوقاي (مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب) 1611م/1613م** ، تحقيق محمد رزوق ، ط1، السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي.

3- بابا أحمد التنبكتي: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** ،2ج، تقديم وإشراف عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط1، طرابلس1989.

4- البوريني الحسن بن محمد : **تراجم الأعيان من أبناء الزمان** ،تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ج1، دمشق 1959.

5- الجنابي مصطفى بن حسن الهاشمي:**البحرالزخاروالعلم الطيار** ، ترجمه إلى الفرنسية(Fagnan)، ونشره تحت عنوان **.** Extraits inédits relatifs au Maghreb , Alger 1924. .

6- الفشتالي أبو فارس عبد العزيز: **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء** ، تحقيق عبد الكريم كريم ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة ، الرباط ،د ت .

7- الفهري أبو حامد محمد العربي : **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن** ، تحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتّاني ، منشورات رابطة أبي المحاسن، د ت .

8- ابن القاسم محمد الأنصاري : **اختصار الأخبار عمّا كان بسبته من سني الأخبار**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2 ، الرباط 1983 .

9- ابن القاضي أحمد بن محمد المكناسي: **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد** ، تحقيق محمد حجي ، ط1، (موسوعة أعلام المغرب) ، ج2،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان 1996.

10- ابن القاضي أحمد بن محمد المكناسي: **درة الحجال في أسماء الرجال**،تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ط1، دار التراث ،1970القاهرة .

11- السعدي عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر: **تاريخ السودان** ،طبعه هوداس، المكتبة الأمريكية والشرق ، باريس 1981.

12- المجهول : **تأريخ الدولة السعدية الدرعية التّكمدارتية** ، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة ، ط1،دار تينمل للطباعة والنشر ، مراكش 1994م.

13– ابن منظور محمد بن مكرم : **لسان العرب** ، ط3، مؤسسة التاريخ العربي ، ج5 ، بيروت 1993م .

ثانيا– المصادر المعربة :

1– دييقو دو طوريس: **تاريخ الشرفاء** ، تعريب محمد حجّي و محمد الأخضر، شركة النشر والتوزيع ، الدار البيضاء ،د ت .

2– كاربخال مارمول لويس : **إفريقيا** ،تعريب محمد حجّي و آخرون ، دار النشر للمعرفة ، ج2، الرّباط ، 1989/1988.

3- الوزان الحسن بن محمد الفاسي : **وصف إفريقيا** ، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر ، ط2، دار الغرب الإسلامي ، ج1، بيروت، د ت .

ثالثا : الوثائق المنشورة باللغة الأجنبية :

1- De Castries henry **: Sources inedites du Lhistoire du maroc1530-1845,dynastie Saadienne**,Archive et bibliotheques de France ,T1, Paris 1905.
.

2-De Castries henry **: les sources inédites de L histoire du Maroc** ,1serie, dynaste saadienne , Archives bibliothèques de France , T2 , éditeur Ernest leroux , paris 1909.

3- De Castries henry **: les sources inédites de L histoire du Maroc** ,1serie, dynaste sadienne , Archives bibliothèques D'Angleterre , T2 , Paul geuthner , paris et Luzace , londre .

4- charrière Ernest : **Négociations de la France dans le levant ,**T3 , imprimerie impériale, paris .

5- Ricard Robert et de laveronne chantal et autres: sources **inédites de l histoire du maroc ,1 serie dynastie saadienne** ,Archive et bibliothèque de Portugal , T6 ,1552-1580.Paris, 1953.

6 -Renan Ernest : **Document inédites sur L' histoire de L Occupation Espagnole en Afrique** , publier par le Marchal de macmahon ,Alger 1875.

رابعا – المراجع العربية :

1- أرسلان شكيب : **خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة** ، مطبعة المنار، مصر 1925.

2- الأفراني محمد الصغير بن الحاج : **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي** ، ترجمة هوداس، باريس 1889م.

3- بشتاوي عادل سعيد : **الأندلسيون المواركة** ، دار المقطم للنشر والتوزيع ، القاهرة 1983.

4-التازي عبد الهادي : **التاريخ الدبلوماسي للمغرب** ،10ج، مطابع فضالة ، المحمدية ، ج 8 ، المغرب 1988.

5- الجزنائي علي : **جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس** ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، ط2 ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1991م .

6-الجمل شوقي عطا الله :**تاريخ المغرب العربي الكبير**،ط1 ، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة1977.

7- الجمل شوقي عطا الله وعبد الرزاق عبد الله : **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر** ، ط2 ، دار الزهراء ، الرياض 2002 .

8- الجيلالي عبد الرحمن بن محمد :**تاريخ الجزائر العام** ،ط8، دار الأمة ، ج3، الجزائر 2007.

9- حجي محمد : **مشاهير رجال المغرب** ، ط1، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، ج5، 1994.

10- حركات إبراهيم : **المغرب عبر التاريخ** ، ط1، دار الرشاد الحديثة ،ج 2 ، الدار البيضاء ، المغرب1978.

11- حنظل فالح : **العرب والبرتغال في التاريخ** ، ط1، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي1997.

12- حومد أسعد : **محنة العرب في الأندلس** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط2، بيروت1988.

13- بن خروف عمار : **العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي** ، ط1 ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، ج1، الجزائر 2006.

14- بن خروف عمار: **العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي** ، ط1 ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، ج2، الجزائر 2008.

15- أبو خليل شوقي: **وادي المخازن** ، ط 4 ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا 1993.

16- خير فارس محمد : **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح الإسلامي إلى الاحتلال الفرنسي**، ط1، مكتبة دار الشرق، بيروت 1969.

17- داود محمد: **مختصر تاريخ تطوان** ، ط2 ، المطبعة المهدية ، تطوان ، المغرب 1955.

18- الدورة علي بن إبراهيم : **تاريخ احتلال البرتغال للقطيف** ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي 2001.

19- رزوق محمد : **دراسات في تاريخ المغرب** ، ط1، دار إفريقيا الشرق ، دار البيضاء ، المغرب 1991.

20- زبادية عبد القادر : **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية وجنوب الصحراء**، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1989.

21- الزبيري محمد العربي: **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث** ، مطابع المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر 1975.

22- زهر الدين صالح :**موسوعة معارك العرب منذ الفتح العربي حتّى 1968م** ، ط1، دار الندوة الجديدة ، بيروت 2000 .

23- الزياني محمد بن يوسف : **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران** ، تحقيق الشيخ المهدي بوعبدلي ، الجزائر.

24- الزياني أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم: **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، ترجمه للفرنسية Roger le Tourneau ونشره mougin et Humberger في مجلة الغرب الإسلامي والمتوسط ، آن بروفانس، عدد 23 ، 1977 .

25- سعيدوني ناصر الدين : **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر** ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984م.

26- السلمان محمد حميد : **الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة 1535/1507م**، مركز زايد للتراث والتاريخ ، 2000 .

27- شحاتة عطا علي محمد رية : **اليهود في المغرب الأقصى في عهد المرينيين و الوطّاسيين** ، ط2 ، دار الكلمة للطباعة ، دمشق 1999 .

28- شلبي أحمد : **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية ،ط1، القاهرة 1972.

29- الصباغ سهيل : **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية** ،مراجعة عبد الرزاق ومحمد حسن بركات ، مطبوعات الملك فهد الوطنية ، السلسلة الثالثة ، الرياض 2000.

30- الصلابي علي محمد:**الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط** ، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة،2005.

31- الصلابي علي محمد: **صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي**، ج2،دار الفجر للتراث، القاهرة ،د ت .

32- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري:**الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى** ، تحقيق جعفر الناصري و محمد الناصري ، 9ج، دار الكتاب ،ج5، ج6 ، الدار البيضاء ، المغرب 1955.

33- عبد الكريم مصطفى : **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية** ، ط1 ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، 1996.

34-العربي إسماعيل : **معجم الفرق والمذاهب الإسلامية** ، ط 1، دار الأفاق ، المغرب 1993

35- العربي إسماعيل: **الصحراء الكبرى وشواطئها**،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1983.

36-عنان محمد عبد الله: **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** ، ط4، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1997.

37- ابن عيشون أبو عبد الله محمد الشراط: **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس** ، تحقيق زهراء النظام ، ط1، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب 1997 .

38- الغزال أحمد : **رحلة الغزال** ، تحقيق إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1984 .

39- الغساني محمد الأندلسي : **رحلة الوزير في إفتكاك الأسير** ، تحقيق نوري الجراح ، ط 1، دار السويدي ، أبو ظبي 2002 .

40- غلاب عبد الكريم : **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي** ، دار الغرب الإسلامي ، ط1، بيروت 2005.

41- القادري محمد بن الطيب : **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني (موسوعة أعلام المغرب)** ، تحقيق محمد حجي و أحمد توفيق ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، ج 3 ، بيروت 1996 .

42- قدوري عبد المجيد : **المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر**،المركز الثقافي العربي ، ط1، الدار البيضاء 2000.

43- فريد محمد بك المحامي: **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ، ط3، مكتبة الآداب القاهرة، مصر 2009م.

44- كريم عبد الكريم : **المغرب في عهد الدولة السعديّة** ،جامعة محمد الخامس ، الرباط ، المغرب 1978.

45- مجهول : **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب،** تحقيق ألفريد البستاني ، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، بورسعيد 2002.

46- محمود علي عامر و فارس محمد خير : **تاريخ المغرب العربي الحديث** ، منشورات جامعة دمشق، 2000/1999.

47- مخلوف محمد بن محمد : **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** ، المطبعة السلفية ، القاهرة 1349.

48- المقري أحمد بن محمد : **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش و فاس** ، ط2 ، المطبعة الملكية ، الرباط 1983.

49- بلحميسي مولاي: **الجزائر خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني** ، الشركة والوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1981.

50- نوار عبد العزيز ومحمد جمال الدين : **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى،** ج1، دار الفكر، دمشق 1999.

51- النشار محمد محمود:**تأسيس مملكة البرتغال،**ط1،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، طنطا 1992.

52- ياغي إسماعيل أحمد:**الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث،** ط1 ، مكتبة العبيكان،الرياض 1996 .

53- يحيى جلال: **المغرب الكبير (العصور الحديثة)** ، ط1 ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ج3، بيروت 1981 .

خامسا – المراجع المعربة :

1– ألتر عزيز سامح : **الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا** ، تعريب محمود علي عامر ، ط1، دار النهضة العربية ، بيروت 1989.

2– براون جفري : : **تاريخ أوروبا الحديث** ، تعريب علي المرزوقي ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان، الأردن 2006 .

3– جوليان شارل أندري : **تاريخ إفريقيا الشمالية** ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، ج2، الدار التونسية للنشر ، 1985 .

4– روجرز ،ف،ج : **تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900** ، تعريب يونان لبيب رزق ، ط1 ، دار الثقافة ، دار البيضاء ، المغرب 1981 .

5– نكروف يوسف : **معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة** ، تعريب وفاء موسى ويشو وحسين حيدر، ط1، منشورات عويدات ، د،ت ، بيروت .

6– ويلز ، هـــ، ج : **موجز تاريخ العالم** ، تعريب عبد العزيز توفيق جاويد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 2002.

سادسا – المراجع الأجنبية :

.

1-Bennassar bartolomé et Bennassar Lucile : **les chrétiens D'allah** L histoire extraordinaire des renégats 16 siècle et 17 siècle , paris , perin 1989.

2-Braudel Fernand : **La méditerranée et le monde méditerranéen a L Epoque de Philippe 2** , T2 , Armand colui , paris 1966 .

3-Charles Louis : **les jésuites dans les Etats barbaresques Alger et Maroc** , boston Collège , libray ,S,D, paris.

4-Dantas Miguel : **les faux don Sébastien étude sur L histoire de Portugal** ,T 1, Chez Auguste purand ,paris 1866.

5-Denis .M. Ferdinand **: Portugal** , Imprimeur De Institut de France ,S.D.

6 Denis .M. Ferdinand : **Chevaleresque de l Espagne et du Portugal** , T2 , S , D, Paris.

7- Diego Fray de Haédo : **Histoire des rois d' Alger**, traduite H ,D grammont , Alger1881.

8-fey Léon Henry**: Histoire D Oran avant et après et pendant la domination Espagnole** , Editeur , boulevard O udinot ,S.D.

9- Fillas .m.a **: L Espagne et le Maroc en 1860**, poulet Malassin et de broise ,S.D, paris .

10- fremy Edouard: **un ambassadeur libéral sous char le 2 et Henri 3 a Venise d Arnaud du ferrier** , vol 01 , Leroux, paris 1880.

11- Guérin L éon **: Histoire Maritime de France** , Chez Abel ledoux , editeur , Paris .

12- Godard Léon : **Description et histoire du Maroc** , Editeur Librairie pour L art Militaire Et les sciences ,S.D, paris .

13- Heaulme Victoire : **Dom Sébastien de Portugal ou les mystéres de la Bataille d' alkasar1578**, Paris ,1854 .

14- Mercier Ernest**: Histoire de l àfrique Septentrionale** ,T3, paris.

15- M.Watson :**Phillipe2 roi d éspagne** ,vol 1 , Mesterdam .

16- louis –joseph Alexendre- :**Itinéraire descriptif de L éspagne** ,imprimerie de firmin dido ,S, D.

17-Nicolas desmarest :**encyclopédie méthodique, géographie , physiqu**e ,tome 02, imp, h.agasse, paris1803.

18- Nicholson : **The life of sir francis drak** , London 1828.

19 - Rebello da silva.L.A : **Invasion et Occupation du royaume de Portugal en 1580**, librairie August Durand , T1, paris 1864.

20- Savine Albert : **dans les fers du Maghreb** , Société des éditions , Louis Michaud ,S.D.

21 - shafer Hennri :**Histoire de Portugal** , traduit de l'allmand hennri soulance bodin Adolphe delhays , librairie ,Paris 1558.

سابعا – المقالات والدوريات العربية :

1– مجلة دعوة الحق المغربية:

1– أعراب سعيد : **موقعة وادي المخازن واندحار الصليبية بالمغرب** ،في مجلة دعوة الحق ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،المغرب ، عدد 8، 1978.

2– التازي عبد الهادي : **وقعة وادي المخازن بدون رقابة** ،في مجلة دعوة الحق ، عدد 8 ، 1978م .

3– بن تاويت محمد : **وثيقتان هامتان عن معركة وادي المخازن** ،في مجلة دعوة الحق ، عدد 8 ، 1978م .

4– حجي محمد : **المغرب في عهد الدولة السعدية** ، ، في مجلة دعوة الحق ، عدد 5 ، أوت ، سبتمبر 1980.

5– حركات إبراهيم : **أحمد المنصور الذهبي كرجل دولة** ،في مجلة دعوة الحق ، عدد 8 ، 1978م

6– السّايح حسن : **العلماء وراء معركة وادي المخازن** ،في مجلة دعوة الحق ، عدد 8 ، 1978م.

7– العافية عبد القادر : **الاحتلال البرتغالي ومعركة وادي المخازن** ،في مجلة دعوة الحق ،عدد 8، 1978م .

8– العمراني عبد الله :**معركة القصر الكبير** ،في مجلة دعوة الحق، عدد 1، نوفمبر 1964م.

9–الفاسي محمد : **احتلال البرتغاليين للثغور المغربية**،في مجلة دعوة الحق ، عدد 8، 1978م.

10– قشطيلو محمد : **مدى تأثير موقعة وادي المخازن في نفوس البرتغاليين** ،في مجلة دعوة الحق ، عدد 4 ، جويلية 1960 .

11- كريم عبد الكريم : **من الوثائق النادرة لمعركة وادي المخازن** ،في مجلة دعوة الحق ، عدد 8، 1978م

12- المنوني محمد : **وثيقتان جديدتان عن ذيول موقعة وادي المخازن** :في مجلة دعوة الحق ، عدد 8 ، 1978.

2- – مجلة المؤرخ :

1- جادور محمد: **ديبلوماسية أحمد المنصور من خلال تقاييد أسير برتغالي** ، في مجلة المؤرخ ، جمعية ليون الإفريقي للتنمية والتقارب الثقافي ، المغرب ، عدد 4 ،جوان ،جويلية ، أوت 2009.

3 – مجلة الدراسات التاريخية:

- بن خروف عمار: **ملامح من الحياة الاقتصادية في عهد السعديين** ،في مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، عدد 3 ، 1978م.

4 – مجلة التاريخ العربي

- بوزينب حسين: **من العرايش إلى فضالة أربعة عقود ونصف من الإستراتيجية الإسبانية في احتلال مراسي مغربية 1578م/1624م** ،في مجلة التاريخ العربي ، جمعية المؤرخين المغاربة ، عدد 13 ، شتاء 2000.

5 – مجلة جامعة الملك سعود:

- السويكت فهد بن محمد : **موقف الأشراف السعديين من مسألة الخلافة** ، في مجلة جامعة الملك سعود ، كلية الآداب ، الرياض ، عدد 19، 2006 .

6- مجلة الإحياء :

- القباج عبد الرحمان: **معركة وادي المخازن 986هـ/1578م** ، في مجلة الإحياء ، تصدرها رابطة علماء المغرب، المغرب ،عدد1، 1981.

7- جريدة العرب الثقافي:

- فنيد عبد الطيف : **معركة وادي المخازن الدروس والعبر**، في جريدة العرب الثقافي ،ليوم الخميس 7/8/ 2008، ص8.

ثامنا – المقالات والدوريات الأجنبية :

revue L Occident musulman de la Mediteranné , Aix – en – provence

1-De laverrone Chantal: **Séjour en Andalousie de deux princes Sadiens après la bataille del-qsarel-kebir 1589,1595**, in R.O.M.M Aix – en – Provence ,vol 7 , N 1, Année **1970 .**
2- De laveronne Chantal : **les relations entre le Maroc et la Turquie du 16e s au début du 17e s(1554-11616)**, in R.O.M.M,NO1,1973.

3-Gandin jehanne Marie : **la remise de Larache aux Espagnols en 1610** , in R.O.M.M Aix – en – provence ,vol 7 , n°1, Année 1970 .

4- Berthier Paul:**la canne à Sucre richesse d l ancient Maroc** , in R.O .M .M , NO2 , 1964 .

5- Harkat Brahim : **le Makhzen Saàdien** , in R. O . M. M, vol 15-16 ,1973.

-revue Africaine , Alger

1- H Ahmed : **relation de la France avec le Maroc** , in, R . A , vol 45 , Alger 1901.

Cite Internet :

Hajajjaj Fatima : **la bataille wad elmakhazen** , Cite Internet , if rance . com

تاسعا – الرسائل الجامعية باللغة العربية :

1- حيمر صالح : **التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541م وتأثيراته الإقليمية** ، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد التاريخ وعلم الآثار ، جامعة باتنة 2006-2007.

2- غطاس عائشة : **العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر** (1619-1694)، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد التاريخ ،جامعة الجزائر 1984-1985.

3- فكاير عبد القادر : **الصراع الجزائري الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر 2000-2001.

عاشرا – الرسائل الجامعية باللغة الأجنبية:

1- Nollet André - Marc : **Les renégats : Leur contribution a la construction de l état marocaine du 16 siècle au 17 siècle** , Mémoire , Université du que bec à Monte real , Mai 2008.

الفهارس

- فهرس الأعلام .
- فهرس الأماكن والبلدان .
- فهرس القبائل والجماعات .
- فهرس المحتويات .

فهرس الأعلام :ملاحظة تسقط كلمة ابن و أبو من الأعلام.

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الأماكن والبلدان :

(أ)

(ب)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ط)

فهرس القبائل والجماعات :

(أ)

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ك)

(م)

فهرس المحتويات

Minister de l'Enseignement Superieur Et de la Recherche Scientifique
Centre Universitaire de Ghardaia
Institut des sciences humaines et sociales
Section Histoire

Le Titre de Mémoire

La bataille de Oued el Makhazen et son Impact Sur les relations maghrébines avec les pays de L'Occident d'Europe :le Portugal –L'Espagne – la France (986H-1578 /1012H-1603)

Thése du Majestaire

Etudiant :Ben koumar djelloul

Encadreur : Le Professeur Bellakrouf Amar
encadreur Assistant : Docteur boussalim Sallah

Année universitaire : 2010 / 2011

Résume

La bataille de wad-el Makhazen(délkhçar el- khebir pour les arabes et pour les portugais) dite aussi bataille des trois rois car trois monerques En 1578 Sébastien roi du sont laissé la vie.
Portugal rassemble une armée chrétienne forte 120 Milles hommes pour conquérir le Maroc ,L peut compter sur l alliance d un prince de la dynastie Saadienne , qui gouverne le pays Mohamed al Mutawakil ,chassé du pouvoir par son Oncle Abdelmalik,il espére le regagne grâce au soutien des Portugais, la bataille a lieu le 4 août 1578 au voisinage de la rivière wad al Makhazen Après avoir un moment cru en la victoire les portugais. Au point de départ un événement une guerre qui présente l économie d une tragédie classique , elle se joue en quelques heurs et une seule bataille qui sàchére par une victoire éclate du Maroc sur le Portugal.
Trois princes trouvent la morts au cours de l'affrontement guerre Meurtrière une des plus sanglante du XVI siècle ,elle une tournant décisif dans histoire du face en face entre l'islam et chrétienté.

-L'impact de la bataille de wad-el Makhazen surles relations maghrébines portugaises.

1- la perte du Portugal de son indépendance.

2- l' évasion des deux princes saadiennes au Portugal

3-De nombreux presonniers

4-le projet de don Antonio(Affaire portugaise)

5-le prince Christophe otage à El Mansour

6- El Mansour refuse de livre les presonniers Musulman après la victoire

7- la perte de chance de récupérer les villes colonie après la bataille

8-le soutien faible d El Mansour de lachboune en 1589.

9- la récompense de phillipe Ц du tuer DonAntonio

10- les forces étrangères aux tien portugaise

-L'impact la bataille de wad-el Makhazen surles relations Maghrébines espagnoles.

*Décision de phillipe Ц de présenter le cadavre de don sebastien

*Les présents deRoi phillipe Ц Ahmed Almansour

*la politique de Ahmed Almansour avec l' éspagne

*Des relations Maghrébines espagnoles au Maghreb an 1581.

*l espionnages espagnole au Maghreb

*le soutien espagnole a la révolution Nacer ben Maoula abdellah alkalib

*La catastrophe maritime espagnole au gouvernement saadien

*l' inquiétude de phillipe Ц de la force d EL Mansour

-L'impact la bataille de wad-el Makhazen sur les relations Franco-Maghrébine

- le roi français Henri Ш félicite Ahmed Almansour

- le rôle de la France à l' affaire portugaise après la bataille de wad-el Makhazen

- la défaite de la France dans la bataille des îles Açores en Juillet 1582.
- le projet de Henri IV avec Ahmed Almansour.
- la marine Maghrébine et la France
- la mort de Ahmed Almansour.